AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01039 1724

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

04-B3222 Put

تقديم الكتاب

كان أول ما فكرت فيه عند ما كتبت هذا الكتاب منفعة الطلاب الذين أحاضرهم فى علم النفس سواء فى معهد التربية للمعلمين أم فى غيره من المعاهد .

وقد قصدت فوق ذلك إلى تلبية الرغبة العامة لهواة علم النفس وقرائه ، وإلى المساهمة فى نشر هذا العلم الذى لا يدل حاضره إلا على قبس ضئيل مما ينتظره فى المستقبل من أهمية ومن أثر عظيم فى حياة الأفراد والجماعات ، ثم إنى أردت أن أخرج كتابا فى موضوع طالما تطاول عليه المتطاولون ، وليس أغلب ما كتب فيه مما يرتاح إليه الضمير العلمى .

غير أننى كتبت هذا الكتاب منذ وقت طويل ، وفيه كثير مما قد لا أحب الآن أن أعرضه على القراء ، ومما كنت أنوى أن أتناوله بالتغيير ، لولا أن أصدقاء نصحوا لى بإخراجه كما هو إتقاء لتأجيل جديد .

وقد شاء معهد التربية للمعلمين أن يكون هذا الكتاب ضمن مطبوعاته ، ولم يسعنى إلا أن أقبل هذه الرغبة شاكراً ، ومقدّراً للدوافع التى دعت إليها ، كما لا يسعنى إلا أن أشكر الزملاء الذين قرأوا الكتاب قبل طبعه سواء بتكليف من المعهد ، أو برجاء منى ، أو بهما معا ، مقدرا ما تجشموه من جهد فى القراءة والنقد . وأخص بالذكر الدكتور عبد العزيز القوصى ، والأستاذ محمد سعيد قدرى ، والأستاذ أبو الفتوح رضوان من أسرة المعهد ، فقد قرأ كل منهم أصول الكتاب قراءة تفصيلية رغم مشاغلهم الكثيرة ، وكان لكثير من ملاحظاتهم أثر فى الصورة النهائية للكتاب .

كما اشكر الأستاذ السيد محمد شكر المدرس بالمدرسة النموذجية بالأورمان لتفضله بقراءة تجارب الطبع

ولا يفوتنى أن أشكر من شجعونى من أساتذتى وزملائى وأصدقائى وتلاميذى على إتمام هذا العمل ، وقد كان هذا التشجيع خير حافز لى على إنجازه .

محمد فؤاد جلال

الباب الأول

تمهيد

عندما نحاول أن نعرّف علم النفس نجد أن أمامنا مهمة عسيرة . وليس ذلك بغريب ، فإنه ليس من السهل تعريف أى علم من العلوم ، حتى العلوم الطبيعية مع ما امتازت به من تحدد المنهج ووضوح المعالم .

وتبدو الصعوبة لأول وهلة فى تسمية العلم ، فهو علم « النفس » واستعمال كلمة « النفس » فى ذاته أمر يدعو إلى التساؤل . ماهو المقصود بها ؟ أهى « الروح » أم « العقل » أم هما معا ؟ أم شىء آخر غيرهما ؟

والواقع أن الإجابة على هذا السؤال لن تكون مجدية تماما إلا بعد دراسة هذا العلم ، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار إن علم النفس الحديث هو أحد العلوم التى تدرس « الانسان » فتنظر إلى جانب من جوانبه المتعددة ، وتحلل هذا الجانب ، وتصل فيه إلى الحقائق وتربط العلل بالمعلولات ، ثم تربط بين هذا الجانب الذى تدرسه من الانسان وبين جوانبه الأخرى .

ما هو هذا الجانب الذى يدرسه علم النفس ؟ لعله ليس هناك ما يوضح لنا اتجاه علم النفس الحديث خير من مقارنته بعلم آخر واضح المعالم لدرجة كبيرة ، هو علم وظائف الأعضاء ، أو « الفسيولوجيا » فهذا العلم أيضا يدرس الانسان ، يدرس جانبا من جوانبه ، هو جانب الوظائف التى يقوم بها جسمه ، بكليته وبأجزائه . فهو ينظر إلى النفس ، إلى التغذى وإلى النمو ، إلى الاخراج وإلى التناسل .. وإلى غير ذلك من الوظائف التى يقوم بها الكائن الحى أو تقوم به ، ويحاول أن يبحث عن كيفية حدوثها وعن آثارها وعلاقتها بعضها ببعض . إلى غير ذلك .

والإنسان لا تقتصر حياته على أنه يأكل ، وينمو ، ويتنفس ويتحرك . . وإنما هو يقوم بوظائف أخرى أو تقوم به هذه الوظائف . فهو يشعرُ ويدرك ويفكر ، ويتذكر ، وينفعل ، ويريد ويغضب ، ويرضى ، ويسرّ ، ووظيفة علم النفس أن يدرس هذه « الوظائف » دراسة توصلنا إلى فهم الكيفية التى تحدث بها ، وإلى ما بين بعضها والبعض الآخر ثم ما بينها وبين وظائفه الأخرى — الفسيولوجية — من علاقات وتفاعلات . وعلم النفس الحديث ينظر إلى النفس خلال هذه الوظائف فيعتبر أن هذه الوظائف « النفسية » هى مظهر النفس ، أو بعبارة أخرى أن النفس مجرد تسمية لجانب من جوانب الإنسان باعتباره كائنا حيا . فكأنها « الوسَط »(١) الذى تحدث فيه هذه الوظائف ، إذ أنه من العسير أن نتصور قيامها بدون وسط تحدث فيه كما يصعب علينا أن نتصور انتقال موجات الضوء والكهرباء بدون وسط تحدث فيه وينقلها ولذلك نفرض وجود الأثير .

ومعنى ذلك أننا ننظر إلى الكائن الحى — والحيوان فى ذلك مثل الإنسان — باعتباره وحدة ، فكما أنه يتغذى ويتنفس ، فهو يشعر ويدرك ويريد ، بل إنه ليقوم بكلا النوعين من الوظائف مندمجة معا .

إذن فمجموعة الوظائف التى يبحث فيها علم وظائف الأعضاء وتلك التى يبحث فيها علم النفس كلها وظائف الكائن الحى ، وإنما تميزت الطائفة الأولى من هذه الوظائف بإمكان تتبعها تتبعا ماديا ، فنحن نستطيع أن نحلل الطعام الذى نتناوله فى المعمل ، ونستطيع أن نتتبع العمليات التى يمر بها من تمزيق وطحن وما يصب عليه من سوائل هاضمة ، وما يحدث له فى الفم والمعدة والأمعاء إلى آخر ذلك . فالأجهزة التى تقوم بوظائف الهضم والتنفس والإخراج أجهزة معروفة لنا نستطيع أن نصل إليها بالتشريح وبالتجارب والمشاهدة الفعلية .

---

(١) Medium كما هو مفهوم فى علم الطبيعة

أما الطائفة الثانية من الوظائف من تفكير وإدراك وشعور فليست من النوع نفسه ، فهى لا تخضع لمبضع الجراح ، وتستعصى على عدسة الميكروسكوب ، ولا نستطيع أن نتتبعها فى المعمل بالمشاهدة الفعلية .

ولذلك كان لعلم النفس طرائقه الخاصة المستمدة من طبيعة الوظائف التى يبحث فيها .

ولاشك فى أن البحث فى أى من العلمين ، علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، يجرّ بالضرورة إلى البحث فى الآخر . فاذا تتبعنا أية وظيفة من الوظائف الفسيولوجية ، فاننا سنجد فى النهاية أن أداءها مرتبط بتلك المجموعة من الأنسجة الرخوة المحمية داخل التجاويف العظمية الصلبة للجمجمة والعمود الفقرى ، وما يتبعها ، وهى التى نسميها إجمالا بالجهاز العصبى .

وإذا بحثنا فى الوظائف النفسية فان البحث يقودنا فى النهاية إلى المصدر نفسه غير أن وظيفة المخ باعتباره عاملا فعالا فى الوظائف الفسيولوجية للجسم وظيفة أغلبها معروف ، ولكن وظيفته باعتباره مركزا للعمليات العقلية أو النفسية أغلبها مجهول وأقلها معروف . فى هذه الساحة إذن تلتقى الوظائف النفسية والوظائف الفسيولوجية ومن هذا التلاقى تنشأ العلاقة الوثيقة بين النوعين من الوظائف ، بل الوحدة التى تتجلى فى الكائن الحى .

والعلاقة بين الجسم والنفس مما شغل الباحثين أجيالا طويلة وما زال ولن يزال يشغلهم ، وكل يحاول أن يحل معضلاته بطريقته الخاصة . فهو يشغل الفلاسفة ، يحاولون أن يصلوا إلى الحل بتأملاتهم ، ويشغل علماء النفس وعلماء البيولوجيا والطب يحاولون أن يصلوا إليه بالتجارب والمشاهدات .

إذا كنا قد استطعنا أن ندرك الآن ما الذى نقصده بعلم النفس بوجه الإجمال ، فلننتقل إلى النقطة الثانية لنلخص فيها كيف نظر العلماء إلى النفس فى مختلف العصور ، فنجد أن هناك طريقين متوازيين للبحث بدأ أحدهما فلسفيا والآخر طبيا وانتهى بهما الأمر إلى أن تقاربا ثم اندمجا إلى درجة كبيرة .

أما الأول فقد بدأ منذ عهد الفلاسفة الإغريق فقد اهتموا بالعلم ، وبما أن « العقل » هو أداة العلم فقد انصرف همهم إلى دراسة « العقل » ، وكانت دراستهم منصبة أكثر ما تكون على جانب مما نسميه الآن بالفكر أو المعرفة ، وقد استمر الاهتمام بهذه الناحية خلال العصور الماضية ، ولا يزال إلى الآن الشغل الشاغل لكثير من علماء النفس ، فالإدراك والفكر ، والتذكر والذكاء وما إليها لا تزال من أهم ما يشمله علم النفس .

وأما الطريق الآخر فنستطيع أن نرجعه أيضا إلى عهد جالينوس الاغريقي الذى أراد أن يفسر ما يبدو على أفراد الجنس الانسانى من فروق فى « المزاج »(١) فهناك الشخص النشط وهناك المندفع وهناك المتهور وهناك الكسول الخامل ، وهناك القوى ثم الضعيف الخائر ؛ وقد أرجع جالينوس هذه الفروق إلى تفاعل أمزجة أو « سوائل » أربعة موجودة فى الجسم وتغلب أحدها على الأخرى .

ونشأت عن ذلك الأمزجة الأربعة المشهورة ، الدموى والصفراوى والسوداوى والبلغمى أو « اللمفاوى » ، ولكل منها خصائص يمتاز بها ، فبينما نجد أن الدموى يتميز سلوكه بالنشاط والتقلب ، نجد أن سلوك البلغمى يتميز بالضعف والخمول ، والصفراوى بالعناد والطموح ، والسوداوى بالانقباض والوجوم والتشاؤم وحب الانفراد . ومن الغريب أن العلم الحديث يوافق على أن الشخصية تتأثر تأثرا واضحا بسوائل معينة موجودة فى الجسم ، ولكنها ليست سوائل جالينوس وأخلاطه ، بل هى إفرازات الغدد ذات الإفراز الداخلى(٢) كالدرقية وفوق الكلوية والنخامية وغيرها ، فهى تصب إفرازاتها فى الدم . ويكون لكثرة الإفراز وقلته أثر واضح فى الشخصية .

وقد تردد صدى كل من الاتجاهين فى أثناء النهضة الفكرية الإسلامية . وكان من أثر ذلك أننا نجد فى كتابات فلاسفة العرب لفظى النفس والعقل . ولم يكن

---

(١) Temperament (٢) Endocrine glands

اللفظان مترادفين وإنما كان كل منهما يشير إلى اتجاه خاص فى تناول الموضوع .

فالنفس كانت أكثر ما تذكر عند ما يقصد إلى إبراز ناحية الانفعال أو الرغبة أو الشهوة ، هذا إلى تضمين المعنى أحيانا لما نفهمه من الروح ، وأما العقل فيذكر عند ما يقصد الكاتب إلى المعرفة أو الذاكرة أو التفكير إلى غير ذلك من نواحى « الفكر » ، والواقع أن ألفاظ الروح والنفس والعقل قد أدت معانى مختلفة فى أوقات مختلفة .

ولكنها كثيراً ما تداخلت تداخلا كبيرا . فالروح كثيرا ما قصدبها الكاتبون ما يتعلق بالقيم الخلقية ، بينما النفس كثيرا ما خصصت للمعانى المتعلقة بالشهوة أو الناحية « الحيوانية » من الانسان . أما « العقل » فقصد به غالبا الناحية المفكرة المدبرة من الإنسان .

وعلم النفس الحديث لا ينظر إلى هذه النواحى كوحدات مستقلة منفصلة ، بل يجمع بينها جميعاً باعتبارها مظاهر لكل واحد نسميه أحيانا بالنفس وأحيانا بالعقل ، ولا نفرّق عادة بين التسميتين ، فهما الآن فى كتابات المحدثين باللغة العربية لفظان مترادفان لا مختلفان ، وسنجد أننا نستعمل اللفظين فى هذا الكتاب بمعنى واحد .

قلنا إنه كان هناك طريقان متوازيان للبحث فيما نسميه الآن علم النفس ، أما الطريق الفلسفى الذى كان ينصب فى أغلبه على البحث فى المعرفة فقد لقى من عناية الفلاسفة ماجعله يتقدم ويثمر ويصبح هو الغالب ، بينما ظل الطريق الآخر مدة طويلة واقفا عند الحد الذى أوصله إليه جالينوس .

وبقى الحال كذلك إلى أن أتى « كانت(١) » الفيلسوف المعروف فوصف العقل وصفاً ضم جوانبه بعضها إلى بعض ؛ فقد قسم جوانب العقل إلى العلم ، والوجدان ، والإرادة ، وهى الجوانب التى اشتهرت بعد ذلك باسم المعرفة ، والوجدان والنزوع ، وبذلك أدخل فى حساب الفلاسفة هذين الجانبين

---

(١) Immanuel Kant 1918 : Chritique of pure Reason.

الجديدين من جوانب النفس وهما الوجدان والنزوع ولم تعد المعرفة وحدها تشغل كل ميدان تفكيرهم . وتمهدت الطريق للاهتمام بالانفعال من جانب علماء النفس وبالرغم من ذلك فقد ظلت سيكولوجية المعرفة هى الغالبة بحكم التقليد ، وظل علم النفس يهتم أكثر ما يهتم بدراسة الناحية الفكرية للإنسان وظلت نظريات علم النفس ترجع أساس سلوك الانسان إلى المعرفة والتفكير . وخير مثال لذلك نجده فى سيكولوجية « هربارت » منشىء علم النفس الحديث ، فقد نسب كلا من الرغبة والإرادة إلى فاعلية « الأفكار » فالفكرة المتغلبة تتحول إلى رغبة ، فاذا سمحت الظروف تحولت الى إرادة . وعنده أن الألم ناشىء من التضارب بين الأفكار ، والسرور ناشىء من فضل القوى التى تدخل بها الأفكار إلى شعورنا . كما أن الخلق نتيجة لمجموعة الأفكار السائدة التى تصل الى نوع من التفوق الدائم فى الشعور ، فتسهل له أن يصطنع الأفكار المائلة إليها وتقاوم دخول الأفكار المضادة (١) .

وعلى ذلك يكون قدأرجع الحياة النفسية كلها إلى نوع أو أكثر من أنواع التفاعل بين الأفكار . فهى أساس الوجدان ، أساس اللذة والألم ، وأساس الخلق والشخصية .

وفى جميع هذه الأدوار التى مر بها علم النفس لا نكاد نجد ذكرا للغرائز أوالدوافع أوغيرها من المصطلحات التى دخلت بعد ذلك وأصبحت من المفهومات الأساسية فيه .

فالغريزة(٢) مثلا كانت فى نظر الباحثين وقفا على الحيوان ، توجهه الى أداء مايحتاجه فى حياته من الأعمال ، وتسيره فى الطريق الذى يحفظ حياته ويحفظ نوعه . أما الإنسان فقد وهب « العقل » الذى يهديه ويرشده . فكأنما هناك تناقض أساسى بين فكرة العقل وفكرة الغريزة ، فالأول منطقى مبصر ، والثانية

---

(١) انظر Flugel : Hundred Years of Psych. p. 20

(٢) Instinct

عمياء مندفعة ، الأول يكتسب ويهذب ، والثانية تورث ولا تكتسب .

فبرغم ما فعله « كانت » إذاً من مزج الفكر بالوجدان والنزوع واعتبارها جميعاً من مظاهر العقل ، بقيت هناك مشكلة أخرى تتطلب الحل . وهى إيضاح العلاقة التى تربط بين العقل فى الانسان وبين الغريزة فى الحيوان ، وقد ساعد على بروز هذه المشكلة أن ظهرت فى النصف الأخير من القرن الماضى نظرية « دارون »(١) التى اعتبرت الانسان حلقة فى سلسلة طويلة هى سلسلة الأحياء على اختلاف أنواعها ، وقد قضت هذه النظرية على ما كان يظن من انفصال عالمى الانسان والحيوان انفصالا تاما ، وأظهرت أن الانسان من الوجهة التشريحية والوظيفية ماهو إلا استمرار لمجموعة من التراكيب والوظائف التى بدأت فى أبسط الكائنات الحية ، وظلت تتطور من درجة إلى درجة ، وتزداد تركيبا وتعقيدا ، حتى وصلت إلى الصورة التى نعرفها فى الانسان . وبذلك أصبح الانسان من الناحية الجسمية قمة من قمم التطور الذى بدأ فى المراتب الدنيا من الحياة ، فهل يعقل أن يكون من الوجهة العقلية نسيج وحده فى الكائنات الحية ؟ لم يكن من اليسير أن تصمد هذه النظرة الانفصالية أمام سيل التطورية الجارف ، فما لبث علم النفس أن تأثر بالنظرة الجديدة ، وبذلك وجدت « الغريزة » مكانها الى جانب « العقل » فى المباحث النفسية المتعلقة بالانسان ، فبرزت بصفة خاصة فى كتابات لويد مورجان(٢) وجيمس(٣) ومكدوجل(٤) وغيرهم . ونرى الغريزة فى كتابات مكدوجل تبرز حتى تصبح هى الأساس الأول الذى يشتق منه سلوك الانسان على اختلاف أنواع هذا السلوك ومراتبه وهذه النظرة تمثل نقطة تحول فى علم النفس تستحق أن نقف عندها بعض الشىء .

فقد أصبح من الضرورى أن يبحث علم النفس عن الصلة « العقلية » بين

---

(١) Charles Darwin

(٢) Lloyd Morgan (٣) William James

(٤) Mc. Dougall

الانسان والحيوان ، حتى يظهر على الأساس التطورى المشترك بينهما . لأن نظرية التطور حتمت اعتبار الانسان مجرد حلقة جديدة فى السلسلة الحيوانية وقدساهم دارون نفسه فى وضع هذا الأساس المشترك بما ذكره فى كتابه عن « التعبيرات الانفعالية عند الحيوان والانسان (١) » ، وقد فصل فيه فعل العضلات المتقابلة عند كل منهما فى التعبيرات الانفعالية المختلفة .

وقدأدت هذه النظرية إلى البحث عن « غرائز » الانسان وعما هو « فطرى » فيه ، وقد بدأ علم النفس يتجه هذا الاتجاه ولم يكن من السهل أن يفطن علم النفس إلى هذه الحقيقة قبل ظهور نظرية التطور . وكان من نتائج هذا الاتجاه أن ظهر « علم النفس الحيوانى » كفرع من علم النفس له قيمته فى توجيه علم النفس « الانسانى » .

وقد بدأ علم النفس فى الوقت ذاته يتجه اتجاها اجتماعيا وبدأ علماء الاجتماع وغيرهم يبحثون عن تفسير نفسى للظواهر الاجتماعية والانسانية المختلفة . وكان مكدوجل فى مقدمة أولئك الذين حاولوا أن يوجهوا علم النفس توجيها اجتماعيا . فقد عنى بأن يبرز الناحية الاجتماعية فى الغرائز الانسانية ، وأن يتتبع النزعات الاجتماعية المختلفة حتى أصولها الفطرية .

وفى الوقت الذى كان فيه مكدوجل يمثل خلاصة الاتجاه الأكاديمى فى علم النفس فى أوائل القرن الحالى ، بدأ اتجاه مشابه له مشابهة كبيرة ولكنه يرجع فى أصله إلى البحث الطبى وهو اتجاه « فرويد (٢) » فى ڤينا .

ومن الغريب أن أوجه التشابه بين الاثنين كانت كبيرة بالرغم من التفاوت الهائل بين النظرية التى انتهى إليها أحدهما والنظرية التى انتهى إليها الآخر

وبما أننا سنتفرغ فى هذا الكتاب لشرح نظريات فرويد فقد آثرنا أن نضع أمام القارىء فى هذه المقدمة شرحا مختصراً لسيكولوجية مكدوجل . وأساس السلوك الانسانى عند مكدوجل كما قلنا هو الغريزة ، وللغريزة فى نظره معنى

---

(١) Darwin : Expression of the Emotions in Man and Animals, 1872

(٢) Sigmund Freup

خاص ، فهى استعداد متعدد النواحى إذ أن لها جوانب ثلاثة مشتقة من مظاهر النفس التى وصفها « كانت » ، وهى الإدراك والوجدان والنزوع ، فالفأر مثلا إذا فوجىء برؤية القط فإنه يدركه إدراكا خاصا وينتبه له ، ويشعر بانفعال الخوف الذى يدفعه إلى النزوع نحو الهرب التماسا للنجاة ، فكأن الموقف الغريزى شمل الأنواع الثلاثة الإدراك والوجدان والنزوع ، ويحدث مثل ذلك بالنسبة للإنسان عندما يمر بموقف تثار فيه إحدى غرائزه .

وقد قسم مكدوجل غرائز الانسان إلى نحو أربعة عشر غريزة (١) مختلفة نسب إليها سلوكه على اختلاف أنواعه . وجعل لكل غريزة مثيراً خاصاً ، ويعتبر إدراك هذا المثير بدءاً لإثارة الفعل الغريزى ، كما أن لكل منها انفعالا خاصا بها وسلوكا خاصا تدفع إليه .

ومن الأسس التى تقوم عليها سيكولوجية مكدوجل أن السلوك يجب النظر إليه دائما فى ضوء الدافع الذى يدفع إليه والغاية التى يرمى إليها . فكل سلوك ينتج عن دافع ويرمى إلى غاية .

والدافع نوع من « الطاقة » أو « النشاط » الداخلى يحفز الانسان إلى السلوك لبلوغ « غاية » معينة وبين « الدافع » و « الغاية » يتنوع السلوك تنوعا واسع المدى وهذا التوكيد لغائية السلوك جعل المذهب السيكولوجى الذى يمثله مكدوجل يعرف بمذهب « الغائية (٢) » .

للإنسان إذن غرائز فطرية مثله فى ذلك مثل الحيوان ، غير أن الغرائز فى الحيوان متشابهة ، جامدة ، موحدة الصورة وهذا هو الذى جعل ملاحظتها سهلة من مبدأ الأمر ، أما الانسان فإن المشاهد لسلوكه يجد تنوعا كبيرا فى السلوك واختلافا بين الأفراد ، فكيف يتفق ذلك مع وجود غرائز مشتركة بين

---

(١) التماس الطعام ، الجنسية ، التقزز ، الخوف ، الاستطلاع ، الوالدية ، السيطرة ، الخضوع ، الغضب ، التملك ، البناء ، الاضطجاع ، الهجرة ، وغرائز أخرى أقل أهمية

(٢) Hormic Psychology

الناس ؟ يعلل مكدوجل ذلك بأن الغرائز عند الإنسان قابلة للتعديل فى ضوء الخبرة التى يمر بها الفرد ، فغريزة الخوف مثلا يثيرها عند الطفل الصغير مثيرات معينة كصوت عال مفاجىء مثلا ، وانفعالها الخوف ، وهو معروف لدينا . والسلوك الذى ترمى إليه هو الهرب من مثير الخوف . ولكن الغريزة تتعدّل فى حياتنا فنحن مع الوقت نتخلص من كثير من المثيرات التى تخيف الطفل ، وفى الوقت نفسه نتعلم أن نخاف أشياء جديدة لا تخطر له على بال ، فنخاف العار أو الفضيحة أو السقوط الأدبى إلى غير ذلك ، ثم إننا لا نهرب إذ نخاف هذه الأشياء ، بل نتبع طرقا أخرى للتخلص مما يخيفنا ، ونحن نغضب فى الطفولة إذا حيل بيننا وبين غايتنا ، فالمثير الذى يثير الغريزة هو الحيلولة دون بلوغ الغاية ، والانفعال هو الغضب ، أما السلوك الناتج فهو الرغبة فى تدمير العقبة التى وقفت فى طريق الغريزة ، ولكننا إذ نتقدّم فى العمر نتخلص من كثير من مثيرات الغضب ونحل غيرها محلها ، فنغضب للكرامة ، ونغضب للاعتداء على الضعفاء ، ونغضب للوطن أو للدين أو لغير ذلك من « المعانى » التى لا تخطر للطفل على بال ، ثم اننا نتبع طرقا تختلف عن التدمير فنكتب ونرفع القضايا أمام المحاكم ، أو قد نؤلف قصيدة فى هجاء المغضوب عليه . ولكننا فى كلتا الحالتين نخاف ونغضب ، فإذا اعتبرنا المظاهر الثلاثة للغريزة ، فإن قابلية التعديل تنصب على اثنين منهما هما المظهر الإدراكى والمظهر السلوكى ولكنها لا تتناول المظهر الوجدانى وهو الانفعال .

وهذه القابلية للتعديل مهمة جدا لأنها هى التى تسمح برفع مستوى السلوك الإنسانى بأجمعه عن طريق الإضافة والإحلال والحذف ، وهى التى تسمح بهذا التنويع الكبير فى سلوك مختلف الأفراد ، ذلك التنويع الذى يكاد يغطى على الصورة الأصلية للغريزة ويوهم المشاهد السطحى أن الانسان يكتسب سلوكه بالتلقين والعادة لا بالفطرة والسليقة . وهذا التعديل الذى يدخل على الغرائز يتأثر بما يمر به الفرد فى حياته من خبرة أو تعليم يرفعان السلوك الغريزى من مستواه

الفطرى إلى مستوى أرقى . فكأن الغريزة بصورتها الفطرية نواة نستطيع عن طريقها أن نرقى بالفرد ونتيح له أن يسمو إلى مستوى أعلا ، والواقع أن الرقى الذى يبلغه المجتمع إنما يأتى عن طريق تعديل غرائز أفراده . وكل فرد يتأثر بالمجتمع بدوره فتتعدل غرائزه فى الاتجاهات التى يسمح بها المجتمع ولنأخذ مثالا غريزة الخوف فنجد فى الشكل الآتى ما يبين الاتجاهات المحتملة لتعديلها .

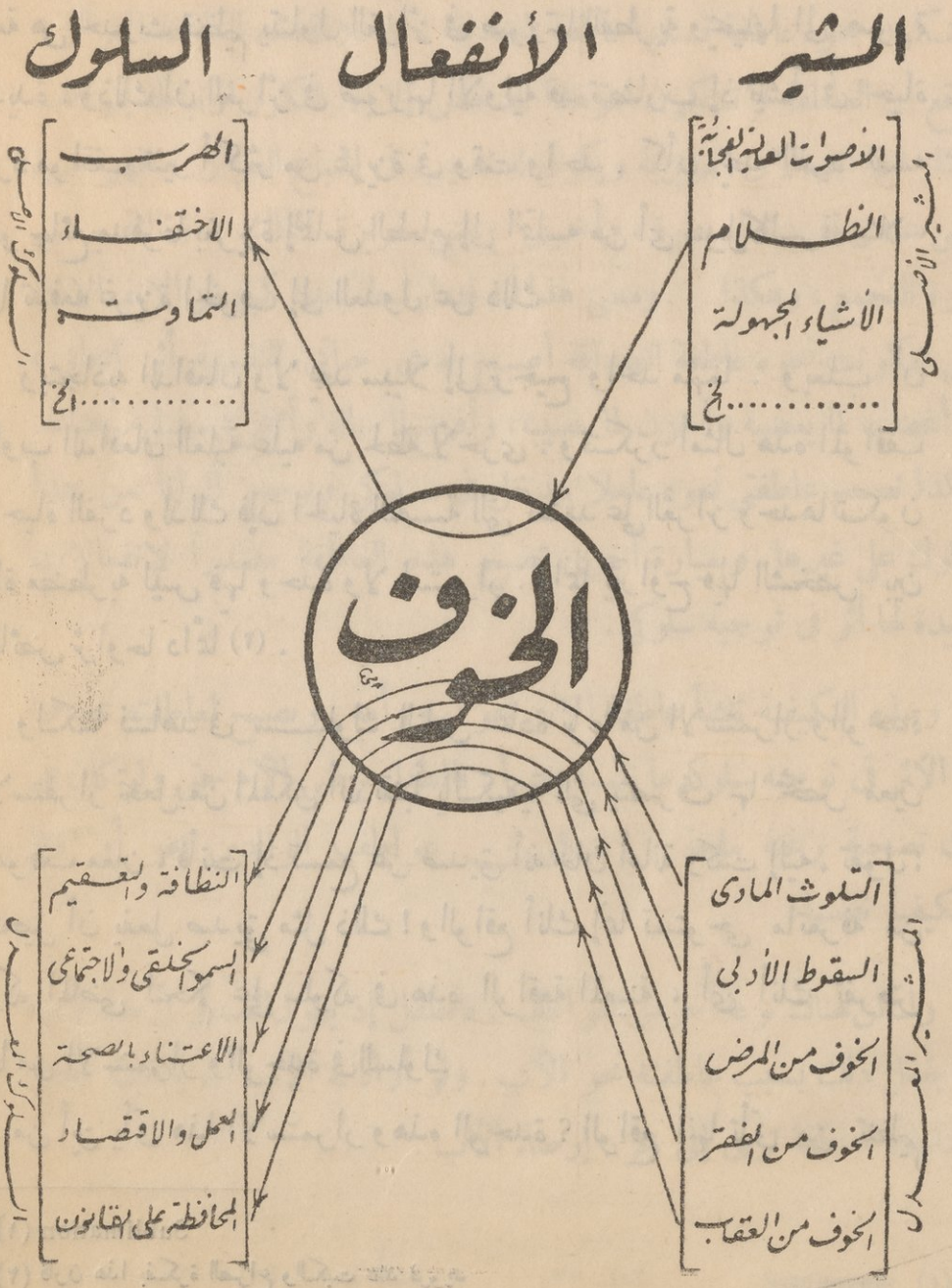

وهكذا بالنسبه لباقى الغرائز ، ومجرد التعديل لا يستلزم أن نسمو بالغريزة بل إن التعديل هو مجرد ربط الانفعال الغريزى بالمثيرات الجديدة أيا كانت ، وطرائق السلوك الجديدة أيا كانت ، وقد اختصت أنواع التعديل التى تسمو بالفرد خلقيا واجتماعيا باسم الإعلاء (١) .

لم تقف سيكولوجية مكدوجل عند هذا الحد بل إنها أكدت نقطة أخرى هامة هى حدوث تنظيم يتناول الغرائز فى صورتها الفطرية ويحيلها الى صورة جديدة . وذلك أن الغرائز فى صورتها الأولية قد تتضارب إذ تنشأ فى حياة الفرد مواقف تثير أكثر من غريزة فى وقت واحد ، كأن يجد الفرد نفسه وهو جائع مدفوعا بغريزة إلتماس الطعام إلى التماسه من أى سبيل كالسرقة مثلا ، بينما تدفعه غريزة الخوف إلى العدول عن ذلك

ويتجاذبه الدافعان ولا يجد سبيلا إلى ترجيح واحد منهما . ويغلب أن يتناوب الدافعان الغلبة عليه من لحظة لأخرى . وتتكرر أمثال هذه المواقف فى حياة الفرد ولذلك فإن الحياة النفسية التى تعتمد على الغرائز وحدها تكون حياة مضطربة ليس فيها وحدة ولا استمرار ، وانما يتراوح فيها الشخص بين النقائض تراوحا دائما (٢) .

ولكننا نشاهد فى سلوك الناس عادة نوعا من الاستمرار والوحدة والاستقرار تجعل من الممكن أن نتنبأ بالكيفية التى يتصرف بها شخص معين فى موقف معين ، فأنت إذ تسمع عن صديق أنه خان أمانة وكلت إليه ، تقول : يستحيل أن يفعل صديقى مثل ذلك ! والواقع أنك إنما تستوحى ماتعرفه من سلوكه الماضى لتحكم على سلوكه فى هذه الواقعة المعينة ، أى أنك تفرض نوعا من الاستمرار والوحدة فى السلوك

من أين يأتى هذا الاستمرار وهذه الوحدة ؟ الواقع أنها تأتى من تنظيم

---

(١) Sublimation

(٢) قارن هذا بفكرة الصراع والكبت عند فرويد

جديد يدخل على الغرائز ويؤدى الى نشوء دوافع جديدة للسلوك بالاشتقاق منها، أطلق عليها اصطلاحا اسم العواطف(١).

ولنأخذ مثالا عاطفة الصداقة مثلا، فهى تنشأ من مقابلتى لشخص معين عدة مرات متتالية، ثم من احتكاكى بهذا الشخص فى أثناء هذه المقابلات احتكاكا يشبع فىّ رغبات معينة. فلا يلبث أن يصبح موضعا لاهتمامى، ثم سرعان ما تتكون نحوه عاطفة نسميها عاطفة الصداقة، فما علاقة هذه العاطفة بالغرائز؟ الواقع أن العاطفة لا تتكون نحو هذا الشخص إلا إذا تكرر ارتباطه بمواقف تستثار فيها انفعالاتى الغريزية ويكون له نصيب فى إشباع الغرائز. فهو مرة يرضى عندى غريزة السيطرة، وأخرى يرضى غريزة التملك، وثالثة يرضى غريزة التجمع، وهكذا... ومعنى هذا أنه قد ارتبط بعدد كبير من الانفعالات ومتى تكونت نحوه عاطفة الصداقة أصبح له فى حياتى النفسية أثر إيجابى، فانا أغضب لما يغضبه وأحزن لما يصيبه، وأفرح لما يناله وأضحى فى سبيل مرضاته. وهكذا تصبح عاطفتى نحوه عاملا يتدخل فى سلوكى ويرجح ألوانا من هذا السلوك على غيرها. وبعبارة أخرى تصبح هذه العاطفة مصدراً لانفعالات جديدة لها أثر فى توجيه سلوكى.

وبهذه الكيفية تنشأ عاطفة الابن نحو أبيه وأمه، ويصبح لعاطفته نحوهما من الأثر فى توجيه سلوكه ما نلمسه جميعاً. فالطفل يرضى الأم حتى ولو كان فى ذلك تضحية برغبة ملحة. وتتكون عواطف الوالدين نحو أولادهم بالكيفية نفسها.

ولكن هناك نوعا آخر من العواطف، فالطفل إذ يقول الصدق إرضاء لأبيه إنما يفعل ذلك بسبب عاطفته نحو الأب. ولو أراد له الأب أن يكذب لفعل ما دامت العاطفة ترمى إلى مجرد إرضاء الأب.

---

(١) Sentiments

ولكن قد يأتى اليوم الذى يقول فيه الصدق حتى ولو كان ذلك ضد أبيه أو ضد نفسه . وذلك لأنه قد تكونت عنده عاطفة جديدة نحو الصدق نفسه ، كما تكونت عاطفته نحو أبيه فيما مضى . ومن أهم التطورات فى حياة الفرد الخلقية تكين هذا النوع من العواطف نحو الصفات والأفكار والمعنويات ، ويغلب أن يأتى ذلك عن طريق تأثير الأبوين والمجتمع المحيط بالطفل فى توجيهه ، سواء التأثير المباشر بالإملاء والنصح ، أو غير المباشر بالقدوة والمثال .

وهنا نرى بادرة « الخلق » عند الشخص . لأن التنظيم ارتفع عن المستوى الغريزى إلى المستوى العاطفى الحسى ، ثم إلى المستوى العاطفى المعنوى .

ولا يلبث أن يدخل على العواطف نفسها تنظيم يشبه التنظيم الذى دخل على الغرائز .

فعواطف الشخص نحو الصدق والفضل والسمو والقوة والبأس والوطنية الخ .. لا يكون لها الأثر الموجّه فى حياته إذا لم تنظم تحت قيادة واحدة ، وهذه القيادة تأتى من « عاطفة اعتبار الذات (١) » كما يسميها مكدوجل ، وهى عنده العاطفة العليا فى حياة الإنسان . ويمكن وصفها بأنها نتيجة تنظيم جديد للعواطف حول الذات (٢) باعتبارها مالكة للصفات المحبوبة من الشخص . فأنا قد أعجب بملبس سيدة متأنقة وقد أكوّن نحو هذه السيدة عاطفة ، غير أنى لا أنظر اليها كما لو كنت أتمنى أن أتصف بصفاتها ، ولكننى إذ أعجب برجل قوى أو فاضل ، كثيرا ما يتضمن إعجابى رغبة فى الاتصاف بصفاته .

وهذا هو موقف الطفل من تكوين عواطفه فهو عندما يكوّن عواطفه نحو شخص ما ، يبدأ فى الوقت نفسه بأن يكون عواطف نحو صفات هذا الشخص ، ولا يلبث أن ينتقى من صفات مخالطيه ومعارفه وأبطال قراءته

---

(١) Self Regarding Sentiment (٢) Self

وغيرهم مجموعة من الصفات يكوّن من مجموعها نوعا من المثل الأعلى الذى يحب لذاته أن تتصف به ، وهذا هو طريق نشوء عاطفة اعتبار الذات .

ومتى نشأت هذه العاطفة أصبح الشخص يحكم على سلوكه بقدر ما يضيف هذا السلوك إلى أعتباره لذاته أو ينقص منه . فما يضيف فهو سلوك مرغوب فيه ، وما يُنقص فهو سلوك مرغوب عنه . ويصبح هذا هو المقياس الذى يقيس به تصرفاته ، فهو لايجرى وراء مجرد إرضاء غرائزه ، أو عواطفه نحو الأشخاص ، أو حتى نحو الصفات ، بل إن الحكم الأخير فى أى تصرف من تصرفاته هو ما يضيف أو ينقص هذا التصرف من اعتباره لذاته ، فيقرّب بها أو يُبعدها عن مثلها الأعلى . انظر إلى تصرف الجندى الذى يقبض الأعداء عليه وعلى أولاده ويعذبونه ويعذبون أولاده لكى يبوح بأسرار وطنه . إنه يقاوم نزعته للابقاء على نفسه ويقاوم عاطفته نحو أولاده ، يقاوم كل ذلك لأن اعتباره لذاته لا يسمح له أن يرتكب ما يُطلب إليه ولو فعل لعاش معذبا لأن « الضمير » وهو مرتبط بهذه العاطفة يبكته إذ لم يرتفع بالفعل إلى مستوى الفكرة .

وكانت سيكولوجية مكدوجل أول محاولة جدية لتفسير السلوك الانسانى على اختلاف أنواعه على أساس واحد . فسيكولوجية الفرد وسيكولوجية الجماعة وسيكولوجية الشواذ « العصابيين والمجانين(١) » كانت تسير كل منها قبل ذلك فى اتجاه مستقل . وقد حاول مكدوجل أن يجعل نظريته ذات أساس واحد يمكن تطبيقه على جميع هذه الحالات . وقد نجح إلى حد كبير فى تفسير نفسية الجماعات على نفس الأسس التى وضعها لنفسية الأفراد(٢) ولكنه لم يبلغ نفس النجاح إذ حاول أن يفسر نفسية الشواذ فى كتابه « علم نفس الشواذ » لم يستخدم من الأسس التى أوردها فى نظرياته الأساسية إلا عدداً محدوداً ،

---

(١) Abnormals : Nesurotics & Psychotics واستخدام عصابيين هنا مقتبسة من الدكتور يوسف مراد (شفاء النفس) ١٩٤٥ وقد أخذنا عنه بعض المصطلحات الأخرى .

(٢) راجع كتابه The Group Mind

وحتى هـذه لم يستطع استخدامها بحيث تفى بتفسير أنواع السلوك الشاذ التى تعرض لها وفاء تاما(١) وعلى ذلك بقى عندنا بالرغم من محاولات مكدوجل ، تياران مستقلان فى علم النفس وإن كانت الصلة بينهما قد أصبحت أوثق كثيرا من ذى قبل .

هذه خلاصة وافية لسيكولوجية مكدوجل ، وقد أوردناها بهـذا التطويل لسببين :

الأول : أنها تحمل فى ثناياها كثيراً من الأسس التى ظهرت فى سيكولوجية فرويد(٢) .

والثانى : إنها تمثل نفس الاتجاه لإبراز أهمية الغريزة والانفعال ، وإن كان مفهوم هذين اللفظين والعلاقة بينهما تختلف اختلافا كبيراً بين المدرستين .

غير أن الفرق بين المدرستين يظهر فى نقط أساسية جداً ، ولعل أهم هذه النقط — وقد سلم بها مكدوجل فى بعض كتاباته الأخيرة تسليما مطلقا — كشف المنطقة المجهولة من العقل المسماه باللاشعور .

فتكوين العواطف والخُلق عند مكدوجل إنما هو نتيجة الاتصال الشخصى بالبيئة فى مستوى شعورى بل لعل مكدوجل جعله منطقياً أيضاً .

وما يحدث من التنافس والصراع بين الرغبات المتناقضة شعورى أيضاً ، وعاطفة اعتبار الذات وهى جماع الخُلق عند مكدوجل تكاد تكون خلاصة منطقية لما يمر فيه الشخص من تجارب ، ثم إن أثرها فى حياة الشخص أثر منطق ، فإذا تصورنا شخصاً مر فى الأدوار التى رتبها مكدوجل فنُظمت غرائزه إلى عواطف ، ونُظمت عواطفه وتكونت عاطفة اعتباره لذاته ، فإنه يصعب

---

(١) راجع كتابه An Outline of Abnormal Psych.

(٢) يعتبر مكدوجل وفرويد معاصرين من الوجهة التاريخية ، بل إن فرويد سابق لمكدوجل إذ ظهرت أول كتاباته سنة ١٨٩٥ وظل ينشر نظرياته تباعا حتى قبيل وفاته فى سنة ١٩٤٠ أما مكدوجل فقد ظهر كتابه الأول سنة ١٩٠٨ يحوى نظريته كاملة تقريبا .

علينا أن نتصور كيف يرتكب هذا الشخص خطأ ، وكيف يمكن أن يحيد عن الطريق الذى توحى به هذه العاطفة المسيطرة . حقيقة أن مكدوجل قد احتفظ للغرائز بقوتها الدافعة وبالقدرة على التنافس مع القيم العليا . ولكن لم يؤكد هذه النقطة تأكيداً كافياً ، وذلك طبيعى لأن تنافس غريزة مفردة مع عاطفة كعاطفة اعتبار الذات تنافس بين متفاوتين تفاوتاً كبيراً ، فإذا أتينا إلى مدرسة التحليل النفسى نجد أنها قد نجحت فى معالجة أمثال هذه النقطة بالذات، إذ جعلت التصارع بين « نزعة » لا شعورية وبين « ذات (١) » شعورية فأعطى للنزعة سلاح التخفى تحارب به فى سبيل غاياتها بغير أن تكشف عن نفسها .

وعند مكدوجل أن التنافس بين غريزتين ينتهى إلى اندماج الانفعالين المشتقين منهما فى انفعال واحد ، وبذلك يصل كلٌّ من الدافعين الغريزيين إلى درجة معينة من الإشباع ، فتنتهى قصة «الصراع» إلى نوع من الاتفاق ، أما عند فرويد فان النزعات إذ تتضارب أو تتصارع إنما تتغلب إحداها تغلباً مطلقاً بينما تنهزم الأخرى هزيمة مطلقة ، والنزعة المهزومة هى التى تنحدر إلى « اللاشعور (٢) » حيث تبقى تحت ضغط مستمر ، ولكنها فى محاولة دائمة لتصل إلى الإشباع الذى حُرمته . فالصراع عنده ذو أثر دائم والمعركة لا تنتهى ، وقصة كل صراع نفسى فى حياة الإنسان قصة لها ما بعدها .

ويمكن أن ننظر الى سيكولوجية مكدوجل باعتبار أنها سيكولوجية الجانب الشعورى من النفس ، وهى فى هذا تتفق فى أكثر من نقطة مع سيكولوجية « الذات » (٣) عند فرويد . وكان من الطبيعى أن تتركز سيكولوجية فرويد فى مبدأ الأمر على القوى اللاشعورية ولذلك كانت كتاباته عن «الذات»

---

(١) النزعة Impulse يمكن اعتبارها مقابلة للغريزة ، والذات Ego نتيجة تنظيم النزعات فهى من بعض لوجوه تقابل العاطفة

(٢) Unconscious راجع الباب الرابع

(٣) Ego أو كما تسمى « الأنا » وهى تشمل الجزء الشعورى من النفس ، أو النفس بالمعنى القديم

متأخرة نوعا (١) وفى معالجة فرويد للذات كان اهتمامه موجها لها باعتبار علاقاتها بالقوى الأخرى المتصلة بها . ولعل التحليل النفسى لوعى «بالذات» لنفسها وحاول أن يصف فكرة «الذات» عن نفسها ، ووصفها لما يحدث فى النفس ، والصدى الشعورى للتطورات المختلفة التى تحدث فيها لأخرج لنا فكرة لاتختلف عن فكرة مكدوجل كثيراً .

يمكن إذن أن نعتبر أن فرويد نظر إلى العقل من زاوية اللاشعور واتصل بالذات الشعورية بالقدر الذى يهمه من هذه الزاوية . أما مكدوجل فنظر إلى العقل من ناحية الذات الشعورية فلم يكن له اتصال يذكر باللاشعور ولو أن المتمعن فى كتاباته يجد أنه كثيراً ما كان يقترب من فكرة اللاشعور اقترابا كبيراً ثم لا يلبث أن يبتعد عنها مرة أخرى ، ولعل خير مثال على ذلك أن مكدوجل فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » وصف مثالا للصراع بين نزعتين « ص ١٥٣ » ولكنه سرعان ماتخلص من النتيجة التى كان يمكن أن تترتب على الإفاضة فى بحثه بأن ذكر أن النزعتين فى النهاية « تندمجان اندماجا ناقصا وتكونان شيئاً لانجد له اسما نسميه به » « ص ١٥٤ » ، وقد اعتبر مكدوجل الانفعال فى هذه الحال انفعالا مركباً (٢) وبما أن الانفعال المركب ناتج من تنافس غريزتين فمن الواضح أن أياً منهما لم يصل إلى التعبير الكامل بل إن هذا الاندماج أو «المزج» يقتضى أن ينال كلا من الغريزتين قدر من التعطيل . وربما كانت النتيجة التى وصل إليها مكدوجل هنا ضرورية فى ضوء نظرية الانفعالات التى نادى بها وهى التى تجعل لكل غريزة انفعالا قائما بذاته خاصا بها ، بينما جعل فرويد الانفعال رصيداً عاما عند الإنسان ، يظهر فى مختلف المواقف بصور مختلفة وقد اعتبر مكدوجل أن الانفعال هو مظهر أساسى من مظاهر الغريزة فهو موجود دائما فى المواقف الخاصة بها سواء وجدت تسهيلا أم « تعطيلا »(٣)

---

(١) نشر كتاب The Ego & The Id فى سنة ١٩٢٣

راجع : Psycho-Analysis Today p. 143

(٢) Complex Emotion (٣) Inhibition

فالانفعال عند مكدوجل خاص ولا مناص من حدوثه ، ولكن فرويد ينظر إلى الانفعال على انه عام ، وهو ناشىء عن التعطيل وفوق ذلك فهو لا يرتبط بالموقف الراهن فقط وإنما يشتق من مواقف سابقة فى حياة الفرد ، وليس عند مكدوجل شبيه بهذا إلا فى غريزة المقاتلة حيث يعتبر انفعال الغضب ناشئا عن المقاومة التى تجدها أى غريزة أخرى تهيأت أسباب إثارتها (١).

ولمكدوجل حظوة كبيرة عند المربين لأنه أعطى لهم نظاما لبناء الخلق على أساس الغرائز والعواطف. وهذا النظام مفيد إذا نظرنا إليه باعتباره جزءاً من تدريب الذات تدريباً يجد فى كثير من الأحيان صدى فى باقى جوانب النفس. وإن كنا لا نكتفى بذلك الآن إذ أن من الخطر إغفال القوى اللاشعورية فى بناء الخُلق.

والواقع ان العلاقة بين المذهبين لا تزال فى حاجة إلى دراسة أكثر تفصيلا وإن مكدوجل ليشير إلى ذلك فى كتابه «علم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى»

والواقع أن الكشف الذى بهر به فرويد أنظار العالم والذى لم تتردد الأغلبية العظمى من علماء النفس فى أن تعترف به، هو اللاشعور، وهذا الكشف وحده يجعل من فرويد كما قال مكدوجل «الرجل الذى أضاف إلى معرفتنا بالطبيعة البشرية أكثر مما فعله أى إنسان آخر منذ أرسطو (٢)». وربما كان من الضرورى لإكمال المقارنة أن نذكر اهتمام فرويد بالنزعة الجنسية ، والجنسية عند فرويد هى فى الواقع من التفاصيل الفنية وهى بهذه الصفة لم تكن تستحق كل ما أثير حولها من الغبار ، خصوصا من علماء النفس ، الذى نعت بعضهم نظرية فرويد بنظرية تمجيد الجنسية ، والأمر بعيد عن ذلك كل البعد ، لأن الجنسية عند فرويد كما سنرى ماهى إلا مبدأ لتفسير السلوك الإنسانى على أساس واحد . ثم إن نظرية اللاشعور لا يكون لها داع قوى إذا لم تكن الدوافع التى تكبت من النوع الذى يمجه الشعور ويتجاهله ، وعلى ذلك

(١) Mac Curdy: The Psychology of Emotions, 1925 chs. VIII & IX

(٢) Me Dgl . Psycho-Analysis & Social Psych. 1936

فلا يمكن الأخذ بواحدة منهما — اللاشعور والجنسية — دون الآخر .

وقد نجح فرويد فيما لم ينجح فيه مكدوجل ، فقد استطاع أن يصل إلى تفسير شامل للسلوك الإنسانى على اختلاف أنواعه بواسطة عدد محدود من الأسس . وقد اعترف بذلك مكدوجل نفسه (١) .

وقد كانت نقطة البدء عند فرويد هى العلاج الطبى ، ولكن النظرية ما لبثت ان غمرت الميادين الأخرى على اختلافها ، فدخلت ميدان علم النفس العام ثم علم نفس الأطفال ، والبدائيين ، وما لبثت أن اجتذبت أنظار علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا ، بل والساسة ورجال الحرب ، فبدءوا يعلّقون عليها آمالا كبارا ، ويقارنون ملاحظاتهم فى حقول تجاربهم المختلفة بنتائج النظرية ، ويهتمون بما يجدون مما يؤيدها أو يعارضها .

وفى فصول الكتاب التالية ستجد شرحاً وافياً لنظريات فرويد .

---

(١) ص ١٥ من : Mc . D. : Psychoanalysis & Social Psychology

الباب الثانى

منهج البحث فى التحليل النفسى

إن مناهج البحث فى التحليل النفسى تعتبر وسطا بين الطريقة التأملية القديمة وبين الطريقة التجريبية الحديثة .

ففى الطريقة القديمة كان البحث فى علم النفس ينبنى على التأمل الباطنى(١) وحده ، فكان الباحث يلاحظ ما يدور بنفسه من الحالات النفسية ويحاول أن يحللها وأن يربطها بأسبابها ونتائجها ، ويستخرج منها ما يعتبره أساساً للتفسير والتعليل ، وكانت النتيجة أن تعرَّض علم النفس لأن تكون حقائقه مبنية على الفحص « الشخصى(٢) » مع ما يلازم ذلك من اختلاف النتائج باختلاف الباحثين ، وظل يسير على هذا المنهج حتى بدأ التجريب يأخذ طريقة إلى علم النفس رويداً رويداً حتى ثبتت قدمه عند ما أسس « فنت (٣) » معمله الشهير فى ليبزج بألمانيا فى أواخر القرن الماضى وحج اليه العشرات ممن اشتهروا بعد ذلك وأسسوا معامل مماثلة فى أمريكا وأوربا .

وقد وجد علم النفس فى هذه الأداة الجديدة وهى التجريب ما يزيد حقائقه دقة ويرفع من شأنه بين العلوم الأخرى ؛ ولذلك فقد زادت أهمية التجريب فى علم النفس وتنوعت وسائله وأصبح يعتمد على القياس والإحصاء .

أما التحليل النفسى فقد نهج لنفسه منهجاً وسطا ، لا هو بالتأمل ولا هو بالتجريب .

والوسيلة الأولى التى اتبعها أصحاب التحليل فى بحثهم هى استقصاء الحوادث الماضية عند المريض فى أثناء التنويم المغناطيسى ، ولكنهم سرعان ما هجروا التنويم — وحسنا فعلوا — لما هو مصطبغ به فى أذهان الناس من صبغة هى

---

(١) Introspection

(٢) Subjective

(٣) W. Wundt

أقرب إلى أعمال السحرة والمشعوذين ، ولما يحيط به من غموض ورهبة ، ولجأوا إلى التحليل النفسى . والتحليل النفسى فى واقع الأمر نوع من التأمل الصريح العميق يدور حول أخص ما يمس حياة الشخص من الشئون . وهو يحتاج إلى أن يرسل الشخص نفسه إرسالا مطلقا — وهذا الإرسال المطلق يحتاج إلى الكثير من الوقت والتدريب — فيذكر لطبيبه كل مايجول بخاطره ، وتستمر عملية « الإفضاء » هذه مدة طويلة .

ووظيفة المحلل النفسى أن يضع أصبعه على تلك العناصر من تجارب المريض التى يتوقع أنها تكوّن أسس اضطرابه النفسى . وكلما تبين عنصرا منها طلب إلى المريض أن يزيد فى كلامه عن هذا العنصر بالذات ، وسرعان ماينكشف له ما لم يكن ينتظر ، وهكذا حتى يصل فى النهاية إلى أن يكشف العناصر الفعالة فى حالة المريض .

فاذا كشف هذه للمريض بدوره وعرّفه الجانب الخفى من قصة حياته ، وألقى النور عليه ، تحسنت حال المريض واستطاع أن يواجه الحياة بنفس أكثر هدوءاً واطمئنانا .

هذه هى قصة كل تحليل نفسى ، وهى نفسها قصة التحليل النفسى « كعلم » . فمجال البحث هو مجال العلاج النفسى ، وما يكشف من الحقائق إنما يكشف أثناء استخدامه للعلاج ، وليس على المحلل رقيب ، وليس هناك ضمان مباشر لصحة استنتاجاته غير النتائج التى يحصل عليها .

وقد كان لعبقرية فرويد الفذة ، وإكبابه على العمل ، ووفرة إنتاجه ونفاذ بصره ، الفضل كل الفضل فى أن جعل هذا العلم يقف على قدميه ، ذلك أن فرويد جعل من النتائج الاكلينيكية التى وصل اليها قواعد لتفسير السلوك الإنسانى عامة ، ولو اقتصر على اعتبارها « وسائل علاجية » أو « فروضا عملية (١) » لظل حياته يعالج المرضى ، أو على الأكثر لأصبحت مدرسته مدرسة

(١) Working Hypothesis

علاجية لا أكثر، والواقع أنه لو اقتصر على ذلك لما وجد المعارضة والنقد اللذين وجدهما إذ خرج بنظريته إلى المحيط الواسع لعلم النفس بدل أن يقصرها على المحيط الضيق للعلاج .

وقد أخرج فرويد نظرية التحليل النفسى كما أخرج دارون نظرية التطور نتيجة لملاحظات عديدة شاملة ، بحيث صعب على معارضيه تفنيدها بالجملة ، لأن الشواهد والأدلة بالغة من الكثرة مبلغا يجعل هذه المحاولة فوق الطاقة .

وقد وجد فرويد كما وجد دارون الكثير مما يؤيد نظريته فى ميادين جديدة لم تكن ضمن الدائرة التى عمل فيها أول مرة .

وقد لا يرتاح الناس إلى نظرية فرويد كما لم يرتاحوا إلى نظرية دارون ، ولعل الإنسان لا يمكن أن يرضى عمن يطلعه على حقيقة أصله البعيد أو القريب وخصوصاً إذا كان هذا الأصل مما لا يفاخر به . ولكنهم يجدون فى كلا النظريتين حيوية فائقة ، وقدرة على الاتساع والامتداد ، وعلى تناول الكثير من الظواهر المستحدثة ، وتفسيرها على نفس الأساس العام ، فكما أن دارون وجد من علم الحفريات ، وعلم التشريح ، وعلم الأجنة ، ومن النبات والحيوان ما يؤيد النظرة التطورية ، فقد وجد فرويد فى الأحلام ، وفلتات اللسان ، وفى سلوك الأطفال ، والمتوحشين ، وفى سيكولوجية الفن والجمال ، وفى سيكولوجية الجماعات وغيرها ما استطاع تفسيره بدون أن يدخل تعديلا على نظريته الأساسية مما زاد هذه النظرية تأييداً وثبوتا .

فنظرية فرويد إذن مثل نظرية دارون ، التى قيل عنها مراراً إنها مما لا يمكن إثباته أو نفيه بنفس البساطة التى تثبت أو تنفى بها تقريراً علمياً محدوداً ، وما ذلك إلا لأن كلا منهما تشمل تفسيراً واسع المدى لمجموعة شاسعة من المظاهر المستمدة من ميادين متعددة ، ولكن الحقائق والمشاهدات تشير اليها إشارة لا نستطيع تجاهلها .

وكما أن نظرية دارون قد جمعت شتات علوم الحياة تحت مبدأ واحد

فكذلك نظرية فرويد قد جمعت شتات المباحث المتعلقة بالنفس البشرية تحت نظرية واحدة .

وكلاهما فى الواقع من الوجهة العلمية من نوع الفروض (١) ولكن كلا منهما فرض شامل ، فاللاشعور والجنسية والحيل اللاشعورية ومناطق العقل . . الخ كل هذه فروض للتفسير وقيمتها فى أنها تزودنا بأساس متماسك مستقر لتفسير الحياة النفسية .

ولكن ذلك ليس معناه أن النظرية لا يوجه اليها النقد ، بل بالعكس فقد نقدت هذه النظرية كثيراً ويمكن أن يلخص النقد الموجه اليها فيما يلى :

(١) إن علماء التحليل النفسى يكوّنون فيما بينهم شبه « فرقة » أو « طريقة » يأخذ فيها واحد عن واحد ، ولا يعترفون لأحد خارج محيطهم بأنه قادر على أن يضيف أو ينقص من نظريتهم ، فهم وحدهم القادرون على ذلك ، والمبدأ الذى يبنون عليه ذلك هو أن الشخص الذى لم يُحلَّل تحليلا نفسياً يكون عرضة للخطأ فيما يتعلق بمباحث التحليل النفسى ، لأن ما تخفيه نفسه من « العقد » قد يوجه ملاحظاته واستنتاجه وجهة بعيدة عن الصواب . وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن علماء التحليل النفسى لا يخطئون ، لأن الخطأ فى مذهبهم ليس مجرد هفوة تأتى نتيجة الصدفة ، بل هو أمر « تعمدى » من جانب اللاشعور .

وذلك هو السبب فى أن النقد بينهم قليل ، والتعديل فى آرائهم يسير ، ومعنى ذلك أيضاً أن طريقة البحث غير ميسورة إلا لنفر قليل اتخذوا هذه الصبغة « الطائفية » فحللوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم .

(٢) وعلاوة على ذلك فإن بحوثهم تجرى فى عياداتهم بين جدران أربعة ، ومآل الصواب والخطأ فيها إلى ما يصوره المعالج ، وعلى ذلك فمن العسير « مراقبة » البحث أو « تقنينه » .

(٣) ثم إن الحقائق التى تُكتشف عن طريق بحث حالات الشواذ من

---

(١) Hypothesis

المصابين بالاضطراب العصبى أو العقلى لا يصح فى نظر الكثيرين تعميمها على العاديين من الناس ، فربما كان هناك فرق أساسى بين الشخص العادى والشاذ .

(٤) وهناك نقد آخر يعتبر أخطر من هذه جميعاً ، وهو أن المسألة يدخل فيها الكثير من الإيحاء ، فهناك إيحاء من المعلم الأول (فرويد) إلى تلاميذه ، ومن تلميذ إلى تلميذ ، وقد ثبّت هذا الإيحاء المتسلسل ، اشتراط التحليل الذى سبق ذكره فى المشتغلين بالتحليل ، ثم إن هناك إيحاء من المعالج لمرضاه وهذا الإيحاء ذو شطرين : الأول منهما عام ، لأن من يذهب للعلاج عند محلل نفسانى يعلم من مبدأ الأمر طرفا من نظريته ، وبذلك فهو يتأثر فى اتجاه هذه النظرية ، فاذا أتى للمحلل بدأ الإيحاء الخاص يعمل طرداً وعكساً بينهما ، وبذلك قد تكون النتائج مجرد سراب خادع لا حقيقة له .

وعلاوة على ذلك فان معظم أصحاب التحليل النفسى لم تسبق له دراسة علم النفس العام ، وعلى ذلك فان تفاهمهم مع سائر علماء النفس كان متعذرا ، خصوصا وقد اتخذ معظمهم موقفا من التعالى والكبرياء فسره الكثيرون على أنه مداراة لضعف الحجة وعدم الوثوق من النفس .

وقد يجد المدافع عن التحليل النفسى ما يقوله رداً على معظم هذه الاعتراضات ولكن الردود الجدلية ليست بذات قيمة كبيرة فى هذه الحالة .

وواقع الأمر هو أن التحليل النفسى قد وضع فى أيدينا نظرية كاملة للنفس الإنسانية فى مختلف حالاتها . وأن الباحث قد أصبح — وفى يده سلاح هذه النظرية — يستطيع أن يفسر بواسطتها جميع أنواع السلوك ، من أساطير الأقدمين ، إلى حياة عظماء التاريخ ، إلى ملاهى الأطفال وقصص الأدباء ، وحياة البدائيين ، ثم هو يجمع بين العادى من الناس وذلك الذى يعانى اضطرابا نفسيا بسيطا ، وبين المصاب بالمرض العقلى ، فى نظرية واحدة .

أما ما يُنسب إلى علماء التحليل النفسى من أنهم يكوّنون « فرقة » فهو صحيح إلى درجة ما ، ولو أن حدة هذه الظاهرة بدأت تقل منذ أخذ طلاب

الجامعات يدرسون التحليل النفسى إلى جانب مذاهب علم النفس الأخرى .

وقد حاول الكثيرون أن يُجروا ما يصح أن يسمى تجارب تؤيد نتائجها التحليل النفسى ، ونجح البعض فى تأييد بعض نظرياته ، ولكن الطريق طويل جداً ولا شك فى أنه لن يكون من السهل الوصول إلى نهايته .

والخلاصة أن منهج البحث فى التحليل النفسى ليس منهجاً تجريبياً ، وعلى ذلك فحقائقه ليست فى تلك المرتبة من اليقين التى تبلغها حقائق علم النفس التجريبى ، ولكنه أيضا ليس منهجاً تأملياً بالمعنى القديم . وهو يعتمد فى قوته على قدرته على التفسير الواسع المدى لمختلف ميادين النشاط الإنسانى .

الباب الثالث

الانسان ونفسه

قديما قال فيلسوف الإغريق سقراط « اعرف نفسك » وجعل من هاتين الكلمتين جماع الحكمة ، ولعله فطن فى ذلك الزمن السحيق إلى ما يقيمه الإنسان من عقبات فى سبيل معرفته لنفسه ، فنظر إلى هذه المعرفة كأنها الغاية القصوى التى يصل اليها الحكيم ، وهذه الفكرة ولو ان سقراط هو الذى وضعها فى هذه الصيغة الأنيقة المحكمة ، إلا أنها لم تخف على غيره من الناس ، فإن المشاهد لأحوال الناس الملاحظ لسلوكهم ، الدارس لأخلاقهم وأقوالهم ، خصوصا ما جرى منها مجرى الأمثال ، لواجد صدى هذه الحكمة يتردد دائما فى أفواههم . وإنه ليتردد فى أفواه العوام كما يتردد فى أقوال الحكماء ، ويجد صداه فى قصص التاريخ كما تجده فى مآسى التمثيل والرواية . وفى حياة الإنسان فى مختلف أدوارها مصداق لهذه الحكمة ، فالطفل ليس طفلا إلا فى نظر الكبار ، والحاكم الطاغية ليس طاغية إلا فى نظر المحكومين ، والبخيل عند نفسه حكيم مقتصد ، والمسرف عند نفسه كريم مفضال ، والراهب رجل قد زهد مباهج الدنيا وعزف عن شهواتها .

ولن يجادلك أحد فى أنه كثيراً ما يُخفى ذات نفسه عن الآخرين ، بل عن أقرب الأقربين إليه ، ويعتبر ذلك أمراً طبيعيا لا غرابة فيه ، ولكن الذى ينكره هو أنه يخفى ذات نفسه عن نفسه . هو أنه كما يخشى مواجهة الناس بما فى خفيتها فهو يحاول جاهداً أن يصور نفسه لنفسه فى صورة ترضاها ، ويفسر أعماله وتصرفاته فى ضوء لا يَقذى العين ، ومنهم من يجاهد طول حياته فى إقناع نفسه بالصورة التى يريد أن يراها فيها ، ويبذل فى ذلك كثيراً من الجهد ، حتى يرى نفسه لا كما هى ، بل كما يريدها أن تكون . وهو ينكرها إذ تتبدى فى صورتها الحقيقية ، فينسب ما توسوس به إلى الشيطان أو إلى مس من الجن أو يتجاهله تجاهلا تاماً فلا يكاد يعترف بوجوده .

وتظهر هذه النزعة فى كثير من تصرفاتنا العادية ، وتتناول أكثر ما تتناول مواضع الضعف الحقيقية من النفس ، إذ نغطيها ونموهها ونحول بينها وبين الظهور ، ونخفيها عن الأنظار وعن كل عين فاحصة . ونبالغ فى التغطية والإخفاء والتمويه حتى نخدع أنفسنا عنها ، وسرعان ما نصدّق ما موهنا به على الغير فتخفى هذه العيوب ومواطن الضعف عنا أنفسنا ، وكل منا يشبه فى كثير من الأحيان ذلك المغفّل الذى قيل إن الأطفال كانوا يعبثون به ويجرون وراءه فى الطريق صائحين مهللين ، فأراد يوما أن يتخلص منهم ، فاستدار لهم وقال : إنكم تخسرون كثيرا إذ تتبعوننى ، أما تدرون أن فلانا قد أولم وليمة ودعا الصبية وغيرهم اليها ينالون مايشاءون من المرق واللحم (والفتّ) ؟ وصدّق الصبية واستداروا مسرعين نحو بيت الوليمة المزعومة . وما أن رآهم يجرون بجمعهم وقد صدّقوا قوله ، حتى بُهت وقال لنفسه : لعلى صادق فيما رويت لهم ولعل هناك وليمة ، وجرى وراءهم لينال نصيبه فى هذه الوليمة التى ابتكرها خياله . . كذلك نحن فى حياتنا النفسية إذا بدأنا فى تغطية عيوبنا عن أعين الناس ، فقد بدأنا فى تغطيتها عن أنفسنا ، وكلما ظننا أننا نجحنا فى التمويه ، كلما صدقنا أنفسنا مع المصدقين ، ورأينا أنفسنا فى صورة غير الصورة . ولو أمعنا فى التحليل لوجدنا أننا فى واقع الأمر انما نرمى فى النهاية إلى التمويه على أنفسنا واننا نلتمس السبيل إلى ذلك عن طريق التمويه على الناس . انظر إلى المرأة التى تلتمس الجمال بالمساحيق تلوّن بها وجهها وتخرج بها على الناس ، فإذا خيل إليها أنهم يعجبون بها بدأت تعجب بنفسها وهى عن هذا الطريق تصل إلى الهدوء والطمأنينة ، فكأنها تريد أن تقنع نفسها بأن فيها جمالا وهى تصل إلى ذلك عن طريق إقناع نفسها بأن الناس يرونها جميلة فهى إذن كذلك ، ونحن نقنع أنفسنا بالكمال عن طريق إقناعها بأن الناس يروننا كاملين .

وهذه الظاهرة تتناول النفس والمادة من حياة الإنسان ، فنحن نغطى أجسامنا بالثياب ونخفى سوءاتنا المادية ونتخلص من خَبث الجسم ، ونخفيه عن الأنظار ، ولا نطيق التحديق فيه ، ونتحدث عن هذا وذاك حديثا مضمرا غير صريح ، ولكنه مع إضماره يفصح عن تملصنا من مواجهة الحقائق الجسمية

والفسيولوجية ، فنسمى هذه ضرورة ، ونسمى تلك عورة ، ونلتمس الأعاذير إذ نتحدث عن هذه أو تلك ، ثم إننا نلبس للحالات لبوسا يخفى مظهرنا الضئيل احيانا ، والقبيح أحيانا أخرى ، ويضفى على أشخاصنا « هيبة » « ووقارا » « وحكمة » . انظر إلى البدائى الذى يخطط جسمه بخطوط زخرفية تكسبه مظهرا مخيفا ، أو يضع على ظهره جلد الأسد وعلى رأسه قرنى الثور ، او يغطى وجهه بقناع مفزع ، كل ذلك «ليظهر» بالمظهر الذى يؤثر فى غيره فيكسبه الاحترام أو الرهبة ، ولا يلبث ما يبدو على الآخرين من احترامه أو رهبته أن ينعكس فى نفسه فيرى فيها ما لم يكن يراه من قوة وجبروت ومنعة . ولعله كان جبانا رعديدا منكمشا قبل ذلك . وليس هذا الأمر قاصرا على البدائيين بل إن من نسميهم بالمتمدينين يلجئون إلى أمثال تلك المظاهر تماما ، فللجندى لباسه الخاص الذى يميزه ويكسب جسمه رشاقة وقوة وجبروتا ، وللكاهن لباسه الذى يرهب النفوس ويوحى إليها فكرة القداسة والاحترام ، وللقاضى أو الحاكم بزته التى توحى بالحكمة أو العدل أو الرهبة ولكل من هذه تأثير عكسى كما قلنا لا يلبث أن يخدع الشخص عن حقيقة نفسه ويوهمه بأن ما يظهره للناس إنما هو الحقيقة .

وفى الميدان النفسى الصرف نجد أن الإنسان يحاول جاهدا أن يخفى عن الناس مظاهر « الحيوانية » أو « الأنانية المطلقة » التى كثيرا ما يشعر بها . وليس هناك شخص لم يمر فى حياته بتجارب أو حوادث يود أن ينساها أو يتناساها ، فهو يخفيها عن نفسه لأنها تنغص عليه حياته ، إذ تظهر له حيوانيته وأنانيته وضعفه سافرة ، فاذا تعذر عليه أن ينساها فإنه يبررها ويحاول أن يضفى عليها ثوبا يخفى حقيقتها ويغير من صورتها .

قد يكفى كل ذلك لأن ندرك المعنى الذى تنطوى عليه حكمة سقراط ولكننا لن ندرك عمق هذا المعنى إلا إذا علمنا أن الإنسان إنما يخفى عليه من نفسه أكثر مما يعلم ، وأن ما يدركه من أحوالها ونزعاتها لا يكاد يقاس إلى ما لا يدركه وأن هناك قوة فعالة تحول بينه وبين معرفة النفس على حقيقتها مهما حاول جاهدا فى ذلك .

وإن محاولة الإنسان أن يدرك حقيقة نفسه بالتأمل العادى لا تجدى ، لأن العقبات التى تقيمها هذه القوى الفعالة تقف سداً بينه وبين الجانب المجهول من نفسه .

ويخطر ببالنا أن نسأل أنفسنا ما الذى يدعو إلى كل هذه المقاومة والمشادة ، ولماذا تمتنع النفس على صاحبها هذا الامتناع ؟ والاجابة على هذا السؤال تدخلنا فى صميم نظريات التحليل النفسى ، فالجانب المجهول من النفس جانب موجود فعلا ، كما أن باطن الأرض موجود حتى ولم نكن نراه .

لماذا إذن نجهل هذا الجانب ولماذا تحول العوائق بيننا وبين معرفته ، فإذا كُشف لنا أنكرناه ورأيناه غريباً عنا ، وأقمنا العقبات فى سبيل التعرف عليه ؟

إذا أردنا أن نجيب على ذلك وجب أن نتتبع مانحمده من أنفسنا وما نذمه منها ، ما نرضاه وما ننكره مما هو معروف لنا ، فنجد أن ذلك إنما يختلف باختلاف الأشخاص ، باختلاف التربية والتعليم والبيئة التى نشأ فيها كل واحد منهم ونجد أنه أيضاً مرتبط ارتباطاً وثيقاً برأى الناس فينا ورأينا فى أنفسنا . فما ينكره الشخص المتعلم المهذب من نفسه يراه الشخص الذى لم يتعلم ولم يهذَّب أمراً طبيعياً ، وما تنكره بيئة خاصة أو مجتمع خاص إنما هو أمر عادى فى بيئة أخرى ، فكأن هناك مقاييس مشتقة من البيئة ، يرنو إليها كل شخص ويقيس بها ما هو عليه فعلا وما يجب أن يكون عليه ، فيرضى عن نفسه أو يغضب عليها بقدر اقترابها أو ابتعادها عن تلك المقاييس ، والرضى عن النفس علامة السلام العقلى ، والاطمئنان العاطفى ، والحياة الهنيئة المستقرة . أما الغضب عليها ، فهو نوع من الحرب الأهلية الداخلية ، نوع من الثورة المكظومة ، كلنا قد جربها فى وقت من الأوقات ، ورأى شدة وقعها وعمق أثرها فى كيانه وفى سلامه وهدوئه . وهى حال لا يمكن أن يحتملها الإنسان طويلا ، لأن استمرارها صنو الجنون ، والمخرج من أمثال هذه الأزمة إنما يكون باستبعاد علة الغضب وتجاهلها تجاهلا قد يصل أحياناً إلى النسيان ، أو بعبارة أخرى إن

« النفس » تعمل على ان تخفى عن « صاحبها »(١) ما يغضبه أو تموهه عليه حتى يعود السلام ، فهى إذن تخفى ما لا يستطيع العقل احتماله من نزواتها . والعقل يحتمل أولا يحتمل كما قلنا طبقاً لمقاييس مشتقة من بيئته وتربيته. فما تخفيه النفس وما تستبعده هو إذا مالا يتسق مع المجتمع أو بعبارة أدق لا يتسق مع فكرة المرء عن المجتمع وعن المقاييس الخلقية والاجتماعية فيه .

فإذا سلمنا بهذه النظرة سهل علينا أن ندرك طبيعة الجانب الذى نخفيه حتى عن أنفسنا ، لابد أنه جانب قد بلغ من خطورة شأنه أننا لانحتمل حتى معرفته، لا نحتمل مواجهة العالم إذا كنا نعرف أنفسنا كما هى . وإننا كثيراً ما نجد صعوبة فى مواجهة الناس إذا أتينا — حتى فى الخفاء — ذنباً كبيراً ، فنفوسنا إذن تحتوى جانباً قد أمعن فى الخفاء لأنه قد أمعن فى مضادة الأخلاق والعرف السائدين فى المجتمع .

وهنا نرى كيف تتلاقى الفكرتان الأساسيتان فى التحليل النفسى ، فكرة اللاشعور وفكرة الغريزة الجنسية ، فاذا كانت النزعة الجنسية المطلقة بغير قيود ولا حدود هى التى تسود حياتنا النفسية فتجعل من كل طفل وكل شاب وكل رجل إباحياً إلى أقصى الحدود ، لا يقف دون إباحيته عرف أو تقليد أو قانون ، ولا تميز إباحيته بين الغريب والقريب مهما كانت درجة قرابته ، بل تنصبُّ أكثر ما تنصب على القريب بحكم قربه ، إذا كانت هذه النزعة موجودة فعلا ، استطعنا أن نفهم لماذا ينكرها الانسان من نفسه إنكاراً حاسماً بأن يستبعدها استبعاداً تاماً ، فيجهلها ، ولا يكتفى بتجاهلها . لأن مجرد التجاهل إنما يكون لصغائر الأمور وتوافه المخالفات ، وهذه ولا شك كبرى الكبائر ، فلا عجب أن تتخلص النفس منها بهذا الاجراء الحاسم ، وأن تقيم دونها الصعاب والعقبات وتحشد المقاومات حتى لا يدرك الشخص مداها ، فيجد نفسه وقد فقد اتزانه النفسى والاجتماعى . وهكذا نرى أن فكرتى اللاشعور والجنسية

(١) سنجد التحديد السيكولوجى لهذه المفهومات فى الباب الخاص بصورة العقل

فكرتان متلازمتان لا غنى لإحديهما عن الأخرى ، وهما كما قلنا الفكرتان الأساسيتان فى التحليل النفسى .

وقد حاول الكثيرون من المشتغلين بعلم النفس أن يكتفوا بالأخذ بفكرة اللاشعور ، على أن ينبذوا الجنسية بالصورة التى أوردها بها فرويد ، ولكن هذه المحاولة تبدو عقيمة فى ضوء ما ذكرناه ، لأن اللاشعور يصبح عديم القيمة فى هذه الحالة ، يصبح « تركيباً » لم تدع إليه الحاجة إذا استخدمنا لغة علماء الحياة ولا نعرف فى وظائف الجسم أو العقل ما ينشأ بغير حاجة ملحة دافعة إليه .

ولعل فى محاولة المحاولين أن ينبذوا الجنسية من نظريات فرويد ما يؤيد ما ذهب اليه من أن الانسان فى محاولة دائمة لاستبعاد هذه النزعة من شعوره وأفكاره إذا بدت له بالرغم منه . وقد قلنا إن هناك قوة فعالة تحول دون ظهور النزعة المخفية بصورتها الحقيقية .

وحول هذه الموضوعات الثلاثة تدور كل نظريات التحليل النفسى . فالإنسان يولد وعنده هذه النزعة التى يضادّها المجتمع والخُلق ، فلا يلبث أن يجد أنه لن يستطيع أن يحتفظ بها فيخفيها فى أعماق نفسه أى فى « اللاشعور » ، وبما أنها نزعة حيوية أساسية لأن استمرار النوع وهو أهم وظائف الكائن الحى متوقف عليها ، فانها لا تخضع لهذا الابعاد بل تضغط وتلح فى سبيل الظهور ، فيضطر إلى أن يقيم دونها العقبات والمقاومات . ولكن ذلك لا ييئسها ، فتلتمس شتى الحيل لتظهر بصور مقنَّعة مختفية ، توفر على الإنسان صدمة ظهورها بمظهرها الحقيقى ، وتنجح فى التخفى حينا وتفشل حينا ، وتتأثر حياة الانسان النفسية بهذا النضال الدائم بين القُوى ، فيتحدد سلوكه بالصورة الدائمة والمؤقتة له ، وتنشأ فى النفس وظائف مختلفة يعتبر نشوء كل منها استجابة لحاجة جديدة من حاجات هذا الموقف النفسى المركب (١)

---

(١) سنرى فيما بعد أن نشوء الأنا « Ego » ؛ والأنا العليا « Super-Ego » انما هو استجابة للتصادم الطبيعى بين الهى « Id » ، وبين العالم الخارجى .

الباب الرابع

اللاشعور

لكى ندرك ما هو اللاشعور يجب أن نعرف ما هو الشعور، فأنا أشعر بالحر أو بالبرد أو بثقل الملابس على جسمى، أو بصوت يناديني، أو أشعر بالألم أو بالجوع أو بالراحة أو بالسرور . . . الخ ومعنى ذلك أن حالة خاصة قد قامت بالنفس أسميناها الشعور بالحر أو بالبرد أو الألم أو الجوع. غير أن الشعور ذاته، من خواص النفس بصرف النظر عما تشعر به. فالنفس لا تستطيع إلا أن تشعر، وهي تشعر فى كل لحظة من لحظات الحياة، حتى إن أحدهم قد شبه الشعور بتيار الماء الذى لا ينقطع، يتغير ماؤه من لحظة لأخرى، وقد تتغير سرعته أو اتساعه أو عمقه ولكنه مع ذلك مستمر، والإنسان يشعر حتى أثناء نومه بدليل أن النداء أو الطرق يوقظه، وغاية ما فى الأمر أن هذا الشعور ضئيل حتى ليحتاج إلى المنبه القوى لكى يصل إلى التأثير الواضح.

وقد أهتم علم النفس اهتماما عظيما بدراسة الشعور، بل إنه اقتصر عليه إلى عهد قريب، ولعل هذا لا يتضح لنا بأكثر من أن نذكر أن علم النفس كان يعرَّف بأنه «علم دراسة الشعور» لأن كل ما تحويه النفس يحويه الشعور، فكل ما ندرك أو نتذكر إنما نشعر به، نشعر بأننا نفكر أو بأننا نحب أو بأننا نكره.. فماذا بقى من النفس بعد الشعور؟ لا شىء. إذن فالشعور هو الخاصة الأساسية من خواص النفس، وهو خاصة ملازمة لها طول الوقت، فلو درسنا أحوال الشعور ومظاهره فقد درسنا النفس. فكل وظيفة تقوم بالشعور إنما تقوم بالنفس وبالعكس كل ما يقوم بالنفس يقوم أيضاً بالشعور.

وقد عكف علم النفس على دراسة الشعور مدة طويلة وفسر جميع الظواهر النفسية على أساس الشعور حتى أواخر القرن الماضى حينما بدأ الباحثون

فى الطب النفسى يواجهون مظاهر وحالات توحى بأن فى النفس طبقات عميقة لا يصل الشعور إلى عمقها ، وإنما هى خارج أعمق أعماقه ، وكانت ظاهرة التنويم المغناطيسى من أولى الظواهر التى لفتت النظر إلى ذلك ، وتبعته ظواهر أخرى كالأحلام وفلتات اللسان وأعراض الاضطراب والجنون وغيرها .

وقد كان علماء النفس ينظرون إلى نفس الانسان كما ينظر الرائى إلى ماء النهر فيظن أن كل ماهنالك من ماء هو مايحويه المجرى الذى يستطيع أن يلمسه ويقدر طوله واتساعه وعمقه بأيسر الطرق ولكن فات هذا المشاهد السطحى أن ماء النهر إنما يتسلل فى شقوق الأرض ومساربها فيملأ فجواتها ، وما بين حبّاتها ، ويشرّبها ويشبعها ، ولا يمتلىء المجرى حتى تكتفى هذه المسارب والشقوق وحتى تتشبع التربة فى كل نواحيها . ولو قدرنا كمية الماء جميعاً لوجدنا أن ما يملأ المجرى ليس إلا جزءاً منها ، وكثيراً ما يكون القدر الذى « يضيع » فى باطن الأرض أكبر من القدر الذى يظهر على سطحها ، وإن هنالك لأنهاراً تختفى فى باطن الأرض اختفاء قبل أن تظهر على السطح مرة أخرى فى مكان آخر ، لأن الباطن قد ابتلع الماء كله فى المواضع الأولى (١)

فكما أن ماء النهر لا يظهر فى المجرى فقط فكذلك محتويات النفس لا تظهر كلها فى تيار الشعور ، وكما أن ماء النهر إذ يتسرب إلى الباطن فإنه يظهر فى مواضع بعيدة عنه على شكل عيون أو آبار أو نافورات . . الخ مما لا يبدو له صلة مباشرة بالنهر ، فكذلك تظهر المحتويات النفسية « الغائرة » فى الأحلام وفلتات اللسان وظواهر العصاب والجنون . . . الخ وكما كان من العسير تحديد العلاقة بين ماء الآبار والينابيع وبين ماء النهر قبل دراسة ظاهرة التسرب ، وعمل « المجسات » المختلفة فى مواضع عديدة ، كذلك كان من غير الممكن ربط هذه الظواهر النفسية الشاذة بالتيار النفسى العام قبل دراسة العوامل التى تكوّن هذه الطبقة « التحتية » العميقة من النفس وهى اللاشعور .

---

(١) انظر كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق ص ٩٦

ولو سمحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى هذا التشبيه لوجدنا أننا نقع فيه على أكثر من مقابلة . فمن المعروف أن مدى تسرب الماء إلى الباطن فى منطقة ما من النهر ، يؤثر على كمية الماء ، على اتساعه وعمقه ، وعلى سرعته ، وبعبارة أخرى فإن الجزء الظاهر من تيار المـــاء تتوقف خواصه وصفاته على الجزء المتسرب فضلا عن أن لهذا الجزء المتسرب آثاراً كبيرة فى القشرة الأرضية ، فمن مواد يذيبها إلى صخور يفتتها ، إلى نافورات يفجّرها .. الخ ، وكذلك نجد أن ما ينحدر من الشعور إلى أعماق النفس ويصبح لاشعورياً يؤثر فى سلوك الإنسان الظاهر أثراً كبيراً .

وقد جعل التحليل النفسى من « اللاشعور » أساساً لتفسير الظواهر النفسية ، وقد يتبادر إلى الذهن أن اللاشعور مكوّن من كل ما هو « منسى » من عقل الإنسان ، والواقع غير ذلك فهنالك نوعان من النسيان : الأول نسيان سطحى ينصبُّ على أشياء يمكن استعادتها بسهولة ، كالآبار التى تحفر بجوار مجرى النهر مباشرة ، فنحصل على الماء منها بلا كبير عناء ، وهناك نسيان عميق لا نصل إلى عمقه إلا باستخدام وسائل خاصة وببذل مجهود شاق .

ولكى ندرك العلاقة بين هذين النوعين من النسيان وبينهما وبين الشعور نأخذ لحظة معينة فى حياة أى شخص ، فى هذه اللحظة يكون الشخص « شاعراً » بأفكار ورغبات وإحساسات . . . الخ شعوراً عقلياً . ولكن هذه لا تمثل كل محتويات (١) عقله ، فهناك محتويات أخرى ليست فى شعوره ، ولكنه يستطيع أن يستدعيها إلى الشعور بمجهود قليل أو كثير ، مثال ذلك أسماء أصدقائه وأقاربه وأرقام « تليفوناتهم » ، وما صرفه من النقود بالأمس وما يحفظه من شعر أو نثر وغير ذلك من حوادث الحياة اليومية ، وهذه المحتويات التى يستطيع الشخص أن يبرزها إلى شعوره أو « يذكرها » بمجهود عادى قل أو كثر تكوّن طبقة من العقل تحت الشعور مباشرة ومنها يستمد الشعور محتوياته العادية . وتبادل المحتويات والأفكار والرغبات . . . الخ بين الشعور و « تحت

(١) Contents

الشعور ، (١) سهل هين ، وهو من لوازم حياتنا اليومية ، فعندما أكتب خطاباً يكون موضوع الخطاب فى شعورى بينما أسعار الحاجيات تحت الشعور ، وبالعكس عندما أبدأ فى حساب مصروفى اليومى ينحدر موضوع الخطاب إلى ما تحت الشعور بينما تبرز أسعار الحاجيات إلى الشعور .

ولكن ليس هذا كل شىء إذ أن هنالك علاوة على الطبقتين السالفتين من طبقات العقل طبقة « اللاشعور » وهى طبقة عميقة غاية العمق ، خفية عن الشخص غاية الخفاء ، وهى زاخرة بالمحتويات العقلية من أفكار ورغبات وجميعها تتدافع وتلح لكى تبرز إلى الشعور ولكنها لا تستطيع ذلك إلا إذا دخل عليها تغيير أساسى ، كما أن صاحبها لا يستطيع أن يذكرها ويبرزها إلى شعوره بأى مجهود عادى يبذله ، وهى بالرغم من هذا كله ذات أثر كبير جداً فى توجيه سلوكه وتكييف شخصيته ، فهذه الرغبات المخفية تستطيع من مكمنها أن تؤثر فى تصرفاته آثارا ربما لا تستطيعها رغباته الواضحة التى يشعر بها ويعرفها . أما كيف تكوّنت هذه الطبقة العميقة من العقل وكيف خفيت على صاحبها وكيف تؤثر فى سلوكه وشخصيته كل هذا الأثر ، فهو ما سنتكلم عنه فيما يلى من الفصول .

Introduction

وقد وُلدت فكرة التحليل النفسى ونشأت فى محيط العلاج الطبى النفسى ، وقد اشتهر فى هذا العلاج « شاركوه » (٢) فى أواخر القرن الماضى فى فرنسا ، وتلميذه « جانيه » (٣) وقد وصل الاثنان فى علاجهما لبعض حالات الهستريا إلى أن المرض يرجع فى أصله إلى « ذكريات » وحوادث قديمة ، وأن أعراض المرض تَشتق صورتها من هذه الحوادث ولذلك فإنها تتخذ صورا خاصة ، وأنّ المعالج يمكنه بمراقبة هذه الصور أن يكشف « المعنى » النفسى الذى يكمن وراءها ، والذى هو ذو علاقة وثيقة بالحوادث النفسية السابق ذكرها . وبعبارة أخرى فإنه يستطيع أن يترجم الأعراض الحاضرة فى ضوء الحوادث الماضية ، فمثلا قد تجد مريضا مصابا بشلل هستيرى فى اليد فيكون لظهور

Charcot

(١) Pre—Conscious (٢) J. M. Charcot (٣) P. Janet

هذا العَرَض معنى معين ، فاليدعضو قد يستخدم فى الاعتداء والمريض قد يكون راغباً بدون علمه «أى لا شعوريا » فى الاعتداء على شخص عزيز عليه ، فتكون نتيجة هذا الموقف المتناقض أن تشلّ يده ، وفى هذه الفكرة نجد البذرة الأولى لمذهب التحليل النفسى .

أما الخطوة التى تعتبر مبدأ حقيقيا لهذا العلم فقد أتت عن طريق «بروير»(١) وهو طبيب من ڤينا درس على « شاركوه » . ففى حوالى سنة ١٨٨٠ لاحظ أثناء علاجه لحالة من حالات الهستريا . أن أعراض المرض كما سبق أن بيّنا لها معان معينة فهى تشير إلى حوادث قديمة مدفونة . ولكنه اكتشف أيضا أنه إذا نوّم المريض تنويما مغناطيسيا أمكنه عن طريق الايحاء المناسب . أن يعيد إلى ذاكرته ما سبق أن فقدته من هذه الحوادث و « الذكريات » .

وقد لاحظ أن حالة المريض كانت تتحسن كثيرا بعد هذا التذكر وكان يتماثل للشفاء . وكان هذا الكشف الأخير أهم كشوفه ، وهو يعتبر البدء الحقيقى لتاريخ مذهب التحليل النفسى ، وقد استمر « بروير » فى استخدام طريقته فى العلاج حتى انضم إليه « سيجمند فرويد (٢) » وهو طبيب نفسانى آخر درس على « شاركوه » أيضا بعض الوقت فى باريس ثم عاد إلى ڤينا وعمل مع «بروير» وقد حمل هذا الأخير على نشر نتائج كشوفه فظهر بحث مشترك لهما فى سنة ١٨٩٣ . وفى سنة ١٨٩٥ ظهر أول كتاب فى تاريخ التحليل النفسى باسم «دراسات فى الهستريا »

وقد استقل «فرويد» بعد ذلك بالعمل وظل طوال أربعين سنة أو أكثر يجمع نتائج دراسته وعلاجه وينشرها فى كتب ، ويلقيها فى محاضرات ، وجمع حوله نفرا من التلاميذ انتشر عن طريقهم مذهبه فى التحليل النفسى فى ممالك مختلفة أهمها المانيا وانجلترا وأمريكا ، وقد صدر عن « فرويد » وتلاميذه مئات المؤلفات والنشرات والمجلات ومن تلاميذه من أبدعَ نظريات جديدة فى علم

---

(١) Joseph Breuer (٢) Sigmund Freud

النفس يمكن أن تعتبر مشتقة من التحليل النفسى ولكنها انحرفت عن بعض أسسه انحرافا كان كافيا لأن يجعل منها مدارس جديدة قائمة بذاتها ، منها مدرسة « يونج (١) » صاحب علم النفس التحليلى ، ومنها مدرسة « أدلر (٢) » صاحب علم النفس الفردى ، وقد جعل « فرويد » من اللاشعور أساسا للتفسير النفسانى. ويتميز اللاشعور عن الشعور بميزات عده ، فهو لا شخصى (٣) أى أنه لا يحمل طابع الذاتية الذى يحمله الشعور فأنا إذ أتكلم عن رغبتى فى تناول الطعام انما أشعر بأن الرغبة منبعثة عن ذاتى ، فالشعور ذاتى ولكن اللاشعور خلافه فى ذلك فعند ما نتحدث عن آثاره إنما نتحدث عن شىء غريب عنا فنقول إن « شيئا » جعلنى اهفو او جعلنى أخطىء . ولعل فى نسبة الوان من السلوك الغريب للإنسان إلى الشياطين ومن اليهم من الكائنات الخارجية ما يؤكد هذا المعنى .

واللاشعور غير خلقى (٤) بمعنى أن ما يصدر عنه لا تحدده أية قوانين خلقية ولا اجتماعية من أى نوع ، فعالم الخلق والاجتماع لا ينفذ إلى غياهب اللاشعور ، ولا نستطيع أن نقول إن اللاشعور ضد الخلق لأن ذلك يتضمن أن هناك قيمة خلقية ولو معكوسة . ولكن الواقع أن اللاشعور منفصل عن عالم الخلق انفصالا تاماً .

وهو يغفل أوجه الخلاف بين الأشياء ولا يغفل أوجه التشابه ، ومن هنا أتت خاصية الرمز (٥) فهو يرمز للشىء بما يشبهه ولو شبهاً عارضاً ، مغفلا ما قد يكون بينهما من أوجه الخلاف . فقد يكون الاتفاق فى اللون بين شيئين سبباً فى الاستجابة لهما كما لو كانا شيئاً واحداً بالرغم من بعد الشقة بينهما ، فالظلام والرجل الأسود قد يستجيب لهما اللاشعور استجابة واحدة .

وأخيراً فان اللاشعور لا يدرك الفواصل الزمنية ، ويرى أن الماضى والحاضر شىء واحد ، ولعل خير مثال لذلك ما يحدث فى الأحلام من استعادة الماضى كما لو كان حاضراً .

---

(١) C. G. Jung (٢) Alfred Adler (٣) Impersonal
(٤) Amoral (٥) Symbolism

واللاشعور هو المخبأ الذى نُلقى فيه بكل ما يزعجنا ويروعنا من رغبات وأفكار ، ونقفل الباب دون هذه الرغبات والأفكار ونحكم الإقفال ، ثم نقيم العوائق والسدود الإضافية حتى نأمن تسربها إلى ذاكرتنا ، فتصبح نسياً منسياً . ولكن هذه الرغبات والأفكار هى رغباتنا نحن وأفكارنا نحن ، هى إذاً وثيقة الصلة بحياتنا النفسية ولا بد أننا نمر فى حياتنا اليومية مراراً بما يشبهها ، وهذه الحوادث المشابهة تجد صدى عميقاً فى نفوسنا ، وفوق ذلك فان هذه الرغبات والأفكار لا تقع فى مخبئها قانعة ، وإنما تتصايح وتلح وتثور ، وتحاول أن تصل من مجاهل النسيان إلى نور الذاكرة . ولكن أصواتها لا تصل الينا فى الغالب وإذا وصلت فإننا نتجاهلها ونتعامى عنها ، فنسمعها كما لو كانت آتية من الخارج أو نراها كما لو كانت غريبة عنا ، ونتمادى فى هذا التجاهل والتعامى ما وسعنا التمادى .

وقبل أن نختم هذا الباب يجب أن ننبه القارىء إلى أن هذا التقسيم الطوبوغرافى للعقل إلى شعور وتحت شعور ولا شعور ليس إلا تقسيما وظيفياً ، يشبه تقسيمه إلى تذكر وتفكير وانفعال فى حياتنا الشعورية ، فكما أن التذكر خاصة من خصائص العقل فكذلك النسيان ، وكما أن التذكر له شروطه وأنواعه فكذلك النسيان ، وكما أننا نفسر التذكر على أساس قابلية العقل للتأثر واختزانه لهذه الآثار فيه فكذلك نفسر النسيان العادى على أساس قابلية العقل لاستبعاد الآثار المختزنة واسترجاعها تحت شروط خاصة ، فكذلك نفسر النسيان التام « بالتحديد الذى أوردناه » على أساس قابلية جديدة للعقل لنوع من الاختزان البعيد الغور بعداً يجعل هذا المخزون بعيداً عن متناول الشعور ، بل يقيم العقبات فى سبيل ظهوره ، ومع ذلك فالدلائل تدل على أنه موجود لم يُعدم بتاتا

هذه هى النظرة العلمية للاشعور فهو كالشعور مجرد وسط يقوم بصفات ووظائف « نفسية » معينة .

الباب الخامس

الغريزة الجنسية (١)

إن التوالد من الخصائص الأساسية للكائنات الحية على اختلاف مراتبها، وهو الوسيلة التى تصل بها الحياة إلى الاستمرار ، وتصل بها الأنواع إلى البقاء. ولو درسنا أحوال الكائنات المختلفة لوجدنا أن سائر الوظائف تبدو « ثانوية » بالنسبة لهذه الوظيفة . وحياة الفرد نفسها تتكيف تكيفاً يسمح للنوع بالاستمرار . وكثيراً ما تنتهى حياة الفرد بانتهاء أدائه لهذه الوظيفة كما يحدث فى حالة الذكور فى كثير من الحشرات . فكأن الطبيعة تضحى بالفرد حيث يستفيد النوع من هذه التضحية ، فالذكور فى خلايا النحل تعتبر طفيلية على الخلية بمجرد أدائها لوظيفة تلقيح الملكة ، فتُطرد بعيداً وتمنع من دخول الخلية كما أن الذكر فى « فرس النبى » يصبح طعاماً للأنثى بمجرد انتهائه من تلقيحها.

فإذا وصلنا إلى مرتبة الطيور والثدييات نجد أن الأناث تحمل صغارها فى داخلها أو تحتضن بيضها لمدد متفاوتة تطول أو تقصر ، ولا تستطيع الأنثى أن تلد فى حياتها أكثر من عدد معين من الصغار ، تحدده مدة الحمل وطول حياة الفرد وفترة الخصوبة فى عمر كل أنثى ، فاذا أضفنا إلى ذلك طول مدة الحضانة التى يقتضيها نمو كل وليد ، أصبح للذكر أهمية دائمة تختلف عن أهميته الوقتية فى عالم الحشرات ، فضلا عن أن قيام الذكر بوظيفة جديدة فى أغلب الأحوال هى وظيفة « الحماية » أو المساعدة فى جلب الطعام للصغار ، جعل الحياة الاجتماعية عند هذه الحيوانات تتكيف تكيفا جديدا ، ويبدو فيها فى كثير من الأحيان تلازم مؤقت أو دائم بين الذكر والأنثى ، يمكن أن نعتبره أساسا لتكوين « العائلة » .

---

(١) Sexual وتختلط كلمة جنسية بهذا المعنى فى اللغة العربية بكلمة Racial ، وربما كان خير حل لهذا الخلاف أن نترجم الثانية منهما « عنصرية » .

ونجد العائلة عند الانسان تتخذ بالنسبة لظروفه الخاصة صورة تختلف عن صورتها عند سائر الحيوان .

والعائلة فى الانسان عامة توجد فى جميع المستويات ، ومختلف الحضارات ، والصورة الغالبة هى الصورة المألوفة لنا والشذوذ فيها نادر .

والعائلة السائدة مكونة من ذكر وأنثى وأبنائهما . والعائلة عند الإنسان وحدة اجتماعية « جنسية » ، وهى تؤدى هاتين الوظيفتين معا ، عن طريق الاتصال الخارجى والداخلى ، والعائلة هى المؤسسة التى يحدث عن طريقها استمرار النوع فلا غرابة إذا كانت مختلف الجماعات قد عملت على حفظ كيانها بمختلف الأساليب .

ولو نظرنا إلى الغريزة الجنسية عند الإنسان لوجدنا أنها فى مركز يلفت النظر حقاً .

فهى لا تمارَس كما تمارس عند الحيوانات ، أو كما تمارس أغلب أنواع النشاط الأخرى عند الانسان — أو بتعبير آخر « غرائزه » الأخرى — ، بل إنها تخضع لألوان من الخفاء والتخبئة . فأعضاء التناسل نفسها تخفى عن الأعين وتعتبر سوءات وعورات . وشعور الناس نحوها فى الأغلب شعور بالعار والاشمئزاز ، لا تُذكر أسماؤها إلا همسا وفى خفاء . أما التناسل نفسه فقد وضع القانون والتقليد والعرف له نظما تجعل ممارسته أمراً لا يتأتى إلا طبقاً لشروط خاصة ، وفى ظروف خاصة ، فإذا خرج الفرد على هذه النظم فإما أن يناله القانون ، وأما أن يذبذه المجتمع .

ولو بحثنا القوانين والتقاليد فى مختلف البيئات من بدائية ومتحضرة ، فإننا نجد أنه تبرز فيها ناحيتان : الأولى حماية المجتمع من شرور الدافع الجنسى ، والثانية حمايته من اخطار الاعتداء . ولم يكن وضع هذه القوانين والتقاليد عبثا بل إن وجودها ليبرهن على أن المجتمع ينظر إلى هاتين النزعتين « الجنسية والاعتدائية » على أنهما نزعتان قويتان جداً ، يحتاج الأمر للتخلص من

أخطارهما إلى جهد جهيد . فأما النزعة الأخيرة فقد حرَّمها بوجه عام وإن كان قد أبقاها كحق من حقوق « الحاكم » ، ولكنه لم يستطع تحريم الأولى فنظّمها وسن القوانين والشرائع التى تحدد المحظور والمباح فيها .

والإنسان يختلف اختلافا أساسياً عن الحيوانات الأخرى ، فهو بما وصل اليه من ذكاء وقدرة على التذكر والتخيل وغير ذلك ، قد دخل فى حياته النفسية عامل جديد من الوجهة البيولوجية ، وأكسبه هذا العامل كفاءة وقدرة من نوع جديد بالنسبة للرتب الحيوانية الأخرى ، ثم إن طبيعة حياته الاجتماعية قد أدخلت عاملا آخر عظيم الخطورة فى حياته النفسية . وهذان العاملان يتركزان فيما يمكن أن نسميه « غرائز المحافظة على النفس(١) » ، فهذه الغرائز التى ترمى إلى المحافظة على كيان « الفرد » إنما تستخدم ذكاء الإنسان وقدرته العقلية لكى يطابق بين سلوكه وبين المقتضيات التى تحتمها معيشته الاجتماعية . فهذه الغرائز ترمى فى مجموعها إلى صيانة الفرد . وتبقى الغريزة الجنسية ووظيفتها الأساسية حفظ « النوع » والفرد لا يدخل فى حسابها إلا باعتباره ناقلا للنوع ، وهو كما رأينا فى عالم الحيوان كثيراً ما يعتبر عالة على النوع فيُعدم أو يُترك ليفنى بعد أن يؤدى الوظيفة المطلوبة منه . فالغريزة الجنسية تعتبر من الوجهة البيولوجية غريزة « لا فردية » بل كثيراً ما تكون ضد الفرد . ومقتضياتها لا تتمشى مع مقتضيات الذاتية الفردية دائماً ، وهى تصطدم معها اصطداما فى حالة الانسان خصوصاً بالنسبة لما ذكرناه من خصائصه الاجتماعية ، وهذا الاصطدام لامناص منه ، وهو يؤدى إلى نتيجتين : الأولى أن تتخذ الغريزة وسائل وطرقاً لا تتنافى فى ظواهرها مع المقتضيات الخلقية والاجتماعية ، اى أنها تتمشى مع مقتضيات « غرائز المحافظة على النفس » لكى تستطيع ان تؤدى وظيفتها فى النهاية وهى الوظيفة التى ترمى إلى حفظ النوع ، والثانية انها إذ تخضع لظروف المجتمع إنما تعطى الانسان فرصة للمزيد من الرقى العقلى والاجتماعى ، لأن

---

(١) أنظر : Self-Preservative Instinct

Freud : Introductory Lectures on Paycho—Analysis 1940, p.298

اعتبارها « عقبة » يقل من الوجهة العملية . ومعنى هذا باللغة الواقعية ، ان المجتمع يضع النظم والقوانين والتقاليد والعادات التى تحدد ممارسة هذه الغريزة بحيث لا تتضارب مع كيانه ثم إذ يطمئن من هذه الناحية ينصرف إلى ترقية مستواه وإلى بلوغ غايات معنوية وثقافية أعلى . بل إن هناك ما هو أهم من ذلك ، لأن هذه النظم والتقاليد ... الخ إنما تحد من نشاط الغريزة الجنسية فتجعل من الممكن أن يُستخدم مازاد عن الحاجة من هذا النشاط نفسه فى بلوغ الغايات الاجتماعية ، بل وتصبح دافعاً إلى المزيد منها .

غير أن هذا الاصطدام نفسه كثيراً ما يضع الفرد او المجتمع فى موضع لا يُحتمل ، ذلك ان قبول الغريزة للضغط وتمشيها مع المقتضيات الاجتماعية ، له حدود لا يمكن تجاوزها إلا على حساب الكيان العقلى للفرد أو للمجتمع ، ولذلك تظهر على بعض الأفراد آثار الاضطراب العصبى نتيجة لفشلهم فى حل هذه المشكلة ، كما تبدو مثل هذه الآثار على مجتمعات بأسرها فتؤدى إلى الثورات والحروب وغيرها من مظاهر « الاضطراب العقلى الجمعى » .

ومما يزيد فى تعقيد المشكلة أن الغريزة تبدأ فى الظهور قبل أن يستوفى الفرد نصيبه من الذكاء ومن تفهم النظم الاجتماعية ، فظهور الغريزة الجنسية فى الطفولة بكامل قوتها يجعلها تصطدم بالمجتمع الخارجى اصطداما مباشراً ، ولا تكون ظروف هذا الاصطدام تحت رقابة متنورة من العقل ولذلك فإنها تؤدى غالباً إلى نتائج متطرفة من الإشباع أو القمع ، ويؤدى ذلك إلى حل العقدة فى الظاهر ولكنه يضع أساس الاضطراب العصبى المستقبل للفرد .

وهذه الصلة بين الاضطراب العصبى وبين الغريزة الجنسية هى التى كشفت الطريق لفرويد ليكوّن نظرياته فى التحليل النفسى . ويقال إن الذى لفت نظر فرويد إلى هذه الحقيقة هو أستاذه « شاركوه » الذى قال فى حالة مريضة بالهستريا : « فى هذه الحالات ، الجنس دائما هو السبب الرئيسى ، دائما ، دائما ، دائما » . وقد وجد فرويد فى الحالات التى فحصها أنه دائما كان هناك عنصر

ينتسب إلى الدافع الجنسى . ولكن سرعان ما حملته مشاهداته إلى محيط آخر . فقد وجد أن للأعراض المرضية صلة بعهد الطفولة ، وما لبث أن بهره ذلك التشابه العجيب بين أعراض المرض العصبى وبين حياة الطفولة ، وما لبث أن وضع يده على كشف من أهم كشوف التحليل النفسى وهو « الجنسية الطفلية (١) » .

فقد وجد أن الأعراض الراهنة للمرض إما جنسية صريحة أو مضمرة ، ولكنه إذ تتبعها إلى الطفولة وجد أنها تكشف عن نوع من الجنسية عند الأطفال . لا يمكن أن يخطئه المدقق المحايد فى نظرته .

فهذا « التعلق » الشديد من ناحية الطفل بأبويه وغيرهم ، وما يتناوب الطفل من نوبات الغيرة والغضب والرغبة فى الاستئثار بمن يحب ، وجريه وراء اللذة وحرارة العاطفة التى تبدوا فى معاملاته ، كل هذه ظواهر تفصح عن طبيعة متدفقة جياشة لا يشبهها إلا أشد حالات العشق والشبق عند البالغين . وللغريزة عند الأطفال صورة غير تلك التى نراها عند الكبار (٢) . ولكن التشابه بينهما تشابه أساسى ، وهو الذى جعل فرويد يصرُ على أنهما ترجعان إلى أصل واحد .

فللغريزة صورَها «الطفلية» وهذه الصور نفسها تلاقى من القمع والمقاومة ما تلاقيه نظيرتها عند الكبار بل أكثر ، ونتيجة القمع فى حالة الأطفال أوكد ، ولذا كان أثره أعمق وأحد .

فإذا رجعنا إلى التكوين العائلى الذى ينشأ فيه الطفل نجد أن التيارات التى تتجاذبه متعددة مختلفة الاتجاه ، بل متناقضة . ففى محيطها تجد غرائزه الاشباع والقمع متجاورين متلازمين ، وفيها يجد الاقتراب والابتعاد ، المحبة والكراهية ، الألفة والغيرة . والأسرة هى التى تنقل إليه التقاليد والعرف

---

(١) Infantile Sexuality

(٢) أنظر ص ٧٧ وما بعدها .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

الاجتماعيين . وفى هذه الفترة من حياته يمر فى ظروف لن يكون لها نظير فى حياته المستقبلة . فهو يصطدم لأول مرة بالحدود والموانع والأوامر والنواهى، كل ذلك وهو خالى الذهن مما وراءها من حكمة، لا تتملكه الا رغباته وشهواته فلا تلبث هذه أن تصطدم بتلك ، ولا يلبث أن يشعر بحرارة الاصطدام ، فيثور ويغضب ويدافع ويهاجم ، ولكنه لا يلبث أن يدرك أنه يحارب فى معركة لم تتكافأ فيها القوى ، فينتهى به الأمر إلى التسليم . وهو إذ يسلم إنما يسلم هذه الرغبات والشهوات نفسها فتختفى ، وتخلى الطريق لغيرها مما يتناسب مع المجتمع.

وعهد الطفولة الأولى زاخر بالحوادث النفسية . والجديد الذى أضافته مدرسة التحليل النفسى إلى معلوماتنا هو أن هذه الحوادث تعتبر جنسية، وذلك هو الذى دعا إلى قمعها واستبعادها من الشعور . ونسيانها نسيانا تاما ، بل أن النسيان لا يقتصر على الحوادث نفسها بل على كل ما يحتمل أن يذكّر الإنسان بها ، ولذا كانت هذه الفترة من حياتنا فترة تكاد تكون منسية نسيانا تاما لا يبرره مجرد مضى الزمن ، لأننا نذكر من الحوادث ما مرت عليه عشرات السنين ، ولكن الطفل ذا الثمانى السنوات لا يكاد يذكر من ماضيه الذى مر عليه سنتان شيئا . فى الطفولة الأولى إذن توضع أسس اللاشعور لأنه فى الطفولة الأولى يظهر نوع من الجنسية الثائرة المندفعة .

وهكذا نرى كيف جمعت مدرسة التحليل النفسى بين اللاشعور والجنسية وحياة الطفولة .

الباب السادس

التحليل النفسى

عندما نستخدم لفظى « التحليل النفسى » نقصد إلى أحد معنيين :

الأول ، الطريقة التى اتبعها «فرويد» لعلاج مرضاه والتى أحلها محل التنويم المغناطيسى فى الوصول إلى الحوادث المدفونة فى أعماق النفس . وقد استخدم «فرويد» هذه التسمية لكى يؤكد ناحية « التحليل » من جانب المعالج ، فهو يبحث ما يقوله المريض و « يحلله » لكى يصل إلى ما يعتبره أساساً للأعراض العصبية .

والثانى ، مجموع النظريات التى وصل اليها فرويد فيما يتعلق بتكوين نفس الإنسان ، والتى كان الوصول اليها نتيجة لاتباع الطريقة السالفة ، فما كشفه فرويد من العلل النفسية أثناء عملية التحليل لمختلف المرضى ، جعله أساسا لبناء « علم » التحليل النفسى الذى يختلف عن علم النفس التقليدى .

١ طريقة التحليل النفسى :

وطريقة التحليل النفسى تتلخص فى أن يطلب الطبيب إلى مريضه أن يترك لنفسه العنان فلا يحاول أن يقود « أفكاره » فى أى اتجاه ، بل يتركها تحوم حيث شاءت ، وأن يذكر ، كل ما يمر بخاطره وهو فى هذه الحالة الطليقة من كل قيد . ويعبّر عن خطراته التى تنساب بلا عائق تعبيراً حراً ، فلا يترك منها تافها ، أو سخيفا ، أو متناقضا ، أوغير لائق ، أو كريها ، إلا وذكره كما هو وهو يمر بخاطره ، فالمريض يترك أفكاره تتداعى « تداعيا طليقا » (١) لا تتدخل « إرادته » فيه بحال ما ، إذ يتملع عن كل محاولة لتوجيهها أى وجهة خاصة . والمريض — والطبيب معه بطبيعة الحال — يلاقى عنتا كبيرا فى مبدأ الأمر

(١) Free Association

لأن التداعى الطليق يتطلب منه أن يهجر ما تعود فى مختلف أدوار حياته من توجيه أفكاره توجيها خاصاً ، ثم أنه يتطلب منه أن يعبر باللفظ عن كل ما يخطر له وهو أمر عسير إذا ذكرنا اننا ننتقى ونتخير ما نستطيع التعبير عنه لغيرنا من الناس ، فهناك ما لا نستطيع أن نبوح به إلا لخاصة الخاصة من أصفيائنا ، وهناك ما لا نستطيع أن نذكره لمخلوق ، فما بالك إذا طلب إلينا أن نبوح بكل ما يرد على خاطرنا للطبيب بدون محاولة لترتيب الكلام أو تنسيقه أو إدخال أى تحوير على الكيفية التى يتوارد بها .

والمريض لا يصل إلى الحالة المطلوبة من السلاسة والإنطلاق إلا بعد جهد جهيد ، إذ يجد كثيرا من المقاومة التى يشعر هو بها ، ويدركها المحلل ، إذ تحول نفسه بينه وبين الانطلاق المطلوب فى الأفكار . وكثيرا ما ينبه المحلل إلى أنه يعانى هذه المقاومة ، ويشجعه على الإفضاء والتغلب على العقبات النفسية التى تحول دونه ، ويظل به يتخطيان معا هذه العقبات حتى يصلا — بعد وقت طويل — إلى العناصر الانفعالية القديمة التى تفسر الأعراض الحديثة فى حياة المريض ، وميزة التحليل النفسى على التنويم المغناطيسى أن المريض يتتبع بنفسه كل ما يقوله ، بعكس الحال فى التنويم المغناطيسى ، فيكون من اليسير عليه نسبيا أن يدرك المعنى الذى يكمن وراء الأعراض وأن يفهمها فى ضوء جديد هو ضوء الحوادث الماضية من حياته ، فيواجهها مواجهة مبنية على التنور والفهم والمعرفة . كل ذلك والمعالج يأخذ بيده حتى يصل إلى الهدوء والاستقرار اللذين يميزان الحياة العقلية السليمة .

وتستغرق عملية التحليل عادة شهورا عديدة قبل أن يصل المعالج إلى الأسس البدائية للأعراض الحالية ، والجلسات الأولى من التحليل تستنفد عادة فى إحكام الاتصال بين المريض والطبيب وفى تمرن المريض على شىء من التحرر من العوامل التقليدية فى تعبيره ، وبالرغم من أن المريض يتحدث طوال هذه الجلسات عن أعراضه وعن نفسه فان ما يقوله يكون عادة قليل الجدوى لأنه

لايخرج عن محاولات فى أغلبها « شعورية » لسرد حوادث أو ذكريات يُخيل اليه أنها ذات علاقة بحالته . وكثيرا ما يأتى المريض وعنده تشخيص « كامل » يعرضه على الطبيب ، وعلى هذا الأخير أن يصرفه شيئا فشيئا عن التمسك بتشخيصه ، ويقنعه أن من واجبه أن يقلع عن الإيمان بنظريته ، وأن يبدأ من جديد وهو خالى الذهن . ويمر وقت طويل قبل أن يبدأ المريض فى الافضاء بما هو ذو قيمة فى تشخيص حالته . ويصحب ذلك عادة مظاهر من المقاومة لا تخطئها عين المجرب . فمن نوبات ضيق تنتاب المريض فيغادر حجرة التحليل مندفعا إلى الخارج ، إلى ثورات على الطبيب ، إلى فترات يكاد ذهنه يخلو فيها من كل فكرة ويكاد لسانه لا ينطق بكلمة ، إلى غير ذلك من علامات قد تكون أقل درجة كالتنهد والاضطراب واحمرار الوجه وتهدج الصوت . وهذه كلها علامات لا تخطىء . تدل على وجود مقاومة فعالة تحول بين المريض وبين « الافضاء » ، دلالة على أن التحليل قد وصل إلى مناطق الحرج فى النفس ولمس المواضع الحساسة .

والذى يحصل عادة أن تستمر المقاومة وقتا يطول أو يقصر ، ثم لا يلبث المريض أن يجد عنده رغبة شديدة ملحة فى الإفضاء ، لا يستطيع مقاومتها ، فيحاول الاتصال بطبيبه فى التو ، مهما كان الوقت غير مناسب فان لم ينجح أصابه الضيق ولبث على أحر من الجمر فى انتظار ساعة المقابلة .

وتنتاب المريض فى أثناء التحليل حالات تلفت النظر فهو يتراوح بين التعلق الشديد بالمحلل وبين النفور الشديد منه .

وينتهى الأمر بنوع من التعلق يشبه تعلق الطفل بأمه أو بأبيه ، فكأن المعالج قد حل من نفس المريض ذات المحل الذى كان يحل فيه الأب أثناء طفولته وبالرغم مما لهذا « الإحلال » (١) من القيمة الكبيرة فى العلاج ، فإنه مع تقدم التحليل يصبح نوعا من « المرض » يجب أن يتخلص منه المريض فى

---

(١) Transference

الوقت المناسب ، وإلا تعذّر عليه أن يقف على قدميه ويواجه متاعب الحياة وحده ، وأصبح كالطفل يعتمد فى كل كبيرة وصغيرة على هذا الأب البديل الذى لا يستطيع عنه بعادا .

والطبيب يعمل من جانبه على إفهام المريض موقفه الجديد ، وعلى تدعيم ذاتيته المستقلة ، فاذا وصل إلى هذا ، فقد بدأ يسير نحو حياة نفسية هادئة مستقرة .

ويشمل التحليل النفسى ، تحليل الأحلام التى يراها المريض فى منامه . وخصوصاً تلك التى يراها أثناء فترات العلاج أو التى يتكرر ورودها .

نظرية التحليل النفسى :

هذا عن التحليل النفسى كطريقة ، أما نظرية التحليل النفسى فهى مشتقة من الصورة التى كوّنها فرويد وغيره من الباحثين ، عن النفس ، كنتيجة لاستخدام هذه الطريقة وتقوم هذه الصورة على عدة مبادىء سيرد تفصيلها فى الأبواب التالية ، ونجملها فى هذا الباب .

والمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه هذه النظرية هو مبدأ « الحتمية السيكولوجية »(١) ويقرر هذا المبدأ أنه لابد لكل حادثة نفسية من علة ترجع اليها ، فليس هناك من محتويات العقل مايمكن أن يُنسب إلى الصدفة العارضة ، بل إن لكل منها سبباً يرجع اليه .

فما نسميه « فلتات اللسان » ، وما يظهر على الشخص من فزع لرؤية حشرة أو حيوان صغير ، وما يميل اليه أو يكرهه من الألوان أو الأشكال ، ونوع الأشخاص الذين ينجذب إليهم أو ينفر منهم ، والمواقف التى يرتاح إليها أو يضجر منها . . كل هذه يكوّن سلوك الشخص فيها محتما لا يستطيع أن يحيد عنه ، فهو محدود من قبل بماضى حياته وبما مر عليه من حوادث سابقة ، أى

(١) Psychological Determinism

إن تاريخه القديم يحدِّد الصورة التى تحدث بها استجاباته للمواقف الجديدة .

فإذا تتبعنا سلسلة الحوادث المرتبطة بهذه الكيفية فإنها ترجع بنا إلى عهد الطفولة حيث نجد العلل الأساسية لاتجاهات السلوك الجديد .

وهذه هى النظرة التى تتسق مع استخدام طريقة التحليل النفسى لأنه لولا هذا الارتباط « المادى » بين محتويات العقل القديمة والحديثة لما أمكن الوصول إلى العلل الأساسية فى حالات المرضى بأنواع الاضطراب العصبى .

وقد استتبع الأخذ بهذا المبدأ مع دراسة مستلزماته الأخذ ببضعة مبادىء فرعيـــة .

الأول : مبدأ الديناميكية أو الفاعلية النفسية . فنظرة التحليل النفسى للنفس نظرة « ديناميكية » وليست بنظرة « استاتيكية » . وبعبارة أخرى فان النفس تشمل « قوى » محركة فعالة لامجرد صور ساكنة ، والكُمُون فى التحليل النفسى ليس معناه الخمود . فهذه القوى دائمة الضغط والتفاعل ، وليس هناك ظاهرة نفسية إلا وهى نتيجة تغلب إحداها على الأخرى ، والمغلوبة لا تخلى الميدان إلا وهى تبدأ فى التمهيد للوصول إلى غايتها بطريقة ما

فالصورة العامة للنفس صورة حركة وتدافع دائمين لا سكون فيها إطلاقا ، وما قد يظهر من السكون إنما هو صورة سطحية خداعة يقصد بها التعمية .

(١) فالنسيان مثلا ليس مجرد سقوط بعض العناصر من « الذاكرة » ، وإنما هو محاولة إيجابية من العقل لاستبعاد هذه العناصر وإبقائها « تحت الحفظ » لأسباب تتعلق بالسلام والانسجام النفسى العام .

وفلتات اللسان التى نقولها ونندم عليها ، ليست مجرد كلمات صدرت « عفوا » وإنما هى قد دُفِعت دفعا إلى نطقنا بواسطة القوى اللاشعورية لتؤدى غرضاً ترمى اليه هذه القوى .

(٢)

فهذه الصورة الحركية هى صورة العقل فى التحليل النفسى ، ولعل هذه الحركة

الدائمة فى العقل ، تقابل الحركة الدائمة فى الجسم كما تظهر فى فعل القلب والغدد والخلايا المختلفة . . . الخ .

والثانى : مبدأ التوازن . فلا تنشأ فى النفس قوة أو نزعة إلا وتنشأ معها بالضرورة قوة أو نزعة مضادة ، ويكون سلوك الإنسان ناتجاً عن محصِّلة النزعتين . ولعل هذا من أهم المبادىء التى أخرجها لنا التحليل النفسى . ولكى ندرك هذا المبدأ نأخذ مثالا يمر بنا جميعا فى حياتنا اليومية ، فالشخص المتعلق بعائلته الشديد المحبة لأبويه وزوجته وأولاده شخص قد حمَّل نفسه فى ذات الوقت أعباء ومسئوليات نفسية جسيمة تجعل منه بدون أن يشعر عدواً لأولئك الذين يحبهم . ففى هذه المحبة تكاليف تقضى عليه أن يحرم نفسه من كثير من ملذاته وأغراضه ، وينكر ما ترغب فيه مما تسمح به ظروفه ، فضلا عما يصيبه بالضرورة من هموم وأحزان لما يصيبهم . فهل ترضى نفسه بهذا الحال ؟ أم تثور دونه ؟ الواقع أن الإنسان قد يحتمل ذلك بكل نفس طيبة فى الظاهر ، ولكنه فى الباطن ، البعيد عن متناول شعوره ثائر على هذه القيود التى قيد بها نفسه ، وهذه الثورة كثيراً ما تظهر فى صور متعددة ، ومعنى ذلك أن الإنسان حيث يُحب بشعوره فإنه يكره من أعماق اللاشعور ؛ لأن محبة الغير كما يفهمها الشعور ، تتنافى مع الأنانية المطلقة وهى مبدأ اللاشعور . وهذه النزعة للتناقض أو الثنائية(١) عامة فى سلوك الانسان . ومما يلفت النظر أن الشبه فى هذه الحالة كبير أيضا بين العقل كما يصوره التحليل النفسى وبين الجسم كما يصوره علم وظائف الأعضاء . فالعمليات الحيوية للجسم يحكمها دائما مبدءان متضادان يعمل كل منهما فى اتجاه . فعضلات القلب تغذيها أعصاب فاعلة وأخرى معطِّلة ، وعمل القلب نتيجة أو محصلة للأثر الناتج عنهما ، وكذلك نجد فى إفرازات الغدد أمثلة كثيرة للتضاد أو التقابل الذى يسمح بكثير من المرونة فى الاستجابة للمواقف المتفاوتة .

---

(١) Ambivalence

والثالث : مبدأ التحول . فالطاقة النفسية الديناميكية طاقة قابلة للتحول من مجرى إلى آخر ، وفرويد يطلق على مجموع الدوافع اسم « الطاقة الغريزية »(١) ويعتبر أن هذه الطاقة تتحول من اتجاه إلى آخر فى حياة الإنسان . وهذه القدرة على التحول هي أساس التطور فى الحياة النفسية . فهى التى تجعل من الممكن أن يمر الطفل من دور « الإشباع الذاتى »(٢) حيث تلتمس أعضاؤه وحواسه لذات هذه الأعضاء والحواس ، إلى دور « النرجسية »(٣) حيث تتركز اللذة فى ذات الشخص فيصبح موضع الحب والاعجاب من نفسه إلى دور « المحبة الخارجيه »(٤) وهكذا ، ثم إن هذه القدرة على التحول هى التى تسمح بإبدال الأشخاص أو الأشياء محل بعضهم أو بعضها البعض فى توجيه المحبة أو الكراهية ، وبذلك فانها تسمح بحدوث « الاعلاء »(٥) وهو توجيه الطاقة الغريزية نحو الغايات الاجتماعية من خلقية وثقافية ، وبعبارة أخرى فإن هذه القابلية للتحول هى أساس الرقى الانسانى وإن كانت فى الوقت نفسه أساس المتاعب النفسية التى تحل بالأفراد والجماعات ؛ لأن تحول الطاقة هو أيضاً أساس ظهور الأعراض المرضية .

---

(١) Libido　(٢) Auto-erotism　(٣) Narcissism

(٤) Object Love　(٥) Snblimation

الباب السابع

« الحتمية » فى التحليل السيكولوجى

قام التحليل النفسى كما قلنا على مبدأ التعليل لكل علة . ومعنى هذا أن كل الحوادث النفسية للإنسان مرتبطة ارتباط العلة بالمعلول ، وأن كل حادث من مبدأ حياة الطفل ذو أثر فى سائر حياته ويرجع التحليل النفسى بهذا المبدأ إلى الساعات الأولى من حياة الطفل ، بل أن حادث الولادة نفسه يعتبر من هذه الحوادث ، ومعنى ذلك أن التحليل يعتبر أن حياة الجنين داخل الرحم جزء من حياته النفسية ، ولكل من هذه الأدوار فى حياة الفرد أثره المحتم فى شخصيته . ولو تتبعنا نظرية التحليل النفسى لوجدنا أن أهمية هذه الحوادث النفسية تزداد كلما اقتربنا من بدء الحياة، فحوادث الطفولة والميلاد والحياة داخل الرحم ، أهم فى تشكيل الشخصية من حوادث المراهقة أو الشباب أو الكهولة .

ومبدأ الحتمية فى التحليل النفسى يشبه المبدأ الذى أخذت به العلوم الطبيعية حيث يتحتم أن يكون لكل ظاهرة تعليلها ، ولا يُقبل أن تبقى ظاهرة ما بغير تعليل . ولم يكن هذا المبدأ جديدا على علم النفس فى الواقع ، فإن محاولات الترابطيين (١) فى تفسير الحياة العقلية كانت محاولات من نفس النوع ، فقد جعلوا « الترابط » أساس التفسير النفسى ، ولكن مادة العقل عندهم كانت غالبا هى الأفكار ، ولذلك قل ماذكروه عن النواحى الوجدانية النزوعية ، ثم إن سيكولوجية الترابطيين كانت سيكولوجية شعورية صرفة ليس للاشعور مكان فيها . وقد زادت سيكولوجية الترابطيين أن جعلت للترابط تفسيرا فسيولوجيا فقد سارعت إلى الاستفادة مما عرف فى ذلك الوقت عن تركيب الجهاز العصبى

---

(١) Associationists

وتكوّنه من خلايا وخيوط عصبية مرسلة وقابلة وملتقيات (١) فكانت الخلايا هى مقارّ الأفكار وأكسونانها المرسِلة والقابلة وسائل الترابط، والملتقيات هى التى تحدد سهولة الارتباط أو صعوبته.

ولكن التحليل النفسى لم يفرض أى أساس فسيولوجى للترابط أو لغيره بل بالعكس قد استبعد فرويد جميع التفسيرات المبينة على أساس تشريحى او فسيولوجى او كيميائى (٢).

وقد أدى الأخذ بمبدأ الحتمية إلى نتيجتين:

(الأولى) أن كل مايمر بالإنسان من حوادث لابد أن تترك أثراً فى إحدى طبقات العقل الثلاث، الشعور وتحت الشعور واللاشعور، أو فى أكثر من طبقة. ويمكننا أن ننظر إلى كل حادث نفسى باعتبار أن مركزه فى إحدى الطبقات الثلاث ولكنه يمتد إلى سائر الطبقات فيحدث أثره فيها.

التحليل النفسى هنا يقوم على الترابط أيضا فحيث ترتبط حادثة نفسية معينة بأخرى فإن تكرّر حدوث إحديهما يؤدى إلى إثارة زميلتها.

غير أن التحليل النفسى يختلف عن ترابط الترابطيين فى أنه لايجعل الترابط بالضرورة بين عناصر فى نفس المستوى، بل هو فى الغالب بين عناصر لاشعورية وأخرى شعورية، ومن هنا كانت قوة اللاشعور وقدرته على التعبير الفعلى عن طريق ارتباط مكوناته بالشعور، ثم إن التحليل النفسى لم يقتصر كالترابطية على أن يكون مذهبا تحليليا (٣) بل زاد على ذلك أن كان مذهبا تركيبيا (٤) فوصل إلى صورة متكاملة للسلوك الإنسانى بدل أن يقتصر على التحليل.

وحتمية التحليل تختلف عن حتمية الترابط فى انها مرنه فهى تسمح بأكثر

---

(١) Synapsese

(٢) Freud : Introd. Lect. on Psycho- Analysis, p. 16

(٣) Analytical (٤) Synthetic

من احتمال واحد من احتمالات السلوك طبقا لنوع التحول الذى حدث فى الطاقه العقلية كنتيجة للحيلة (١) اللاشعورية السائدة .وأقرب المذاهب الحديثة إلى الترابطيه هو مذهب السلوكيين (٢) بل أنه عند البعض مجرد امتداد لفكرة الترابطية فى صورة أخرى . وقد قيل عن التحليل النفسى مثل ذلك القول . غير أن نوع التعليل فى التحليل النفسى مبنى على قـــدر من الشمول والمرونة لانجده فى النظريات السيكولوجية الأخرى .

وتُبرز هذه النتيجة أهمية « التاريخ الفردى » فى التحليل النفسى . وبما أن الحوادث التى تمر بالفرد لا عداد لها فقد عمد علماء التحليل النفسى إلى بيان الاسس التى تشتق منها « الأهمية » النسبية لهذه الحوادث ، فحوادث الطفولة أهم مما عداها ، وحوادث الأسرة أهم مما عداها ، وهكذا ، ولو أنه فى الواقع ليس هناك تفضيل قاطع بل إن الحَكَم هو ملابسات كل حادثة بالذات .

وكما أن « تاريخ » الفرد أصبحت له هذه الأهمية الفائقة وخصوصا تاريخه المنسى ، فقد امتدت الأهمية إلى تاريخ الجنس كله . ذلك أن بعض المعترضين على التحليل النفسى ذكروا أن « عقدة أوديب » (٣) لا يعقل أن تنشأ عند ولد نشأ يتيم الاب أو لقيط ربى فى ملجأ . وكان رد فرويد على ذلك أن عقده أوديب وأمثالها من الأسس العميقة للحياة النفسية إنما تُشتق من تاريخ الجنس كله لا من تاريخ الفرد فقط . ولو أن فرويد لم يتوسع فى هذه النظرة توسع تلميذه « يونج » الذى فرض وجود ما سماه « اللاشعور الجمعى » وجعله أساسا دائما من أسس التفسير النفسى بجانب اللاشعور الفردى .

وهكذا برزت أهمية فترة الطفولة عند الانسان كأساس للتعليل النفسى بعد ذلك ، وأصبح علينـا ان نبحث عن جذور الاضطراب العصبى « العصاب » والجنون « الذهان » (٤) فى فترة الطفولة وكذلك اصبح علينا ان نبحث فى هذه

---

(١) Mechanism (٢) Behaviourism

(٣) انظر صفحة ٨٧ « Œdipus Complex

(٤) Neurosis & Psychosis والترجمة للدكتور يوسف مراد

الفترة عن الأصول التى تشتق منها كل من الشخصية الشاذة والعادية .

والواقع أن فترة الطفولة لم تكتسب قط تلك الأهمية الفائقة التى اكتسبتها نتيجة لكشوف التحليل النفسى . فقد اصبح من المسلم به ان السنوات الخمس او الست الاولى فى حياة الطفل هى الفترة التى ترجع اليها الصورة النهائية للشخصية اكثر من اى فترة اخرى .

واما النتيجة (الثانية) : التى تترتب على الأخذ بمبدأ الحتمية فهى أن كل ما يأتيه الانسان من تصرف إنما هو مقرر من قبل ومشروط بما سبق أن مر به من تجارب فى طفولته وفى سائر مراحل حياته ، وبمعنى آخر فان فى التحليل النفسى نوعا من « القدرية » فالفرد ليس حراً كل الحرية فى تصرفاته ، والفرد فى ذلك مثل الجنس فكل منهما مقيد بقيود ماضية ، ومعنى هذا أن الفرد ليس مقيدا بقيود ماضية الخاص فقط بل ماضى الجنس البشرى كله ، وبالضرورة فان الجنس مقيد بقيود ماضى أفراده ولعل هذا الرأى يتفق مع ما نراه كل يوم من فشل المصلحين فى مختلف عصور التاريخ فى خلق صورة إنسانية « منطقية » أو « مفيدة » ، وما نراه من فشل الأفراد فى تكييف أنفسهم فى صورة جديدة

ولعل هذه النظرة إذا تابعناها قادتنا إلى التشاؤم المطلق والواقع أن هناك مبرراً لكثير من التشاؤم ، ولكن هناك من الناحية الأخرى مكانا لقدر من التفاؤل . فقدرية التحليل النفسى قدرية علمية ، وليست قدرية مثالية ، وهى كقدرية العلم الطبيعى إذ يصف لنا الحاله التى تكون عليها قطعة الحديد إذا رفعت درجة حرارتها إلى درجة معينة ، فهى قدرية تستجمع مصيرها من الظروف التى مرت بها ومن المواقف التى تجدّ عليها ، وكما أن فى مقدورنا إذا توصلنا إلى علة التمدد أو الانصهار لقطعة الحديد وإلى التحكم فى هذه العلة إلى أن نغير من الحالة التى تصبح فيها ، كما نغير من ضغط الغاز بتغيير حجمه وبالعكس ، فكذلك فى مقدورنا وقد عرفنا القوى الأساسية التى تعمل فى نفس الانسان ، فى مقدورنا أن نرى الطريق إلى تخليصه من « مساوئه » وإلى الاتجاه

به فى الطريق القويم . غير أن هذا «الطريق القويم» هو لسوء الحظ عقدة العقد لأن التحليل النفسى لا يستطيع أن يختاره لنا وإنما قد يستطيع أن يدلنا على السبب فى اختيار شخص بذاته « لطريق قويم » بذاته .

والتحليل النفسى يعالج الأفراد ، والعلاج معناه فى الواقع إعادة النسيج النفسى إلى صورة سوية بعد أن كان مملوءا بالعقد ، أو بعبارة أخرى هو نوع من التدخل فى تاريخ الشخص فنحن إذ نخضعه لموقف التحليل إنما نعيده إلى حالة الطفولة الأولى ونبدأ فى أن نحل العقد التى تكونت فى ذلك العهد السحيق . وبهذا المعنى فنحن نغيّر « تاريخه » وبذلك نؤثر فى مصيره .

وكما أن التحليل النفسى يعالج الأفراد فهو أيضا قادر على علاج الجماعات لو أتيح له ذلك ، ولعل اليوم يأتى حين يدلنا على العلل الأساسية فى المجتمعات ، تلك العلل التى تؤدى إلى انقسام المجتمع الواحد على نفسه وعلى نظيره ، وتضع القوى الاجتماعية المختلفة بالنسبة لبعضها فى موضع التطاحن والتناحر الذى هو أساس الشقاء الذى يعانيه الجنس البشرى .

والشبة عجيب بين المجتمع المنقسم والشخص « المنقسم » الذى تتناحر قواه الداخلية فيضيع ماعنده من طاقة أو جهد فى هذا العراك الداخلى الذى لا يحقق غاية للكائن الحى بدل أن تتجه نحو العالم الخارجى ليحقق له غاية واقعية .

ويمكن أن نلمس فى المجتمعات صورا تشبه تلك الصور العصابية والذهانية التى نلمسها فى الأفراد ، ولعل هذا هو المفتاح الذى قد يفتح لنا فى المستقبل الباب إلى الشفاء النفسى الجماعى كما فتح لنا الباب إلى الشفاء النفسى الفردى .

الباب الثامن

الصراع (١) والكبت (٢)

سبق أن ذكرنا أن فرويد توصل إلى أن أعراض المرض النفسى على اختلافه ترجع إلى حوادث منسية، هى الأصل فى إحداث هذه الأعراض وهى تتدخل فى تحديد الصورة التى تحدث بها. وقد وجد فى مبدأ عمله حوادث ترجع إلى ماض غير بعيد، وتتصل اتصالا مباشرا بأعراض المرض. وقد عالج فرويد فى مبدأ الأمر كثيرا من الحالات على أساس أن فى استعادة ذاكرة المريض لهذه الحوادث «المنسية» أساس الشفاء، ولكنه لاحظ أن كثيرا من الحالات أصابتها النكسة بالرغم من التحسن المبدئى الذى حصل عليه.

وقد لاحظ أن كثيرين من المرضى فى هذه الحالات وغيرها يستعيدون حوادث واقعية أو أوهاما ترجع إلى طفولتهم، وسرعان ما فطن فرويد إلى الصلة بين هذه وبين ما أصابهم من مرض. وخرج من ذلك بأن من الضرورى لكى يصل إلى شفاء المريض شفاء كاملا، أن يستمر التحليل حتى يبلغ طبقات العقل العميقة التى تكونت فى أثناء الطفولة المبكرة، وأن كل محاولة لا تصل إلى هذا العمق لا تنجح إلا نجاحا وقتيا.

فإذا أردنا أن نرسم صورة مفهومة للعقل فعلينا أن نرجع إلى الطفولة الأولى لكى نبدأ مع الطفل، ونرى كيف ينظر الى العالم، وكيف ينظر اليه العالم، وكيف تنتج من هاتين النظريتين المتقابلتين صورة العقل كما نعرفه:

والطفل إذ يولد إنما يكون كائنا حيا بسيطا غاية البساطة من الوجهة النفسية فهو من ناحية الإحساس والإدراك وغيرهما من جوانب المعرفة فى بدء السلّم، فمعرفته بالعالم تكاد تكون مقصورة على بعض إحساسات أو إدراكات غامضة

---

(١) Conflict (٢) Repression

وإن الصورة النفسية للطفل تكاد تكون فى هذا الدور صورة نزوعية خالصة ، فهو ينزع نزوعا غامضاً إلى استكمال حالة لا يدركها تماما من الاستكفاء ، ولكنه يبدأ فى إدراك نفسه وإدراك كيانه عن طريق هذا النزوع . ذلك أن الطفل قبل ولادته يعيش فى وسط متجانس منسجم يحصل باعتباره كائناً حياً على كل حاجاته من غذاء وهواء بانتظام عن طريق الدورة الدموية « للأم » ، فهو مستكف حكما لا شعوراً ، وهو فى ذلك كالعضو من الجسم ليس له كيان مستقل عن كيان الأم . ولكنه لا يلبث أن يخرج إلى العالم حتى « يجد » أن عليه أن يقوم بنفسه بالوظائف الأساسية فينزع إلى العودة إلى حالة الاستقرار التى كان فيها ، فهو ككائن حى « يطلب » أو يحتاج إلى الهواء والغذاء والدفء .. إلى غير ذلك من المطالب .

وهو لا يحتاج لأن يتعلم أو يتمرن فى هذا الصدد ، لأن النزعات ليست إلا نزعات « غريزية » أى أن تكوينه بطبيعته يجعله يرمى اليها . فهناك نوع من « الدافع » الداخلى يلتمس الوصول إلى حالة الاستقرار التى ذكرنا ، أى الى نوع من الاشباع ، وكلما قرب من هذه الحالة كلما تبلورت عنده بالتدريج حالة الارتياح أو « اللذة » ، وكلما بعد عنها كلما تبلورت عنده بالتدريج حالة عدم الارتياح أو « الألم » .

وهو يحصل على المقومات التى تؤدى إلى ارتياحه أو عدمه من البيئة ، ولذلك فلا تلبث البيئة — مع اتساع إدراكه — أن تنقسم إلى مصادر للذة وأخرى للألم أو أن يصبح المصدر الواحد مصدر لذة حينا وألم حينا آخر .

ونحن نسمى مجموع هذه الدوافع التى ترمى الى الوصول الى الاشباع ؛ نسمى مجموعها بالنزعات الغريزية أو الدوافع الغريزية ؛ أو الغريزة فقط .

وقد أطلق فرويد على مجموع هذه النزعات اسم الغريزة الجنسية وذلك لأنها المصدر التى يَشتق منه الطفل من مبدأ الأمر ميله « الى » أو « عن » الأشياء . فما يجلب له الاشباع هو ما يرتاح اليه أو « يحبه » ، وما يجلب له الحرمان هو ما

لا يرتاح اليه أو « يكرهه » ، ولا يلبث الطفل أن تتحول كراهيته إلى نوع من الرغبة فى التخلص من مصدر الحرمان ، أو « تدميره » ، وهذا هو أساس النزعة « الاعتدائية » (١) التى ترتبط بهذه الكيفية بالنزعة الجنسية ارتباطا وثيقاً . وعند فرويد أن المحبة والجنسية مسميان لشىء واحد ، خصوصا وأن هذه الأخيرة فى صورتها الناضجة عند البالغ إنما تشتق من الأولى فى صورتها البدائية.

والواقع أن هذا كما قلنا هو الجزء الأساسى فى سيكولوجية فرويد وهو الذى تنبنى عليه كل مبادىء التحليل النفسى ونظرياته ، وتنبنى عليه طرق الوقاية والعلاج النفسى ، ولكن يجب أن نقف قليلا لنؤكد معنى « الجنس » عند فرويد ، فهو يختلف كما رأينا عن معناه عند غيره من علماء النفس . فالنزعة الجنسية عند فرويد ، تشمل كل وجدان رقيق وتشمل كل أنواع الحب والحنان (٢) وهى تتحقق فى نواح مختلفة بالحصول على لذّات محدودة أو غير محدودة ، وأن كفاءة الانسان لأن يحب أمه او أباه او غيرهما كأصدقائه ، او أن يحبّ وطنه ، او يحب العدل والانسانية أو شخصا من الجنس الآخر ؛ كل هذه ترجع إلى أصل واحد وتنبع من منبع واحد ، وبعبارة أخرى ان قابليتنا لأن نحب او نشعر بالحنان والمحبة والتفانى والغيرة تنبع كلها من منبع واحد هو هذا الدافع الغريزى .

وهذا المنبع هو الذى نستمد منه الطاقة التى تجعلنا قادرين على حب أبوينا فى الصغر كما أننا نستمد منه الحب الجنسى الصحيح بعد البلوغ . فكأن المقدرة على كل أنواع المحبة والصداقة والحنان . . . الخ ، واحدة ترجع إلى أصل واحد ويصح أن تتحول من حالة الى حالة أخرى . وبعبارة أعم ، فإن نزعة الانسان إلى الرغبة أو إلى الاقبال فى مختلف أشكالها وإلى العزوف والادبار فى جميع صورهما — سواء فى الناحية الحسية او المعنوية ، إنما تستمد من طاقة غريزية واحدة قابلة للتحول فى أهدافها وفى وسائلها . فالانسان يرمى الى اللذة فى

---

(١) Agression

(٢) Flugel : Psychoanalysis

مختلف أدوار حياته ، يرمى الى اللذة وهو طفل رضيع ويرمى الى اللذة بعد أن يكمل نموه ، وفى عهد الكهولة والشيخوخة ، ولكن اللذة تختلف فمنها الحسى ومنها المعنوى . وكل لذة يصل اليها الانسان تعتبر فى نظر فرويد إشباعا للدافع الغريزى الأساسى وكل ألم يلحق به ينصب على هذا الدافع ، واللذة الجنسية بمعناها المعروف إحدى هذه اللذات التى يرمى اليها الفرد ، وهى فى نظر معظم علماء النفس من أهمها ، ولكنها فى نظر فرويد جماع مايرمى اليه الفرد فالحياة عنده تبدأ بمجموعة من الرغبات الحسية التى ترمى الى الإشباع الحسى ، وهذه الرغبات راجعة الى دافع أساسى هو الدافع الغريزى ، وكلما تقدم الانسان فى العمر كلما طرأ التحول على هذا الدافع ، فاتجه جزء من قوته أو « طاقته » الى نواح فكرية أو معنوية أو خلقية أو غيرها ، ولكن يتبقى منه دائما جانب يرمى الى اللذة الحسية ويتطور هدفه فى داخل حدودها حتى يصل فى النهاية عندسن البلوغ الى الهدف التناسلى الحقيقى .

فكأن حياة الإنسان ترمى أولا وقبل كل شىء إلى حفظ النوع ، فطاقته الغريزية موجهة إلى هذا الهدف أولا ، ولكن هذه الطاقة قابلة للتحول الجزئى إلى أهداف أخرى مادية أو معنوية ، إذا وَجدت الظروف التى تسمح بهذا التحول وهى موجوده دائما ، وعلى ذلك فمن الطبيعى أن يسمى فرويد هذه الطاقة التى يستخدمها الإنسان فى كل نواحى نشاطه العقلى بالغريزة الجنسية لأن التناسل هو هدفها الأخير بعد مرورها فى أطوارها المختلفة . فكأن نشاط الإنسان باعتباره كائنا حيا موجه أساساً إلى التناسل الذى هو السبيل إلى حفظ نوعه ، وكل نشاط آخر هو إما تمهيد لهذه الغاية ، أو اشتقاق منها .

الطفل والأم :

ومركز الأم فى عالم الطفل مركز فريد لأن عالمه يكاد يقتصر فى مبدأ الأمر عليها ، فهى مصدر الإشباع والراحة والطمأنينة حين يجدها الطفل ، وهى

فى الوقت نفسه مصدر الحرمان والقلق والحيرة حين يجد الطفل نفسه محروما أو قلقا أو حيران .

ولذلك تكون عواطف الطفل نحو أمه «مجزّأة» من وقت مبكر جدا، وهى تبقى على هذا التجزأ بعض الوقت ولكن لا نلبث أن تصبح عاطفة الطفل نحو الأم عاطفة حب جارف قوى ، حب أنانى شديد الأنانية لا يعترف «بشريك» ما سواء كان الشريك كبيرا مثل « الأب » أو صغيرا كأحد الأخوة ،هو حب يرمى إلى الاستئثار الكامل وينالة الغضب واليأس والحزن إذا لم يصل إليه . هو إذن حب يرمى إلى التملك ويغار ويعادى المنافس ، وبعبارة أخرى تتجلى فيه كل صفات الحب الناضج الجارف فى أقوى صوره ، ومن يراقب الأطفال ويرى حرارة العاطفة وشدتها عندهم يجد أن أى صورة للعشق فيما يلى من العمر لا يمكن أن تدانى هذه الصورة عند الطفل الرضيع .

و « فرويد » يربط بين عشق البالغ وعشق الرضيع ويُرجعهما الى أصل نفسى واحد والى نزعة مفردة ، هى النزعة الجنسية . ولعله لو أطلق عليها اسم نزعة حب الأم لجعلها أكثر قبولا لدى الكثيرين من معارضيه.

وتتطور هذه النزعة الجنسية تطورا سنذكره فيما بعد خلال السنوات الخمس أو الست الأولى من حياة الطفل ، وتتسع لتشمل أفرادا آخرين ولكن طبيعتها تبقى هى هى من حيث الإلحاح والرغبة فى الوصول الى الإشباع .

والأم تمثل البيئة التى يولد فيها الطفل ، فهى التى تعطى وهى التى تحرم ، وهى تُعدّ الطفل لبيئة اجتماعية لها نظم وقوانين خاصة ، وتطلب منه أن يخضع لها من أول يوم فى حياته . تفرض عليه أو تطلب منه مستوى من السلوك لا يستطيع أن يفهمه ، وتطلب منه أحيانا أن يماشى أحوالا اجتماعية سلخ المجتمع نفسه من حياته آلاف السنين لكى يستطيع أن يتعوّد عليها .

وليس عند الطفل سبب أو شبه سبب يمنعه من أن يأكل متى شاء ، ويصيح متى شاء ، ويُفرغ أمعاءه مما فيها حيث شاء وفى أى وقت أراد ، أو أن يمصّ

أصبعه أو ينام أو يستيقظ أو يدمر هذا أو ذاك من الأشياء التى تقع تحت يده ومع ذلك فهو خاضع لنظام خاص ، ومرغم على اتباع هذا النظام ضد إرادته ، وعلى خلاف رغبته ، وبلا سبب يستطيع أن يفهمه .

وهذا أول صراع ينشأ بين الطفل وبيئته ، ويجاهد الطفل ويجالد فى التغلب على إملاء البيئة فلا يستطيع . ويجد أن ذلك الذى يملى عليه شخص محبوب هو الأم التى يحبها ويرغب فى إرضائها ، فينتج من ذلك موقف غريب يواجهه الطفل : وهو الرغبة فى إرضاء الأم ، والرغبة فى إرضاء النزعات الداخلية .

وهكذا ينتقل ميدان الصراع فلا يبقى صراعا بين الطفل والبيئة الخارجية بل يصبح صراعاً بين رغبتين متنازعتين فى داخل نفسه .

وتتضارب الرغبتان فى نفس الطفل كلما جد موقف يدعو إلى ذلك ، ولكن العقل لايحتمل الصراع الظاهر طويلا ، فإن الصراع معناه انقسام العقل على نفسه ، معناه نشوب نوع من « الحرب الأهلية » داخل النفس وفى ذلك الخطر كل الخطر على كيان الشخص ، ولذلك فلا يلبث الصراع أن ينتهى بحل ، وتكون نتيجة الحل أن تتغلب إحدى النزعتين المتضادتين ، على الأخرى فتختفى المغلوبة من الميدان وتخليه لغريمتها . ولكن هل الرغبة التى اختفت من الميدان قد انتهت وتلاشت كلية من الوجود ؟ كلا فإنها إذ تختفى إنما تكمن فقط فهى تبعد من الشعور وتنحدر إلى اللاشعور ، فتصبح منسية ، ولكنها تبقى مستعدة للظهور وانتهاز الفرص ، لتصل إلى نوع من التحقيق أو التعبير . وهكذا ينتهى الأمر كما تنتهى كل حرب أهلية بانتصار الفريق القوى وهزيمة الفريق الضعيف ، فتظهر الأمة بصورة واحدة ويختفى الفريق المغلوب من الحياة الظاهرة للأمة ، ولكنه يعمد إلى شتى الوسائل ليحارب خصمه ويسبب له المضايقات ، فيعمل فى الظلام على تدبير المؤامرات وانتهاز الفرص للإيقاع بغريمه .

يحدث مثل هذا فى الحياة العقلية فالرغبة التى تُغلب على أمرها تبقى قائمة

فى اللاشعور منتهزة فرص التحقيق والتعبير ، ولكنها لا تفنى فناء تاماً قط . ويطلق على استبعاد الرغبة أو الفكرة من الشعور ودفعها إلى اللاشعور اصطلاحا اسم « الكبت » (١)

وعلى ذلك فالصراع بين نزعتين ينتهى دائمـــا بكبت إحدى النزعتين والمكبوت ينمحى من الذاكرة ولا يصبح جزءاً من شعور الشخص .

والنزعات اللاشعورية المكبوتة التى تظل كامنة أو مختفية فى اللاشعور ، تتحين الفرص المناسبة للتعبير عن نفسها تعبيراً يكون عادة ملتوياً أو غير مباشر فتبدو متخفية أو مقنّعة فى صور أخرى بدل أن تبدو صريحة سافرة ، وسنرى سبب ذلك فيما يلى .

والخلاصة أن الصراع وما ينشأ عنه من كبت يعود فى الأصل إلى تعارض النزعات الغريزية مع البيئة ولكنه يتحول كما رأينا فى مثال (الأم) إلى نزاع داخلى بين الرغبة فى إرضاء الأم (أو البيئة) والرغبة فى التعبير عن النزعات الغريزية ، والذى يقوم بالكبت كما رأينا هو جانب من العقل يصارع ويكبت جانبا آخر منه ، وتكرار هذه العملية يؤدى إلى ثبوت الجانب الكابت وتخصصه فى قمع النزعات وقيامه بوظيفة القمع بصفة دائمة . وهكذا ينفرد جانب من العقل للوقوف فى وجه النزعات والرغبات الغريزية وكبتها متى تعارضت مع النظم والقوانين والمطالب التى تمليها البيئة (الأم وغيرها) ، ويسمى هذا الجانب فى مجموعه بالقوى الكابتة (٢) . ويطلق على مجموع هذه القوى اسم « الرقيب » (٣) ومهمة الرقيب تشبه لدرجة ما مهمة الرقيب على الصحف والمطبوعات فى زمن الحرب فهو لا يسمح بالظهور إلا لما يوافق عليه المجتمع كما يتمثل فى السلطة الحاكمة .

ولكن كما فى حالة هذه الصحف والمطبوعات تحاول الرغبات والنزعات

---

(١) Repression

(٢) Repressing Forces (٣) Censor

المعارضة أن تحتال على الرقيب فتظهر متخفية فى صور رمزية بدل أن تظهر بصورها الحقيقية وكثيرا ما تخفى على الرقيب وتنال بغيتها من التعبير عن نفسها .

كما أنها قد تصل إلى التعبير إذا أصاب الرقيب ضعف أو وهن أو كان فى غفلة ، كما فى حالة النوم — فالأحلام تعبير رمزى عن النزعات المكبوتة — أو التنويم المغناطيسى أو تحت التخدير، أو المسكر أو التعب الشديد أو التحليل النفسى ، وتظهر أيضا فى فلتات اللسان وما إليها .

هذه الرغبات والنزعات تستعمل حيلا لتصل إلى التعبير وهذه « الحيل اللاشمورية » (١) متعددة وسنجد فرصة لدراسة بعضها .

---

(١) Unconscious Mechanisms

الباب التاسع

طبيعة العقل

والآن فلنحاول أن نرسم صورة للعقل كما يراه أصحاب التحليل النفسى.

العقل ينقسم الى جانب شعورى وجانب لا شعورى. أو كما نسميهما باختصار الشعور واللاشعور.

والجانب الشعورى هو الجانب الذى نشعر به، هو ذاتنا التى نتكلم عنها عندما يقول أحدنا «أنا» أريد وأنا أعمل وأنا أفكر أو هو مايسمى اصطلاحا بالأنا (١). وأما الجانب اللاشعورى فهو يشمل مبدئياً النزعات الغريزية التى هى فى محاولة دائمة للتعبير والوصول الى الشعور كما ذكرنا. فالعقل إذن ينقسم إلى الذات والى النزعات الغريزية، والأولى شعورية فى مجموعها والثانية لا شعورية، وقد قلنا أن الذات أو «الأنا» شعورية فى مجموعها ولم نقل أنها شعورية إطلاقا، لأنها فى الواقع تحتوى على جزء لاشعورى هو الجزء الذى يقوم بالكبت. فالكبت عملية لاشعورية يقوم بها الجانب اللاشعورى من «الأنا» وهو الرقيب.

والصورة الأولية للعقل هى صورة النزعات الغريزية التى يتكون مجموعها من الطاقة الغريزية الأصلية والتى يطلق على مجموعها اسم «الهى» (٢) وتنشأ «الأنا» من «الهى» عن طريق الاصطدام بين هذه الأخيرة وبين العالم الخارجى، ثم تعمل «الأنا» على كبت ما تبقى من «الهى» فيصبح لاشعوريا، وهذا هو منشأ «اللاشعور». وتصبح «الأنا» هى وحدها المتصلة بالعالم الخارجى كما يبدو عن طريق الحواس والإدراك. وعلى ذلك فإنها تصير الواسطة التى يكيِّف بها الانسان نزعاته طبقا لهذا الاتصال.

---

(١) Ego.

(٢) Id ومعناها باللاتينية «هى».

والمبدأ الذى يسود «الهى» هو مبدأ اللذة (١)، فهى ترمى الى الاشباع واللذة وبما أنه لا اتصال بينها وبين العالم الخارجى أو المجتمع، فإن جريها وراء اللذة مطلق، لا يقيده قيد ما. أما الذات فتحاول أن تحل محل هذا المبدأ مبدأ «الواقعية» (٢) أى مبدأ الاعتراف بالعالم الخارجى «الواقعى» ومراعاته، وقصر تحقيق اللذة على مالا يتعارض مع هذا العالم.

فإدراك الواقع فى العالم الخارجى هو الذى يميز الأنا، بينما الرغبة وطلب اللذة وحدها هى التى تحرك الهى.

ويمكن أن يقال إن الذات تمثل ما نسميه عادةً العقل أو الحكمة، بينما النزعات تمثل ما نسميه الشهوة. غير أن «الأنا» ليست لها قوة دافعة ذاتية، وإنما تستمد قوتها من «الهى» وهى فى الوقت نفسه تحاول توجيهها كما يوجه الراكب فرسه فيمسك بأعنته ويوجهه ويستخدم قوته، ويكبح جماحه إذا ثار. ولكن هناك فرقا بين الحالتين، فالراكب يستخدم قوته الذاتية فى توجيه الفرس، أما «الأنا» فتشتق قوتها من «إلهى» كما أن نزوات الفرس شىء خارجى بالنسبة للفارس لا يحس إلا بآثارها، أما نزعات «الهى» فهى تبدو «للأنا» كأنها نزعاتها الخاصة، وبذلك يكون الإنسان كما لو كانت «أناه» تكبح جماح شهواتها الخاصة، ولكن الشهوات فى الواقع مشتقة من «الهى» (٣).

و«الأنا» تخشى على نفسها كما يخشى الراكب نزوات «إلهى»، لأن هذه النزوات قد تعرضها لأخطار لا حصر لها، تأتى من المجتمع الذى يقف لها بالمرصاد.

ويتضح ذلك إذا عرفنا أن المجتمع لا يقبل تحقيق شهوات الانسان على إطلاقها، وأنه قد حصّن نفسه ضد إطلاقها بالقوانين والتقاليد والعادات والعرف والذوق... إلى آخر هذه المفهومات، وأن النزعات ترمى إلى ما هو ضد هذه القيود، والأنا تخشى انتقام المجتمع فتكبت من نزعات الهى ما يتعارض

---

(١) Pleasure Principle (٢) Reality Principle

(٣) Freud : The Ego and The Id. 1945 p.30

معه ، ولا تسمح إلا بما تشعر أن المجتمع مستعد للسماح به . ولكن هذا ليس كل شيء فى تقسيم العقل ، لأن هناك جانبا آخر منه على أعظم درجة من الأهمية ، هذا الجانب هو جانب لاشعورى أيضاً يسمى « الأنا العليـــا » أو « الضمير اللاشعورى »(١) فاحتـكاك الأنا بالبيئة أو عالم الحقيقة والواقع ، يؤدى إلى أن ينفرد منه بالتدريج جزء يعتبر فى الواقع ثورة على الذات ، إذ أن الذات باحتكاكها بالعـالم الخـارجى أو الحياة الواقعية تكتسب وجهة نظر عملية ، وتترفق أحيانا فى معاملة النزعات والرغبات المـكبوتة ، فهى كالحـكومة الضعيفة ، كثيراً ما يكون ضعفها سبباً فى ظهور حزب متطرف لا يرضى إلا باتخاذ الوسائل القاسية لمعـالجة ما يظهر من المخالفات ، كذلك حالة العقل فإن جانبا من « الأنا » ينفرد ويصبح لاشعوريا ، وهذا الجانب ينتزع من الحياة الواقعية قوانينها وتقاليدها ، ويحوِّلها إلى مثل عليا يطالب « الأنا » بتحقيقها ، وهو يطبق هذه القوانين والتقاليد تطبيقا هو فى منتهى الصرامة والقسوة ، ولا يعرف التساهل ، فيطلب العقوبة على مجرد النية كما يطلبها على العمل . وهو دائم الضغط على « الأنا » مطالبا إياها بأن تكون صارمة فى معاملة « الهى » .

ويُفهم مما سبق أن « الأنا » العليا لا تعمل بنفسها وإنما تعمل عن طريق « الأنا » . وتتكون « الأنا العليا » من الأنا عن طريق الأثر الذى تتركه علاقة الأبوين بالطفـل فى « أناه » ، « والأنا العليا » تمثل أهم ما وصل اليه الفرد والنوع الانسانى من ناحية الحضارة والخلق . وهى تحل محل الأبوين فى توجيه « الأنا » توجيها دائما ، فهى بديل داخلى من الأبوين يمتاز عنهما بأنه دائم ، وبأنه لا يعرف التساهل ، ويعمل دائما ضد النزعات ، ولا يرضى عادة عن أى تساهل تبديه « الأنا » نحو هذه النزعات .

وعند نشوء « الأنا العليا » يصبح واجب « الأنا » مزدوجا ، فهى لا تقتصر فى سماحها أو عدم سماحها للنزعات بالتعبير على مراعاة العالم الخارجى ، بل يصير عليها أن تراعى معارضة « الأنا العليا » كذلك ، وعلى ذلك تتضاعف القيود على النزعات ،

---

(١) Super - Ego

قيود مشتقة من العالم الخارجى ، وأخرى أشد وأعنف مشتقة من «الأنا العليا».

ومن الغريب أن التنازل عن الرغبات تحت ضغط العوامل الخارجية يكون دائما مقترنا بالألم والشعور بالحرمان ، أما التنازل عنها تحت ضغط الأنا العليا فيكون له أثر آخر ، فالألم الناتج عنه يقترن به شعور باللذة والانتصار(١)، شعور بالفخر الذى يقترن باتيان العظيم من الأعمال . وليس ذلك غريبا لأن «الأنا» هى بديل الأبوين ، وكما نشعر بالسرور والفخر إذا تغلبنا على نزعاتنا لإرضاء الأبوين ، فنحن نشعر بنفس الشعور إذا فعلنا ذلك إرضاء للأنا العليا ، فالأنا ترمى فى الطفولة الى الحصول على محبة الأبوين وتشعر باللذة لذلك بصرف النظر عما قد يكون هناك من الألم الناتج عن قمع النزعات . وهى كذلك تشعر برضاء الأنا العليا شعوراً مصحوبا بالراحة والرضاء ، أما إذا أغضبتها فإنها تشعر بغضبها شعوراً يترجم إلى ما نسميه «تأنيب الضمير» . وعندما تتغلب «الأنا» على «إلهى» تنتظر أن تنال جزاءها من «الأنا» العليا فتفوز بنصيب أوفى من المحبة ، وهذا هو الذى يُشعر «الأنا» بالفخر .

وكثيراً ما نسب إلى التحليل النفسى أنه قد أغفل القيم العليا الخلقية والروحية . والصحيح أن التحليل النفسى قد نسب عملية الكبت إلى النزعات الخلقية (للأنا) . ثم انه قد بين أهمية الأثر الخلقى للأبوين فى نشوء وازع خلقى دائم فى نفس الأنسان وهو (الأنا) العليا .

وينسب فرويد نشوء هذه الصفات فى (الأنا) العليا ، إلى صلتها بتطور الانسان فى مختلف العصور ، فتتجمع فيها مؤثرات الحضارة والرقى على مر العصور ، وهذا هو ما يجعل لها القدرة على أن تحيل النزعات إلى أسمى وأعلى مافى الانسان .

ولهذا قال فرويد : « إن الانسان أحط بكثير من الوجهة الأخلاقية مما يتصور (بالنسبة لنزعاته الغريزية) وهو فى الوقت نفسه أرقى بكثير مما يتصور (بالنسبة لذاته العليا ومبادئها) » .

---

(١) Freud : Moses & Monotheism, p. 184.

وهكذا نرى أن العقل يحوى هذه الجوانب الثلاثة : الهى ، والأنا ، والأنا العليا ، أما الهى والأنا العليا فلا شعورية ، وأما الأنا فأغلبها شعورى. وعلى الأنا أن تسلك طريقها بين مطالب البيئة أو الحياة الواقعية ، وبين مطالب « الهى » فإذا عالجت الأمر علاجا وسطاً ، فهى معرّضه لمحاسبة الثالث وهو « الأنا العليا » .

والحياة العقلية السليمة هى التى تسير فى توازن حكيم بين هذه المطالب والقوى المتعارضة . أما إذا تغلبت إحدى هذه القوى بشكل واضح على الأخرى ، فإن سلوك الشخص يصبح متطرفا فى إرضاء هذه أو تلك ، أو متأرجحاً بين هذه وتلك ؛ أو قلقاً أشد القلق خوفا من تغلب هذه أو تلك عليه.

والقلق (١) وما يصحبه من خوف وغيره من مظاهر الصراع النفسى . والاضطراب النفسى أو « العصاب » (٢) هو مظهر للفشل فى ايجاد التوازن بين هذه القوى ؛ فالشخص المصاب بالأضطراب شخص قد فشلت ذاته فى إيجاد هذا التوازن ؛ فأصبحت حياته كدرة تعسة ، وأصبح قلقا غير مرتاح إلى حالته ولكنه متيقظ لها أشد التيقظ يحاول أن يوجد التوازن الذى فقده بمختلف الوسائل .

وقد يبلغ اختلال التوازن درجة خطيرة ، فيفلت القياد كلية من الأنا ، ويصبح الشخص غير عالم بما فى حالته من شذوذ ، وهذا مايسمى بالجنون أو الاضطراب العقلى أو « الذُهان » (٣) . والفرق الأساسى بين الاضطراب النفسى أو العصاب والاضطراب العقلى أو الجنون ، هو أن الشخص فى الاول عارف بحالته وساع فى إصلاحها بنفسه أوعن طريق العلاج ، وقادر على الحكم على تصرفاته ومعرفة الخطأ والصواب فيها ـ أما فى الثانى فهو لا يرى فى نفسه شذوذا ، إذ يفقد القدرة على نقد تصرفاته والحكم عليها .

---

(١) Anxiety (٢) Neurosis (٣) Psychosis

الباب العاشر

الحيل اللاشعورية

سبق أن ذكرنا أن الرقيب لا يسمح للنزعات أن تعبر عن نفسها تعبيراً يصدم ما اصطلح عليه المجتمع من قوانين وآداب ونظم ، وبيّنا كيف يحدث الكبت فى هذه الحالة .

ورأينا كيف أن النزعات المكبوتة لا ترضى بهذا الحال ، بل هى تحاول الظهور والتعبير عن نفسها بمختلف الطرق . ولكن الرقيب واقف بالمرصاد يعيدها من حيث أتت ، ويمنع ظهورها خوفا على الذات أن يصيبها مكروه من جراء ذلك .

ولذلك تلجأ النزعات إلى نوع من الحيل يطلق عليها اسم الحيل اللاشعورية تتنكر بواسطتها فتعبر عن نفسها تعبيراً ملتوياً غير مباشر ، يظهرها للأنا بغير حقيقتها ويخدع الرقيب عن أمرها ، والحيل فى مجموعها عبارة عن وسائل للتمويه والتعمية ، بعضها يؤدى بالإنسان إلى تحويل نزعاته الغريزية ، إلى مستوى أعلى يوافق المجتمع ويحوز رضاءه ، وبعضها من قبيل الاضطراب النفسى الذى يجعل الشخص شاذاً بعيداً عن الاتزان وفيما يلى تفاصيل بعض هذه الحيل .

١ — الإبدال[1] :

يقصد به نقل القيمة الوجدانية من فكرة إلى أخرى ، ففكرة الأم مثلا ذات قيمة وجدانية عند الطفل لما يصحب إدراكها من انفعالات مرتبطة بغرائزه . ولكن هذه القيمة الوجدانية يصح أن تنتقل إلى شخص آخر أو فكرة أخرى تحت شروط خاصة ، كأن يكون بينها وبين الأم تشابه فى الصورة أو الوظيفة . وفى اللاشعور خاصة عجيبة هى أنه يتغافل عن أوجه

(١) Displacement

الاختلاف تغافلا تاما ، ويتمسك بأوجه الشبه مهما كانت عارضة ، وتكون للفكرتين نفس القيمة عنده بناء على أى تشابه عارض .

ونقل القيمة الوجدانية من فكرة إلى أخرى يشبه تماما ما نلاحظه فى أنفسنا وغيرنا أحيانا ، فقد يعود الأب متضايقاً من معاملة رئيسه له فى عمله ، فإذا دخل البيت وأحاط به أولاده مرحبين ، نهرهم أو أجاب أسئلتهم بلهجة جافة ، مع عدم وجود سبب مباشر يدعو إلى ذلك .

وكما يلاحظ فى كثير من الآباء الذين تسىء زوجاتهم معاملتهم ، فيسيئون هم بدورهم معاملة الخدم والأولاد — أو الرؤساء الذين يسىء معاملتهم من هم فوقهم فيسيئون معاملة من هم دونهم ، وكذلك الأخوات الذين يسىء معاملتهم الأبوان تسوء معاملة كبيرهم لصغيرهم ، ففى كل هذه الأحوال نجد أن المعاملة التى كان يجب أصلا أن توجه إلى الرئيس أو الكبير وامتنع ذلك لأسباب واضحة ، قد وُجهت إلى هؤلاء الأفراد الآخرين عن طريق الأبدال .

بل إن هناك ما هو أكثر من هذا ، فكثيرا ما تساء معاملة الشخص ويشعر بالغضب الشديد نحو المسىء اليه ، ولكنه لا يستطيع أن يوجه اليه ما لقيه من الاساءة ، فيمسك بما يتفق وجوده من الأشياء أمامه ويلقيه إلى الأرض كما لو كانت هى المتسببة فى غضبه ، وكثيرا ما يختار شيئا سهل الكسر فيدمره تدميرا ، ويجد لذلك فى نفسه راحة كما لو كان قد عاقب المسىء إليه فعلا وكثيرون من الأطفال يجدون فى تدمير عرائسهم وألعابهم بديلا عن الرغبة فى عقاب أبويهم لما يشعرون به من ضغطهم عليهم .

٢ — رد الفعل (١) :

رأينا أن حل الصراع فى حالة الإبدال يكون على حساب القوى الكابتة ، إذ تظل الطاقة المستعملة فى الإبدال هى الطاقة المستمدة من النزعات

---

(١) Over-Compensation or Reaction Formation

المكبوتة . بعبارة أخرى أن الطاقة تسير فى طريق مواز لطريقها الأصلى ، ولكن يحدث أحيانا عكس ذلك فيكون الحل مظهراً للقوى الكابتة .

فالنزعة البدائية عند الطفل نحو حب الظهور قد تُبدَل فيجد لذة فى أن يسمو على أقرانه جسما أوعقلا ، أوأن يبحث عن الشهرة أو البروز فى مختلف النواحى .

أما إذا حُل النزاع عن طريق رد الفعل ، فإن الرغبة فى الظهور تكبت ويحل محلها ميل للخجل والانزواء وإذلال النفس — وكذلك السرور البدائى الذى يجده الأطفال فى اللعب بالأقذار قد يتحول إلى رغبة فى تشكيل المواد على اختلافها كما فى الرسم أو النحت أو الطبخ .. الخ .

أما « رد الفعل » فانه يكبت هذه النزعة ويكوّن بدلا منها نزعة متطرفة ترمى إلى النظافة ، يصحبها خوف شديد من كل أنواع التلوث . فيظهر سلوك الشخص بمظهر مبالغ فيه ضد اتجاه النزعة المكبوتة ، كما نرى فى كثير من العوانس اللائى يتشممن رائحة النزعة الجنسية فى كل كلمة مهما كانت بريئة ، وفى كل فعلة مهما كانت غير مقصودة ، وما ذلك إلا لأن النزعة الجنسية عندهن قد كُبتت ، وحلت محلها نزعة مضادة تنفر نفورا مبالغا فيه من كل مايصح أن يشير إلى الجنس ولو بطريق التخريج البعيد ، وقد استغل كثير من الكتاب والروائيين هذا المظهر فى رواياتهم — أما النزعة المبالغ فيها نحو النظافة وضد التلوث ، فهى أيضاً من المشاهدات العادية ، فالشخص الذى يتشكك فى كل شىء ويعتبره نجسا ، أو سببا محتملا لعدوى ، فيحمل فى جيبه زجاجة الكحول يغسل بها يديه كلما صافح غريباً ، أو لمس شيئا لا يعرف نصيبه من النظافة ، هذا شخص حدث عنده « رد فعل » لنزعة اللعب بالأقذار التى تملكته وهو طفل ، وقد تكون القذارة المادية رمزاً للقذارة الخلقية ، فيجد العقل فى محاربة الأقذار المادية رمزاً لمحاربة النزعات الغريزية « القذرة » ليشفى غليل القوى الكابتة .

ونجد كثيرا من الاشخاص بالغى القسوة ضد كل هفوة اجتماعية أو خلقية، دائمى الشك فى سلوك الآخرين، وما ذلك إلا لأنهم هم أنفسهم يحتوون هذه النزعات فى « لاشعورهم » وقد كونوا حولها سياجا مضادا هو هذه النزعة المبالغ فيها.

٣ — التكثيف (١):

فى هذه الحالة يعبّر سلوك الشخص عن كلتا النزعتين، الكابتة والمكبوتة، فى وقت واحد. ومما يوضح هذا قصة رآها المؤلف بنفسه تتلخص فى أن طفلا كان يصاحب أمه إلى دكان للفاكهة، وقد انصرفت عنه الأم فوقف أمام صندوق للتفاح ومد يده نحو التفاح، ولكن قبل أن يلمسه سحب يده مرة أخرى. ولكن الأمر لم يقف عند هذا، بل استمرت حركة يده جيئة وذهابا كرقاص الساعة، واستمر يكرر هذه اللازمة إلى أن شغل عنها بأمر آخر، وكان يكررها حتى بعد انصراف نظره وذهنه عن التفاح. والمثال واضح فالحركة الأولى تعبر عن النزعة البدائية للحصول على ما يريده بغير نظر للظروف، والحركة المضادة تمثل النزعة المضادة نحو المحافظة على ما اصطلحت عليه البيئة من حق الملكية وحسن السلوك، وكأن كلا من النزعتين قد رضيت عن التعبير الرمزى عنها بهذه الحركات المتبادلة.

وهناك مثال آخر هو قصة كثيراً ما تُقص على سبيل الفكاهة فى أكثر من أمة واحدة، مضمونها أن شخصاً كان يسير فى الطريق متكلما مع زميل له، وقد مر برجل من رجال الشرطة أثناء ذلك، فسمعه الشرطى يقول « دى حكومة مغفلة » ولم يسمع شيئا خلاف ذلك. ولكنه لم يتوان فى القبض على الرجل وتوجيه التهمة إليه باهانة الحكومة القائمة. ولكن الرجل احتج قائلا: أنا لم أقصد هذه الحكومة أبداً بل إنى احترمها، وإنما قصدت حكومة « كذا »

---

(١) Condensation

الأجنبية . ولكن الشرطى لم يصدق ماسمعه منه وقال « لاتظن أنك تخدعنى بمثل هذا فأنا أعرف جيدا ما تقصد إليه ، حينما تقول حكومة مغفلة » . فالشرطى بتصرفه هذا إنما :

(١) يدافع عن الحكومة ويخدمها بقبضه على من يظن أنه أهانها .

(٢) وهو فى الوقت نفسه يهينها ويحقرها لعدم تسليمه بامكان توجيه تهمة التغفيل إلى غيرها . وهو مخلص فى نزوعه وغير شاعر بما فى سلوكه من التناقض .

ثم هناك قصة ذلك الواعظ الدينى الذى كان يؤم المساجد ويعظ الناس وعظا اشتهر أمره وقتا ما ، وكان هذا الواعظ يحض على الفضيلة ، غير أنه لم يكن يحض على الفضيلة بقدر ما كان ينهى عن الرذيلة . ولكن النهى عن الرذيلة يحتاج إلى وصفها ووصف مواطنها ومكائدها ، وما يدعيه الناس فيها من الملذات . وكان كثير من الناشئين يذهبون إلى مواعظه يلتمسون فيها وصفه الشائق للرذيلة ، ويجدون رضاء عن ذلك الوصف ، ويخرجون وهم يتبسمون لأنهم سمعوا عن الرذيلة أكثر بكثير مما سمعوا عن الفضيلة ، وعرفوا عنها ما لم يكونوا يعرفون . والقصة واضحة فيما قصدنا إليه فالدرس الذى يعطيه هذا الواعظ يقصد منه إلى ارضاء رغبته الظاهرة إلى الفضيلة والتقوى ، ولكن نزعته إلى ضدهما تجد طريقها بالرغم منه إلى الظهور فى خلال كلامه ، فتدفعه وهو لا يدرى إلى وصف الرذيلة وصفا شائقا محببا للكثيرين ممن لا تهمهم الفضيلة فى شىء .

ونذكر بهذه المناسبة خاصة مهمة من خواص العقل وهى « تناقض العواطف »(١) وهى تتلخص فى أن العقل قد يشمل عاطفتين متناقضتين فى وقت واحد موجهتين نحو موضوع واحد ، كعاطفتى الحب والكره ، على شرط أن تكون إحداهما شعورية والثانية لاشعورية . بل إن هذا التناقض

---

(١) Ambivalence

موجود دائماً فحيث هناك شعور بالحب والتفانى نحو شخص ما ، فهناك نزعة لا شعورية نحو كراهيته ، بل إن الشعور بالتفانى فى الحب كثيرا ما يكون ستاراً يحجب ما يضمره اللاشعور من كراهية وسوء نية .

وحيث نجد التفانى الشديد فى إظهار الحب والمبالغة فيه نحو أى كان ، فإننا نشتبه فى وجود ضده فى الجانب اللاشعورى من العقل .

وللتحليل النفسى فضل إظهار هذه الناحية التى تفسر أمرين :

الأول — كيف أن كل ما يمر به الطفل من التجارب مع أبوية يترك أثراً فى نفسه فما كان منها سار أدى إلى تكوين المحبة وما كان منها مؤلم أدى إلى تكوين الكراهية ، وبما أن العقل لا يحتمل التناقض الظاهر فى هذه الحالة فإن إحدى العاطفتين تكبت وتصبح لاشعورية .

الثانى — ما يظهر من التناقض فى سلوكنا أحيانا نحو من نحب أو نكره — فنكره شخصا لأنه فاقنا وبلغ مبلغا لم نستطع الوصول اليه ، ونحن إنما نكرهه لأننا نُعجب بما هو فيه ونتمناه لأنفسنا فنحن نحبه فى صورة ما . ونحن إذ نثق بصديق أو بحبيب ثم نجد منه ما لا يحقق الثقة نكرهه أشد الكره ، لأننا نحبه أشد الحب فى الواقع ، وهكذا نجد أن كل صديق لنا هو عدو محتمل ، وكل عدو هو صديق محتمل ، وقد تؤدى هفوة ضئيلة إلى الانقلاب من حال إلى حال آخر . وربما كان فهمنا لهذه الحقائق مساعداً لنا على بناء علاقاتنا الشخصية على أسس أثبت . والواقع أن العلاقات المبنية على الفهم والتواضع فى التقدير أبقى من العلاقات التى تصل فيها العاطفة إلى درجة مبالغ فيها من الشدّة .

٤ — (التبرير)[1] :

نستطيع الآن أن نفهم أن سلوكنا كثيراً ما يكون نتيجة دوافع داخلية لسنا على استعداد لأن نصرح بها حتى فيما بيننا وبين أنفسنا . وأن هذه الدوافع كثيرا ما تقودنا إلى تصرفات متناقضة فنفعل اليوم ما أنكرناه بالأمس ،

(١) Rationalisation

ونأتى غدا بما ننكره اليوم . والحياة العقلية كما قلنا تحتمل هذا التناقض على شرط ألا يكون ظاهرا ، ولذلك فنحن نفسر سلوكنا سواء لأنفسنا أم لغيرنا تفسيرا لانرجعه إلى الدوافع الداخلية ، بل نُضفى عليه ثوبا من المنطق المعقول ، كما لو كان هذا السلوك مبنيا على الحكمة والتفكير والتدبير . فنفسر التناقض بين أفعالنا تفسيرا يغطى هذا التناقض ويرجعه الى أسباب تتعلق بتغير فى الظروف . وهذا وأمثاله هو مانسميه بالتبرير فالإنسان يبرر استمساكه بالتدخين بأنه يهدىء الأعصاب مثلا ، مع العلم بأن معرفته بأنه مهدىء للأعصاب لم تتأت إلا بعد أن تعود التدخين ، ويبرر كراهيته لشخص بما وجده فيه من حطة ودناءة قد تكون وهمية ، وقد تكون الكراهية مبنية على وقوف هذا الشخص فى طريق رغباته أو نزعاته ، ونبرر آراءنا السياسية والاجتماعية تبريرا منطقيا ، بينما نكون قد اعتنقنا هذه الآراء لأسباب تتعلق برغباتنا الشخصية فى بعض الأحيان . وهذا يدلنا على أن حياتنا ليست مبنية على المنطق بقدر ما هى مبنية على هذه الأهواء التى تدفعنا اليها الدوافع الداخلية ، والتى لانريد الاعتراف بها ، وخصوصا فيما بيننا وبين أنفسنا . ولن يتمكن الفرد أن يستخدم المنطق لأى درجة معقولة ، الا عن طريق فهم دوافعه ونزعاته على هذا الأساس . وأمثلة التبرير كثيرة لاداعى لذكرها لأننا نراها أمامنا فى كل آن .

٥ — (الإلصاق)[1] :

نجد أحيانا شخصا كثير التشكك فى أمانة الناس دائم التفكير فى حماية نفسه وحماية المجتمع من شرورهم ، لا يثق بمخلوق ولا يستطيع أن يأمن الى أحد ، وهو فى محاولة دائمة لنصب الشباك لهم ومحاسبتهم على مايقترفون بالفعل أو بالنية .

والواقع أن مثل هذا الشخص يُخضِع تحت هذا المظهر الشعورى

---

(١) Projection : أو الاسقاط كما سماه بعض الزملاء

نزعة لاشعورية هى نفس النزعة التى يفتش عنها بين الآخرين بالمنظار المكبر. وبعبارة أخرى فإنه يلصق ما به من صفات لا شعورية بغيره ، ثم يأخذ على عاتقه محاربة هذه الصفات والتنكيل بها فى الغير. ونلاحظ أن الصراع يصير خارجيا بدل أن يكون داخليا ، فبدل أن يكون صراعا بين الشخص وبين نزعته إلى عدم الأمانة ، يصير صراعا بينه وبين هذه النزعة الموهومة عند سائر الناس. ومعظم الأشخاص الكثيرى الشك فى غيرهم بدرجة غير عادية من هذا الطراز الذى يصل العقل فيه الى تخفيف الضغط الداخلى من طريق الإلصاق. وكلنا يعرف أن الرجل الذى تطرّف فى التمتع بحياته فى الشباب ، يصبح زوجا غيوراً غيرة زائدة عن الحد ، ويتطرف فى الشك فى كل حركة أو لفظة.

٦ — (الامتصاص) (١) :

ذكرنا كيف أن املاء العالم الخارجى ينتقل إلى الذات ويصبح داخليا ، وهو ما ينشأ عنه الصراع ثم الكبت ، وهذا الانتقال للنزعة من الخارج إلى الداخل يطلق عليه إسم الامتصاص.

والطفل يمتص عن أبويه ، ثم عن غيرهم من الأشخاص الذين يحلون محلهم.

والمبادىء الخلقية والاجتماعية تدخل العقل عن طريق الامتصاص ، كما أن الأنا العليا تتكون عن هذا الطريق.

والتقليد والمشاركة الوجدانية والاستهواء عبارة عن نتائج للامتصاص والامتصاص نتيجة للحيلة التالية وهى « الاندماج ».

٧ — (الاندماج)(٢) :

عندما نقول اندمج الممثل فى دوره ، نقصد أنه قد نسى شخصيته الأصلية ،

---

(١) Introjection

(٢) Identification

وأصبح يتكلم بلسان الدور الذى يمثله . ويحدث فى الحياة العقلية مثل ذلك تماما . فالطفل حينما يمتص صفات الأبوين إنما يندمج فيهما عن طريق نشوء الأنا العليا ، ويصبح كما لو كان يقوم فعلا بما يقوم به الأبوين من الرقابة والتوجيه والنقد . ويحدث الاندماج بعد ذلك بالنسبة لأفراد يقومون مقام الأبوين كالمدرسين والرؤساء والزعماء ومن إليهم ويحدث الامتصاص نتيجة للاندماج .

٨ — (الإعلاء)[١] :

الإعلاء نوع خاص من الإبدال رأينا أن نفرد له بندا خاصا لأهميته ، ويتميز بأن هدفه ذو قيمة اجتماعية وثقافية خاصة ، إذ تتجرد الطاقة الغريزية فيه من طبيعتها الجنسية[٢] ، وتتجه نحو غايات وأغراض عليا ، لا يوافق عليها المجتمع فحسب ، بل يحمدها وينظر إليها نظرة إعجاب واحترام . ونتيجة ذلك أن يصبح الشخص « مغرما » بالأدب ، أو الفن ، أو الموسيقى ، أو غير ذلك من نواحى الإعلاء . والإعلاء تعبير عن النزعات الغريزية فى مستوى أعلى من مستواها « الفطرى » . ويبدأ الإعلاء من الوقت الذى يجد الطفل فيه أن هناك سبيلا رفيعاً محمودا يوافق عليه المجتمع ، ويستطيع هو أن يوجه إليه الطاقة الغريزية المكظومة ، فيجد فى ذلك نوعا جديدا من الإشباع لا عهد له به من قبل ، إشباع ناتج عن تحقق غرضين : (الأول) التعبير الرمزى عن الغريزة بطريقة منتجة و (الثانى) الحصول على رضاء المجتمع ومحمدته .

والاتجاه إلى الإعلاء يحدث تدريجا ، ويتوقف على ما يصادف الطفل من نواحى النشاط والعمل التى يجد فيها السبيل لتحقيق غريزته ، كما يتوقف على قدر من الكبت[٣] يغرى الغريزة باختيار هذا المجرى البديل ، ولكنه يتوقف

---

(١) Sublimation

(٢) Becomes De-sexualized

(٣) Flugel : Psychoanalysis

أيضا على شيء من الرفق فى المعاملة ، والتوجيه الودى من المحيطين بالطفل ، لأن الإعلاء ظاهرة اجتماعية فى وسائلها وفى نتائجها .

وأهمية الإعلاء بالنسبة للجنس البشرى فى مجموعه أهمية كبيرة جدا ، فلو لم يكن للغريزة هذه القدرة على الارتفاع من مستواها الحسى ، لبقى الإنسان قريباً من مستوى الحيوان ، وإنما أمكن له أن يرفع مستواه الثقافى والاجتماعى والأخلاقى . . الخ ، لأن غريزته قابلة لهذا النوع من التحول . وتحول الغريزة فى حالة الإعلاء تحول يمتاز بالسلاسة والسهولة ، وتقل فيه أو تنعدم تماما ، مظاهر الحرمان والصراع ، التى تعلق بأنواع الإبدال الأخرى ، فكأن الغريزة تجد فى المجرى الذى حدث فيه الإعلاء ، بديلا كافياً عن مجراها الأصلى . ولو صحت نظريات التحليل النفسى فإن التقدم والحضارة الإنسانية ما كانا فى الإمكان لولا هذه القدرة على الإعلاء ؛ فقد ظلت النزعات الفطرية البدائية للإنسان الأول تتطور ببطء خلال الأجيال حتى تمخضت عن نواحى النشاط المعقدة الراقية التى نلمسها فى الجماعات المتمدينة الراقية .

ويتميز الإعلاء عن سائر أنواع الإبدال بميزات أخرى — فأنواع الإبدال الأخرى مَرَضية(١) فى طبيعتها إذ تظهر على شكل « أعراض »(٢) فى المرض العصبى . أى أن الطاقة الغريزية الأصلية تحيد عن طريقها الأصلى وتتجه إلى إحداث هذه الأعراض ، وذلك يشبه تماما ما يحدث فى حالة الاعلاء مع فرق هو أن الإعلاء يتضمن قيما خلقية وثقافية واجتماعية — ويمكن أن يقال إنّ هذا الفرق خلقى واجتماعى وليس نفسياً . فهل هناك فرق نفسى بين الإعلاء وسائر أنواع الإبدال ؟ الواقع أن هناك فرقا أساسياً بين النوعين : فالأعراض العصبية تبدو عليها آثار الصراع واضحة ، فكل عرض عصبى هو حل وسط « حل ناقص »(٣) للصراع ، وهو ككل حل ناقص لا يؤدى إلى اشباع أى من فريق

---

(١) Pathological (٢) Symptoms

(٣) Compromise

الصراع ، فيبقى مظهر الحرمان ، ويبدو الحل الناقص مصطبغا بهذا المظهر ؛ ومظهر الحرمان وما يصحبه من قلق من مميزات الأعراض العصبية . فالقوى الكابتة والنزعات المكبوتة تظل فى حالة غليان دائم لأن الحل « الأعراض العصبية » لا يشبع أيا منهما إشباعا كافياً .

فالأعراض تعبر عن الرغبات المكبوتة تعبيرا رمزيا أو وهميا ، ولكنه غير منتج من الوجهة الواقعية ، وذلك كما فى أنواع الهستريا سواء منها ما كانت أعراضه عقلية صرفة كالقلق العصبى أو جثمانية أو حسية كما فى أنواع الهستريا « التحولية »(١) أما فى حالات « الحصار »(٢) فان الأعراض تعبر عن القوى الكابتة .

ومن قبيل النوع الأول من الأعراض : الشاب الخجول المنزوى ، الذى يغلب عليه كبت النزعات ، فإننا كثيرا ما نجده فى معاملاته خشنا جافا مع الآخرين ، وفى هذا الجفاف والخشونة تنفيس أو تعبير عن الناحية المكبوتة فيه وتعويض عن الخجل والانزواء المتمكنين منه .

ومن قبيل النوع الثانى من الأعراض : الفتاة العانس التى تزيد إمعانا فى تعذيب نزعاتها الجنسية المحرومة ، فتحرِّم على نفسها الفكرة واللفتة والحركة التى قد يشتم منها ولو من بعيد رائحة الجنس ، وتتصرف كما لو كانت تشك فى نوايا نفسها ، ونوايا غيرها وبذلك تكون القوى الكابتة عندها هى التى تتحكم فى تصرفاتها .

كل هذه المظاهر للصراع والكبت نجدها فى الأعراض المرضية ولكننا لا نكاد نجدها فى الإعلاء .

فالسلوك فى حالة الإعلاء يمتاز بسلاسة وانسجام لانجدهما أبدا فى حالة الإبدال المرضى ، فكأن الإعلاء يحوِّل الطاقة العصبية إلى مجار أكثر استقرارا ، ليس بها من عوامل الاحتكاك أو عوائق السير إلا أقلها .

---

(١) Conversion Hysteria (٢) Obsessional neurosis

وكأن المجرى الذى حدث الإبدال فيه كما قلنا « بديل كاف » للمجرى الغريزى الأصلى — بمعنى أنه يؤدى إلى إشباع حقيقى — ولا شك أنه إشباع من نوع آخر ، ولكن تبقى له صفة الكفاية كالإشباع المباشر الأصلى .

ولا شك أن الأفراد حينما يتابعون لذاتهم البديلة (الأدب — الفن — الموسيقى — . . الخ) كثيراً ما يتابعونها بشغف يذكّرنا بما يشعر به المستمتع بلذة جسدية مباشرة .

فالطاقة الجنسية (أو القوة الدافعة الجنسية) تتجرد فى الإعلاء كما قلنا من مميزاتها الجنسية ، وتحيد متجهة نحو غاية لا جنسية ، ولكنه يندر أن يحدث حيود فى الطاقة الغريزية بصورتها النهائية بعد تمام نضجها ، أى فى سن البلوغ وإنما يكون الحيود فى مكونات الغريزة(١) كما سنشرحها فيما بعد(٢) .

ويتضح مما تقدم أن الهدف السوىّ الذى يرمى إليه النمو العقلى فى نظر أصحاب التحليل النفسى هو الإعلاء . وهو هدف يتضمن الصحة العقلية للفرد والتقدم الثقافى والاجتماعى للمجتمع . ولكن يتضح علاوة على ذلك أن حدوث الإعلاء ليس أمرا هينا ، وأنه يحدث بخطوات بطيئة ومتدرجة ويحتاج إلى الصبر الطويل ، أما التسرع فى الحصول على النتائج سواء من جانب الفرد أو المجتمع فهو المسئول الأساسى عن كثير من أنواع الأمراض العصبية . ولكى نحصل على أكبر قدر ممكن من الإعلاء نجد من الضرورى أن نأخذ أنفسنا بالهوادة لا بالقهر ، وأن نحتمل من مطالب الغرائز البدائية فى الأطفال أكثر مما نحتمل فى الوقت الحاضر ، حتى نسهل لنفوسهم أن تسير فى طريق السلاسة والنمو المنسجم الذى يؤدى إلى الإعلاء .

والإعلاء عملية لا شعورية ولذلك فهى ليست تحت رقابتنا المباشرة ، وليس فى قدرتنا أن نسيّرها كما نسير الآلة ، وكل ما نستطيعه هو أن نهيء الوسائل التى تأخذ بيدها ، على ألا ننسى أن العملية عملية تطورية تدريجية . وموضوع الإعلاء أحد الدروس القيمة التى يستفيدها من التحليل النفسى كل من المربى والمصلح الاجتماعى .

---

(١) Components (٢) أنظر الباب الحادى عشر

الباب الحادى عشر

تطور الحياة النفسية

مكوّنات الغريزة الجنسية :

ذكرنا فيما سبق معنى الغريزة الجنسية بوجه الإجمال ، وذكرنا أن هذه الغريزة تأخذ صوراً مختلفة وتنتقل من صورة إلى أخرى عند الطفل ، حتى تصل إلى صورتها النهائية الناضجة عند البلوغ ، والآن نأتى إلى تفصيل هذا الإجمال .

فالغريزة الجنسية اسم أطلق على مجموعة من النزعات البدائية ، التى تصل إلى الأشباع بطريقة حسية ، أو بعبارة أخرى مجموعة من النزعات التى ترمى إلى اللذة الحسية بمختلف أنواعها .

وهذه النزعات لا تنشأ فى وقت واحد ، وإنما تتوالى بكيفية خاصة ، كما أن الهدف الذى ترمى إليه يناله من التطور والتحويل مثل ما ينالها هى ، حتى تصل إلى الهدف النهائى للغريزة وهو التناسل .

وتسمَّى هذه النزعات « مكوّنات الغريزة الجنسية » تمييزا لها عن الغريزة المتكاملة كما تظهر فى دور المراهقة .

وهذه المكونات تتناول أجزاء مختلفة من الجسم ؛ بمعنى أن هناك مناطق من الجسم تتميز بحساسية كبيرة ، وتكون مصادر للذة (أو الألم) ، اذ تكون هذه المناطق محملة بقدر كبير من الطاقة الغريزية ، وعلى ذلك تكون حساسيتها عبارة عن العلامة الشعورية لتركّز الغريزة الجنسية فيها ، والمنطقة من الجسد التى تتميز بالحساسية فى أى طور من أطوار الغريزة ، تفقد شيئاً من هذه الحساسية عندما يحل الطور الثانى وينتقل مركز الحساسية الجنسية إلى المنطقة

التالية . قلنا إنها تفقد شيئاً من طاقتها ولم نقل أنها تفقد كل هذه الطاقة ، لأن قدراً معيناً منها يبقى لاصقاً بها ، وهذا القدر قد يستخدم فيما بعد فى التمهيد لعملية التناسل نفسها ، وسنرى فيما يلى ما يوضح ذلك . والقدر الذى يُفقد من الطاقة لا ينتقل كله إلى المنطقة التالية ، وإنما يُستنفد جزء منه فى إعلاء هذا المكون من مكونات الغريزة فيتحول هذا الجزء كما عرفنا فى الإعلاء إلى غرض لاجنسى يرمى لا إلى لذة حسية ، بل إلى لذة «معنوية» .

والخلاصة إن الطاقة التى تتركز فى أى دور من أدوار الغريزة مآلها أن تتفرع إلى فروع ثلاث : (الأول) يتجه عن طريق الإعلاء إلى هدف لاجنسى ، و (الثانى) يتحول إلى الدور الثانى من أدوار الغريزة ويؤول فى النهاية إلى الغريزة بصورتها المكتملة فى دور البلوغ ، و (الثالث) يبقى على حاله ليعطى هذه المنطقة أهمية ثانوية دائمة بالنسبة لوظيفة النسل نفسها ، إذ تمهّد لها تمهيداً وظيفياً كما سبق أن مهد لها تمهيدا تطوريا .

وعلى ذلك فهذه المكونات هى عوامل النضوج الجنسى ، كما أنها عوامل النضوج الاجتماعى والثقافى .

مناطق الغريزة الجنسية :

يمكن أن نقول بصفة عامة أن المظهر البدائى للغريزة الجنسية هو عبارة عن حساسية خاصة ممتازة ترمى إلى التهيج وتلتمس اللذة عن طريقه بوسائل حسيه أو ميكانيكية صرفة ، ويكون مصدر الحساسية واللذة عند الطفل فى المبدأ فى حالة عامة غامضة ، غير محددة لا فى طبيعتها ولا فى مواضع الجسم التى تتأثر بها ، فيكون سطح الجلد بأكمله حساساً . ويتلو هذه الحساسية العامة دور تتركز أثناءه الحساسية فى مناطق معينة بالتدريج كما علمنا ، ولكن تبقى للحساسية الجلدية العامة أهميتها ولها علاقتها المباشرة بالعملية الجنسية كما هو معلوم ومناطق التركيز هى بوجه عام مخارج الجسم وأعضاء الحس .

وأول هذه المراكز الفم ، اذ تتركز فيه منطقة حساسة تدفع الطفل إلى التماس التلذذ بهذا العضو ويرجع ذلك إلى استعماله فى الرضاعه ، وإلى تركز الإشباع والحرمان حوله فى بدء الحياة ، وعلى ذلك يصبح هو «الجبهة» التى تناضل فيها الغريزة ، فتنال الإشباع أحيانا والحرمان أحيانا أخرى ، وبذلك يصبح أداة للذة ووسيلة للاعتداء — وهذه « المرحلة الفمية » (١) من أهم مراحل الغريزة لأن ما يتركز فى الفم من الطاقة ينحدر جزء منه إلى المكون الثانى للغريزة بينما يبقى جزء من الحساسية بقاء دائماً ، يخدم الغريزة كما قلنا ، ويتمثل ذلك فى أهمية التقبيل من الناحية الجنسية الصرفة . أما سائر الطاقة الغريزية فينصرف إلى استخدام الفم فى أغراض اجتماعية وثقافية فيصبح أداة التفاهم والتحاب والسمو إلى غير ذلك من النواحى التى تعتبر من قبيل الإعلاء — وهو مايزال يستخدم سلاحا للاعتداء والدفاع كما استخدم من قبل ، غير أن الاعتداء يتحول من اعتداء مادى صرف — بالعضّ والقضم — إلى اعتداء معنوى بالقول والسباب والهجاء ، ويبقى نصيب محتوم من الطاقة للعض والهش .

وكما أن الفم من أوائل المناطق التى تتمركز فيها حساسية خاصة فكذلك الشرج (٢) لما يجده الطفل من الراحة عند التبرز ، ولما يرتبط بهذه العملية من الألم ، سواء أكان ألما داخليا منشؤه عدم انتظام وظائف الأمعاء ، أم خارجيا منشؤه ما يطالب به الطفل من انتظام العادة ، وما يناله من عقوبة أو تأنيب نتيجة لاستخدام هذه الوظيفة استخداما طبيعيا بالنسبة اليه ، ولكنه مستنكر من البيئة .

وعلى ذلك فهذه الوظيفة ينالها شىء كثير من المقاومة والقمع والكبت ، وهى تستخدم أداة للاحتجاج والانتقام ، وتصبح أساس كثير من أنواع الإعلاء ، وتتحول الطاقة بعد ذلك إلى الجهاز البولى (٣) باعتباره مخرجا من مخارج الجسم .

---

(١) Oral Phase (٢) Anal Phase (٣) Urethral Phase

ومن المناطق التى تتركز فيها الغريزة مركز الاحساس البصرى أو العين ، فالتلذذ عن طريق البصر برؤية الألوان والأشكال يظهر فى الأطفال بشكل واضح . وينتهى الأمر بتركز الحساسية فى أعضاء التناسل (١) بعد أن تكون قد تركت أثراً واضحاً فى كل منطقة أخرى مرت بها ، فتصبح الحساسية الجنسية الرئيسية مركزة فيها ، بينما تبقى المناطق الأخرى محملة بشىء من الحساسية يختلف باختلاف ظروف التطور الذى مر بها .

التثبيت (٢) :

ولهذا الاختلاف قصة يحسن بنا أن نوردها هنا . فالغريزة عند ما تتركز فى منطقة من المناطق إنما تمهد للمنطقة التالية ، ولكن يحدث أحيانا أن يكون الانتقال ناقصا مبتورا وأن يبقى قدر كبير من الطاقة متعلقا بالطور البائد لا يتركه ، ويطلق على مثل هذه الحالة اسم «التثبيت» وينتج عنه أن يبقى من الحالة البدائية نصيب أكبر من الطبيعى ، ويبقى السلوك البدائى عالقاً بالشخصية ، ومن ذلك مانراه فى حالات الشذوذ الجنسى على اختلافها .

تطور أهداف الغريزة :

ويصحب هذا التطور فى مناطق الحساسية الجنسية ، تطور أهداف الغريزة ، فالغريزة فى مبدأ الأمر لا ترمى إلى هدف ما غير مجرد اللذة الموضعية فلا يكون هناك اتجاه نحو شخص أو شىء معين .

أى أن اللذة تكون غير مرتبطة بالذات فى مجموعها بل بالعضو فى ذاته ، فلذة الفم عند الطفل الرضيع فى مبدأ حياته متعلقة بالفم ذاته ، وليست لذة للشخص فى مجموعه كما هو الحال عند الكبار .

---

(١) Genital Phase

(٢) Fixation

وتتطور هذه اللذة الموضعية إلى حالة تتعلق بالشخص أو بالذات ، فيصبح الشخص نفسه موضعاً للحب ، وينشأ ما يسمى عشق الذات ، أو كما يسميها فرويد « النرجسية » (١) نسبة إلى نرجس « نارسيس » فى الأسطورة اليونانية وهو شاب جميل الصورة كان يفكر فى الزواج وأرادت أخته أن تصرفه عن الزواج ، فذكرت له أنها ستريه فتاة تفوق فتاته فى الجمال ، وذهبت به إلى بئر وطلبت منه أن ينظر فيها فرأى صورته فى صفحة الماء . وما كاد يرى هذه الصورة حتى هام بحبها ، وانصرف عن فتاته ، وأصبح لا يسلو التردد على بئره ليرى فتاته الموهومة ، التى هى فى الواقع صورة وجهه .

وتمر مرحلة النرجسية وتتلوها مرحلة يتعلق فيها الحب بأشخاص خارجين يكونون أولا من جنسه ثم من الجنس المقابل . فتعلق البنت بالبنت والولد بالولد يسبقان تعلق البنت بالولد والولد بالبنت ، ويشاهد ذلك فى الطفولة المبكرة كما يشاهد فى بدء المراهقة .

ونلخص هذه الأطوار فيما يلى :

أولا — الحب غير الموجه (٢) .

ثانيا — الحب الموجه .

(ا) نحو الذات (٣) .

(ب) نحو أشخاص آخرين (٤) .

(١) من نفس الجنس (٥) .

(٢) من الجنس الآخر (٦) .

وكل دور من هذه الأدوار يعتبر تمهيدا للدور الذى يليـــه ، كما حدث

---

(١) Narcissism (٢) Auto-Erotic (٣) Narcissistic (٤) Allo-Erotic
(٥) Homosexual (٦) Heterosexual

بالنسبة لمكونات الغريزة ، وكل دور يحدث فيه الإعلاء والتثبيت بنفس الكيفية التى سبق أن تكلمنا عنها .

ويقتضى تطور الحياة النفسية ، أن تُنسَّق هذه المكونات ، وتنظم تحت قيادة غريزة التناسل الحقيقية «فى البلوغ» فتمهد لها كما قلنا من الوجهة التطورية ، أى أنها تهيء الحدث لحياته الجنسية الناضجة ؛ ولكنها تبقى حتى بعد البلوغ لتخدم عملية التناسل الحقة . فإذا حللنا هذه العملية الأخيرة فإننا نجد أن الدور الذى تقوم به العين والفم والاحساس الجلدى العام ، دور له علاقة مباشرة بالتهيج الجنسى ، ولزيادة الإيضاح نذكر بعض الأمثلة .

فالرؤية — موجبة (١) أو سالبة (٢) — لها أهميتها فى التمهيد الجنسى ، بل إنها أمر أساسى ، لأن الأليف فى الأحوال العادية يعرف أليفه بالنظر ، ويغلب أن يكون الاختيار مبيناً عليه ، سواء فى الإنسان أو الحيوان . كما أن الرغبة فى اجتذاب الجنس الآخر تَستغلّ هذه النزعة ، فيبدو كل جنس فى الزينة التى تجتذب الجنس الآخر ؛ وتسهل له غزوه ، وتمهد السبيل إلى تكوين النسل .

أما الفم فلا سبيل إلى المبالغة فى علاقته المباشرة بالغريزة ، وقد كانت القبلة دائما ذات معنى جنسى واضح ، وهى وثيقة الصلة بالاتصال الجنسى . ولا شك فى أن القبلة من الوظائف التى تستوقف النظر لكثرة ماتؤديه من المعانى فهى بالنسبة للأطفال متعة فى ذاتها ، ولذة كاملة مستقلة ، أما فى البالغين فهى تمهيد وخدمة لما هو معلوم من الاتصال الجنسى ، ولكنها تبقى فى الكبار لتخدم أغراضا أخرى كالحنان والصداقة . . . الخ ، مما يبين أنها تستبقى قدرتها على الاستقلال وعلى أن تكون غرضاً لذاتها .

وهذه النزعة لأن يستبقى المرء مكونات الطفولة بعد انتهاء وظيفتها التمهيدية

---

(١) Skoptophillic (٢) Exhibitionistic

الحيوية هى ما سميناه (بالتثبيت) والتثبيت شائع فى جميع مكونات الغريزة ومن الطبيعى أن يحدث قدر معين من التثبيت فى جميع المكونات — ولكن إذا زاد التثبيت عن هذا الحد خرج الشخص عن كونه طبيعيا وأصبح التثبيت عرضاً من أعراض المرض النفسى .

والمرور من إحدى المراحل إلى المرحلة التى تليها يقتضى أن يحدث الإعلاء بالنسبة للمرحلة المنقضية ، فتتحول طاقتها إلى مجرى يجعل منها أداة للتقدم الخلقى والاجتماعى للفرد ، أى أنها تنحرف عن الهدف الجنسى إلى أهداف غير جنسية بينما تخلى الطريق للمرحلة التالية ، ويتكرر ذلك من مرحلة إلى أخرى .

وهذا هو المقصود من إعلاء الغريزة الجنسية ، فالإعلاء كما قلنا من قبل يندر أن يحدث بالنسبة للغريزة فى صورتها الأصلية الناضجة ، وإنما يحدث أغلبه بالنسبة لمكونات الغريزة وهى فى طريقها لإعطاء الغريزة صورتها النهائية .

وما يحدث بالنسبة لهذه المكونات من التجمع نحو المركز وهو « التناسل » ، سواء من وجهة التطور أو من وجهة التمهيد الوقتى هو ما يسمى بتكامل الغريزة أى بتساند مكوناتها لكى تكون كلا واحدا ، أو صورة كاملة ، تتجه خطوطها نحو مركز واحد هو استمرار الجنس .

ومنه نشتق معنى آخر وهو أن الطفل من يوم ولادته إنما يمهد لهذه الخطوة النهائية لكى يؤدى وظيفته الحيوية لاستمرار نوعه ، فيمر فى « خبرات » جنسية متعددة الأشكال والنواحى ، متدرجة من الإحساس الغامض الذى لا يكاد يرمى إلى غرض ما ، إلى الشبق الجنسى المركّز الذى يرمى إلى غرض محدد .

والغريزة فى الحالتين تدفعه إلى التماس الإشباع دفعا شديدا .

ولكن الطاقة الغريزية أكثر مما يحتاجه لأداء هذه الوظيفة ، وعلى ذلك فيتبقى عنده رصيد كبير يستخدمه فى إعلاء نزعاته ، وتوجيهها نحو الرقى له وللمجتمع الذى يعيش فيه .

فتتحول نزعته نحو العبث بجسمه وأعضائه، إلى النزعة نحو التشكيل والبناء واستخدام اليدين والأدوات فى الوصول إلى أغراض يحددها فكره الخاص أو الفكر الإنسانى العام، وعن هذا الطريق ينشأ الميل عند الفنان، والبناء، والمهندس، والعامل، والزارع، إلى آخر ما يجد الإنسان من الفرص للتعبير عن هذه النزعة البدائية فى صورة راقية من وجهة النظر الخلقية والاجتماعية.

وكذلك تتحول النزعة نحو التلويث إلى نزعة نحو الإنتاج والخلق والإبداع، والنزعة نحو «الإمساك» إلى الإقتصاد والجمع والإدخار، وينشأ الخلق مصطبغا بصبغة الكرم والعطاء، أو بصبغة البخل والامساك، (لاحظ الاستعمال اللفظى فى اللغة) والإعلاء كما يتناول النزعات البدائية يتناول النزعات المضادة «الكابتة»، فنحصل على صفات مثل، حب النظافة، والنظام، والدقة، والمواظبة، والطهر، والإرادة، والعزم، إلى غير ذلك.

ولنعد إلى تطور الهدف الذى ترمى إليه الغرائز، فهى فى أول الأمر كما قلنا غير موجهة، فكل غريزة تبحث عن إشباع ذاتى، فلذات الطفل غالبها من هذا النوع ولكن تبقى فى حياتنا آثار واضحة لنزعة الإشباع الذاتى.

فالتدخين والغرام بطعم الحلوى، وما إليها من المهيجات الموضعية للفم، كالمخللات والأفاوية، كلها ترمى جزئيا إلى إشباع موضعى، ومن قبيل ذلك أيضا الاستمناء، وحك الجلد، فهى كلها لذات تغلب عليها صفة الموضعية.

وفى الدور الثانى وهو دور عشق الذات أو «النرجسية» تتجه غرائز الطفل إلى موضوع محدد، ولكن الموضوع فى هذة الحالة هو الطفل ذاته، فهو معنى بنفسه، مشغول بجسمه ومظهره، وعقله، فليس بينه وبين غيره من الناس ذلك الاتصال النفسى السليم، فهو لا يهتم بغيره اهتماما كافيا لأن طاقته العقلية موجهة إلى داخله، فهو يعرض نفسه ويتلذذ من هذا العرض، ويعجب

بما يقول وما يفعل ، وتبدو فيه « الأنانية » والعزوف عن « الروح الاجتماعية » بشكل واضح . ولا شك أن خروج الطفل من هذا الدور لا يعنى انعدام اهتمامه بنفسه ، بل بالعكس ، يبقى قدر من هذا الاتجاه عند الكبار ، ومن الطبيعى أن يتبقى قدر معقول منه — ولكن من غير الطبيعى أن يبقى لاصقا بالبالغ قدر كبير مما كان عنده وهو طفل ، كأن يكون الشخص شديد الاهتمام بنفسه ، قليل الاهتمام بالناس وبالعالم الخارجى مشغولا بجسمه ، وفى الحالات الشديدة الشذوذ يكون شديد الانشغال بما يدور فى نفسه ، حتى إنه يصعب عليه أن يتتبع ما يدور حوله ، ولا تتكون بينه وبين محيطه تلك الصلة العقلية السليمة ، فإذا تطرف الشخص فى ذلك تطرفا كبيرا ، أدى ذلك به إلى نوع أو آخر من المرض العقلى أو الجنون ، وكل أنواع الجنون تتضمن قدرا من الانشغال بالنفس ، والانسحاب من العالم الخارجى ، ويكفى لكى نقدر ذلك ، أن نزور أحدى مستشفيات الأمراض العقلية ، فإن أول ما يجابهنا فيها أن نرى المرضى الذين يعيشون معاً لا يكوّنون جماعة بالمعنى المألوف لنا ، بل هم أفراد متنافرون ، كل منهم يتحرك ويعيش فى عالم عقلى مستقل ، ولا اتصالات بين اثنين أو أكثر بل انفصال يكاد يكون تاما . كل منهم يتحرك فى محيطه الخاص ، ويخلق لنفسه جوّا من الخيال منفصلا عن الجو الواقعى ، ويحقق آماله عن طريق الوهم فى هذا الجو ، بدل أن يكلف نفسه مشقة تحقيقها فى عالم الحقيقة .

ولا شك فى أننا جميعاً ننحدر انحداراً وقتيا إلى هذا الانسحاب والانطواء على النفس ، وخصوصا فى حالة أحلام اليقظة والاستسلام إلى الخيال .

وليس معنى هذا أن الخيال بالضرورة من علامات الاضطراب العقلى ، فإن قدراً معقولا منه لا بأس به ، بل هو مفيد من بعض الوجوة ، فهو يمثل صمام الأمن فى حياتنا العقلية ، تنفس بواسطته عن الرغبات والنزعات المكبوتة التى لا تجد طريقها إلى التحقق فى عالم الواقع ، ثم إنه يعتبر فى بعض الأحيان

تمهيدا للوصول إلى الأغراض الحيوية ، إذ أن الخيال كثيراً ما يكون نوعا من التفكير والتجربة العقلية فى سبيل الوصول إلى غرض فعلى، وكثيراً ما تدفعنا اللذة المشتقة من الخيال إلى بذل الجهد لالتماسها عن طريق الواقع . وإنما يصبح الخيال ضارا وغير طبيعى ، إذا انغمس فيه الشخص ، وإذا كان انغماس الشخص فيه بحيث يفقده الاتصال بعالم الواقع ، والحكم فى ذلك هو السهولة التى يستطيع بها الشخص أن يعود إلى عالم الواقع ، فما دام الأمر لم يخرج زمامه من الشعور فلا بأس به ، أما إذا خرج الزمام ، فإنه يبدأ فى أن يكون عرضا مرَضيا يحتاج إلى العناية بأمره . ولا شك فى أن من الطبيعى أن يكون عند الأطفال قدر معين من عشق الذات كما أن المجتمع يحتمل من النساء مالا يحتمله من الرجال فى هذا الصدد .

ولمرحلة النرجسية أدوار متعددة يتعلق عشق الفرد فيها بنواح مختلفة من ذاته ؛ فى الدور الأول من أدوار النرجسية ، يكون عشق الشخص لنفسه كما هى، ويبقى أثر ذلك لدرجة معينة طول حياته ، والدور الذى يلى هذا هو عشق الشخص لنفسه كما يحب لها أن تكون ، وذلك بدء تكوين المثل العليا فى حياة الشخص ، وبدء تكون «الأنا العليا» التى ذكرنا مالها من الأثر الخلق فى حياة الفرد . وهذا التطور ضربٌ من الإعلاء لنزعة عشق الذات ، وهو من أهم منابع الخلق فى حياة الفرد والجماعة .

وعندما تنقضى مرحلة النرجسية تبدأ المرحلة التالية فى حياة الطفل وهى مرحلة العشق الخارجى ، فيتجه الحب فيه إلى موضوع خارجى سواء أكان شيئا أم شخصا ، ويختار الإنسان ما يحبه فى هذه الحالة عن طريق الاشتقاق من نزعاته الأولى ، وعلى ذلك فهناك طائفتان من الأشياء التى تكون موضع الحب .

الأولى : مشتقة اشتقاقا مباشرا من عشق الذات (النرجسية) .

والثانية : مشتقة منها اشتقاقا غير مباشر إذ أنها ترمى إلى حب الأشخاص الذين يحيبون الرغبات (الأب والأم) .

فنى الأولى يحب الشخص أشياء تكون شبيهة :

(١) بذاته كما هى .

(٢) « « كانت .

(٣) بما هو جزء من ذاته .

(٤) بذاته كما يُحبُّ أن تكون .

وأما فى الثانية فيكون ما يُحبّ شبيها :

(٥) بالأم التى تغذى .

(٦) بالأب الذى يحمى .

فى الحالات الأربع الأولى يكون تحوّل الطاقة الغريزية عن طريق النزعة النرجسية أما فى الحالتين الأخريين فهو عن طريق النزعات البدائية التى تهدف إشباع الحاجات الحيوية عن طريق الغير (الأب والأم) .

فى الأولى ، يختار الإنسان لمحبته شخصا يشبهه وذلك أبسط أنواع الإبدال.

وفى المشاهدات العادية نجد كثيراً ممن يحبون مشابهيهم . والمشابهة قد تكون مادية أو « معنوية » كالمشابهة فى الملامح أو اللون أو القامة ، أو فى الذكاء أو الخلق ، او المركز الاجتماعى(١) . ومن نواحى الشذوذ فى هذا النوع من الحب ما يعرف بالاتصال الجنسى الشاذ « الوحيد الجنس » .

وفى الحالة الثانية ، يقع الحب على أشخاص يشبهون الذات كما كانت فى وقت ما ، فيختار الرجلُ أو المرأةُ اللذان جاوزا حد الشباب ، من يشبههما عندما كانا فى فترة الفتوة والجمال . ومن هذا القبيل الزيجات التى يكون فيها التفاوت فى السن كبيراً . وينتج ذلك عن نوع من التثبيت ، يكون قد حدث بالنسبة لفترة معينة من سن الشباب ، وينصبُّ الاختيار على أشخاص يمثلون هذه الفترة بكيفية ما .

---

(١) ومن قبيل ذلك أنواع (التعصب) المختلفة من وطنى وعنصرى ودينى وقبلى . . . الخ .

وفى الحالة الثالثة ، تتجه المحبة إلى الأبناء ومن إليهم ، لأن الإبن يمثل قطعة من النفس — خصوصاً بالنسبة للأم — ولذلك كثيراً ما نجد الأم الشديدة المحبة لنفسها ، شديدة المحبة لأبنائها ، بينما قد تكون عاجزة عن محبة زوجها ، لأنه لا يمثل نفسها ولا جزءاً منها .

وكثيراً ما نجد أن الأنسان يعتبر أن كل شيء بَذل فيه جهداً خاصاً ، أو تعب فى تكوينه والعناية به ، كأنما هو جزء من نفسه فيضفى عليه من الاهتمام والمحبة مايَدهش له الكثيرون . ومثال ذلك حب جامع التحف لتحفه ، والمؤلف لكتبه ، والمخترع لاختراعه ، والمعلم لتلاميذه ، إلى غير ذلك مما نشاهد كثيراً فى حياتنا اليومية .

وفى الحالة الرابعة ، يحبُّ الشخص نفسَه كما يجب أن تكون ، فيختار مثله العليا فى الجمال ، أو الصحة ، أو الذكاء ، أو الخلق ، ويختصها بمحبته ، فكأنه يلتمس فى محبوبه ما ينقصه من الصفات الجثمانية والخُلقية ، وقد تكون هذه نقيض صفاته ، فيختار من يعوض النقص الموجود فيه ، والحب فى هذه الحالة يصل بنا إلى عكس النتيجة التى يوصلنا إليها فى الحالة الأولى .

أما الحالتان الخامسة والسادسة ، فالحب فيهما مشتق من المحيط العائلى : ففى الخامسة يبحث الشخص عمن يعيد اليه شعوره بالعناية ، والحدب والحنان ، والرعاية ، وأمثال هؤلاء لا يسعدون إلا مع زوجات يؤدين الوظائف المادية والعاطفية التى كانت تؤديها الأم . وكثيراً ما يفشل زواجهم عند ما يقصُر ما تقوم به الزوجة دون الحلول محل ما كانت تقوم به الأم . أما فى السادسة فيبحث الشخص (المرأة فى الغالب) عن الرجل الذى يقوم لها بالحماية ويكفل الأمن والطمأنينة التى كان الوالد رمزاً لها .

عقدة أوديب :

ويبدأ تحديد هذه الميول المختلفة من عهد الطفولة ، إذ يكون للمحيط العائلى أثر عميق فى نفس الطفل ، وله بناء على ذلك أثر كبير فى تكييف سلوكه فيما يلى من حياته .

وهذه الميول ليست بالبساطة التى قد نتوهمها ، بل هى معقدة غاية التعقيد ، ومتشابكة بعضها مع البعض غاية التشابك . وفى محيط العائلة تتكون عواطف الطفل نحو أبويه ونحو أخوته ، فاذا خرج عن النطاق العائلى الضيق إلى المجتمع الواسع ، فإن العواطف التى يكوّنها فى هذا النطاق تكون صورة طردية أو عكسية أو معدّلة ، لعواطفه العائلية الأولى ، فهى مشتقة منها على كل حال . فعلاقاته بزملائه ، أو برؤسائه ، أو بمرؤسيه ، أو بالأصدقاء ، أو بالغرباء ، أو بالمواطنين ، أو بزوجته وأبنائه فيما بعد ، كل هذه إنما تتبع فى الأصل ، من علاقاته العائلية الأولى ، ولكن بعد أن يتناولها كثير من التغيير والتبديل حسب الظروف .

فقد يكون الطفل مطيعاً غاية الطاعة ومحباً غاية الحب لوالديه ، فإذا كبر كان متمردا على رؤسائه كارها لهم ؛ وقد يحدث العكس فيكون سلوكه نحوهم صورة مطابقة لسلوكه نحو أبويه . وذلك راجع إلى أنه ليس هناك شىء اسمه العاطفة النقية الخالصة فى حياة الإنسان ، فالعقل يحتضن العاطفة وضدّها فى وقت واحد ، فالعاطفة نحو كل من الأم والأب عاطفة ثنائية معقدة .

فالأم هى المركز الخارجى الأول لعواطف الطفل كما سبق أن ذكرنا لأنها الوسيط لإجابة رغباته الملحّة ، وعلى ذلك فحبه يتركز كله نحوها فى بادىء الأمر . والحب يدعو إلى الاستئثار وعلى ذلك فالطفل يريد أن يستأثر بأمه استئثاراً تاماً لا فى وقت حاجته المادية إليها — الغذاء وما إليه — بل فى كل وقت . وهو يدعوها إليه نهارا وليلا ، ويبتئس أشد الابتئاس إذ لا يحصل على

بغيته . وعلى ذلك فهو يغار عليها — يغار عليهـــا من إخوته ، وذلك مشاهد ملموس ، ويغار عليها من مشاكلها العديدة التى تدعوها بعيدا عنه ، ولـكنه يغار عليها أولا وفوق كل شيء من ذلك الشخص الذى يجد أنها تعطيه من نفسها أكثر مما تعطى أى شخص آخر ، وهو الأب . فالأب يستأثر بالأم متى شاء ، وهى تقضى معه جانبا كبيرا من وقتها ، وخصوصا بالليل ، إذ تنام وإياه فى مكان واحد ، وتترك طفلها وحيدا ، ويتنبه عقل الطفل جيدا إلى هذا المنافس القوى فيتـكون عنده الحقد عليه والغيرة منه .

فالشعور البدائى إذن هو شعور بالمحبة الشديدة للأم (١) ، والرغبـــة فى الاستئثار بها ، وشعور بالـكراهية الشديدة للأب والغيرة من تفوّقه وتملّكه للأم .

ولـكن هذا لا يدوم طويلا لأن الطفل كما قلنا ، يمتص من الأم عواطفها ويندمج فى شخصيتها ، فهو بالتدريج يحبّ ما تحبّ الأم ومن تحبّ ، حتى ولو كان ذلك ضد رغباته الغريزية التى يتناولها الـكبت فى هـذه الحالة ، ويحدث مثل هذا فى حالة الأب فهو موضع محبة الأم والتفاتها وعلى ذلك فهو شخص يجب أن يُحبّ ، ويصبح فعلا محبوبا من الطفل عن هذا الطريق ، وأما الـكراهية الأصلية فانها تُـكبت ، وتصبح لا شعورية ، وعلى ذلك يصـير الأب محبوبا فى الشعور مكروها من اللاشعور . بل إن صفات الأب ومظهره يصبحان محل إعجاب الطفل ، وتصبح له رغبة شـديدة فى التحلى بها حتى يفوز من التفات الأم بما يفوز به الأب .

وهـذه الحالة من حالات « الثنائية » فى العواطف أو « التناقض » فيها . ومن الغريب أن الأمر لا يقف عند هذا الحد إذ أن هذا الموقف يؤدى إلى أن تصبح الأم منافسة فى حب الأب فتتجه نحوها كراهية لا شعورية(١) .

---

(١) المحبة هنا شعورية تقابلها كراهية لاشعورية (أنظر ص ٦٨ وما بعدها) .

(٢) Flugel : Psychoanalytic Study of the Family.

وقد تتعقد الصورة أكثر من ذلك ويدخل فيها عامل آخر هو جنس الطفل ، فالطفل الذكر يميل فى الغـــالب إلى أن يكون حبه لأمه وكراهيته لأبيه ، وبالعكس بالنسبة للطفل الأنثى وقد تحدث مضاعفات أخرى .

وهكذا يكتسب الطفل من محيطه العائلى مجموعة من العواطف المعقَّدة المتناقضة ، تتركز حول الأب والأم — وقد أطلق على هـذه المجموعة اسم « عقدة أوديب »(٢) نسبة إلى أوديب الملك الذى قيل إنه قتل أباه وتزوج أمه .

وفى الغالب تـكون المحبة هى الصورة الواضحة للعلاقة بين الطفل وأبويه بينما تـكون الـكراهية مكبوتة — وهذه الـكراهية المـكبوتة تجد الطريق إلى التعبير عن نفسها عن طريق الإبدال ، فـكثيرا ما يختص الطفل بكراهيته الشديدة — فيما بعـد — أناسا يشبهون الأب من حيث المنظر أو السلطة أو الوظيفة . وكثير من الثائرين والمتمردين على المجتمع إنمـا يعبرون بثورتهم وتمردهم عن الـكراهية المـكبوتة للأب الذى يظهرون له ويشعرون نحوه بكل محبة واحترام .

وكذلك بالنسبة للأم ، فإن شعور الـكراهية المـكبوت قد ينصبُّ فيما بعد على الزوجة أو الحبيبة أو على جنس النساء بوجه عام .

ويأتى بعد ذلك دور الإخوة فكل منهم منافس ، وكل منهم ينـال نصيبه من المحبة والـكراهية ، فى الشعور وفى اللاشعور ، وكل هذه العواطف قابلة للإبدال والإعلاء فى مستقبل حياة الطفل .

ويتوقف قدر كبير جدا من الخُلقُ الشخصى والسـلوك الاجتماعى على أنواع الإبدال والإعلاء التى تحدث بالنسبة لألوان المحبة والـكراهية التى تنشأ فى محيط العائلة .

فإذا حدث « تثبيت أبوى » قوى عند الطفل ، فإنه يجد من الصعب عليه جدا فيما بعد ، أن يتزوج ، أو يترك منزل العائلة ، أو أن يستقل بنفسه ويخرج

---

(١) Œdipus Complex

إلى الحياة ، لأنه لا يستطيع الفكاك من الموقف العائلى الذى يلاحقه ، حتى بعد أن ترك طفولته بزمن طويل .

وكثيرا ما يجرى الفرد وراء تكرار مواقف طفولته فيما يلى من حياته ، كالذى يُحب من لغيره حق عليهم — مكررا بذلك موقف المنافسة للأب فى محبة الأم ، فيحب المرأة المخطوبة أو المتزوجة ولا يرضى بها بديلا ، ولا تجتذبه امرأة خالصة مهما كان فيها من المغريات الذاتية ، لأن ما يجتذبه هو الموقف الذى مرَّ به وهو طفل — وقد كان فى أمثال هؤلاء معين لا ينضب لكتاب القصص والروايات .

أما التطور الأمثل فإنه يحدث بكيفية تدريجية ، ويتجه نحو الاستقلال التدريجى عن الأب والأم . فيحدث عند الطفل (فِطام) نفسى تدريجى ، كالفطام من الرضاعة . أى أنه يصبح قادراً على أن يستقل بعواطفه ، ويجد لها متكآت أخرى فيما يجده من لِعبٍ ودرس وسعى فى الحياة ، وعلى ذلك يصبح حراً فى أن يكوِّن عواطف جديدة ، ويحب ، ويتزوج طبقا لمبادىء لا تكون بالضرورة تكرارا لمواقف الطفولة الأولى . وذلك لا يمنع أن يكون متأثرا بها ، ولكن الأثر يدخل عليه التعـــديل عن طريق الإعلاء ، فلا يبقى له طابع الإلزام والتقيد العنيف الذى يبدو فى حالات التثبيت .

وبهذه الكيفية يمكن أن ينتقل ولاء الشخص بسهولة من المحيط العائلى الضيق إلى محيط الحياة الواسع ، فالولاء للأصدقاء وللعمل وللوطن . . . الخ يصبح ممكنا إذا أمكن الفكاك من القيود العائلية الأولى .

الباب الثاني عشر

فترة الكمون (١)

يتم التطور الذى تكلمنا عنه فى الغريزة الجنسية فى حوالى سن الخامسة أو السادسة ، ويدخل الطفل بعد ذلك فى مرحلة هادئة من حياته يطلق عليها اسم فترة الكمون — وتستمر فترة الكمون حتى بدء المراهقة .

وهذه المرحلة كما يدل عليها اسمها تتميز بالخلو من كثير مما يظهر فى المرحلة السابقة من علائم التمرد والثورة والصراع عند الطفل .

وكلنا يدرك الفرق الكبير بين الطفل فى السنوات الخمس الأولى من حياته ، وبينه فيما بعد ذلك وقد رُوّض وأصبح سهل القياد ، مطواعا ، خاضعاً لما يفرض عليه . ومن الغريب أن الناس قد اختاروا هذا السن من زمن طويل ، لبدء تعليم الطفل ، فكأنهم ينتهزون فرصة هذه الفترة الهادئة فى حياته ليبدءوا فى مهمة التعليم الشاقة .

وإذا أردنا أن نُكوّن صورة واضحة للفرق بين الحالتين ، فلنتذكر الطفل الرضيع وانفعالاته الجياشة بالرغبة والخوف والألم والحب ؛ ولنتذكر أن انفعالات الطفل أقوى بما لا يقاس من انفعالاتنا ، ولا يشبهها فى حياة الراشدين من الناس إلا المخاوف العنيفة ، كالكابوس الذى يأتى النائم . وذلك لأن الطفل فى مبدأ حياته ، حينما يكون ضحية الخوف أو الحرمان يشعر أن ذلك الخوف وهذا الحرمان ليس لهما نهاية تنتظر ، وليس بعدهما أمل يرجى ، لأنه ليس فى تجربته ما يؤدى به إلى عكس هذا الاعتقاد . ويشبُّ الطفل قليلا قليلا وتزيد مطالبه من الحياة ، ويزداد إدراكه لرغباته ، وتمر به ساعات هناء وسعادة تجاب فيها هذه المطالب ، ولكن تمر به ساعات شقاء يُحرم فيها مما يرغب فيه ،

---

(١) Latency Period

بل ويفرض عليه أن يقوم بأشياء لا يرغب فيها ، ويرى حوله قيوداً ونظماً لا تمت إلى رغباته ، ولا إلى إدراكه بصلة ما . فيثور ويتمرد ، ويحاول الفكاك من هذه الحال ، وفى أثناء ذلك تجيش نفسه بعواطف الحب والكره ، والغيرة والرغبة فى الإنتقام ، وتمنى الموت لمخالفيه ومنافسيه ؛ ومن منا لايذكر ثورات الغضب الشديدة التى تمر بالطفل وهو فى حوالى السنتين أو الثلاث من العمر ؛ ومن منا لا يذكر صراخ الطفل وبكاءه ساعات طوالا ، بكاء الغيظ والثورة إذا أهمل أمره ، وإصراره على الامتناع عن تناول الطعام ، وتحمله للجوع . وهيهات أن يكون هناك أثر لما تصنع الأم أو الأب عند ذلك من رجاء أو تهديد أو ترغيب ؛ كل ذلك يذهب هباء ، والطفل ينظر وهو جامد ، وقد أقفل فمه ورفض الطعام .

من هذا المخلوق الثائر ، الخائف ، الغاضب ، الغيور ، الأنانى ، ينشأ الحدث السهل القياد الذى نراه فى المدرسة الابتدائية .

ذلك أنه قد دخل فى الدور الذى «تكمن» فيه النزعات إذ تدخل فى دور هدوء وقتى ، وتقل مظاهر الرغبة والصراع فى نفس الطفل ، ويصبح قادراً على التكيف الاجتماعى ، فهو يصغى لغيره ، ويعرف شيئاً مما له وماعليه ، ويرغب فى التعلم ، ويصبر على بعض المكاره ، ويستقل بنفسه بعض الاستقلال .

وكل ذلك نتيجة لما بذله الوالدان فى تهذيب الشرير الصغير وترويضه ، فقد استمرا معه بالقهر حيناً وباللين أحيانا وبالحزم دائما ، حتى وصلا بنزعاته الثائرة إلى هذه الحالة من الهمود والخمود ، ولا شك فى أنهما قد كانا عاملين فى إعلاء بعض هذه النزعات ، وفى تمهيد الطريق لتكوين شخصية الطفل المستقبلة .

ولكن الغريب أن الطفل يفقد شيئاً هاما فى أثناء هذا التكوين ، فمن منا لايذكر الطفل ذا الثلاث السنوات أو الأربع أو الخمس ، ويذكر حيويته الفائقة ، ومعينه الذى لا ينضب من الحيل واللطائف ، وثروة خياله التى لا تفنى ، بل وفوق هذا وذاك ، بعد نظره ومنطقه الذى لا يعرف المواربة ، والذى يبدو فى

أسئلته وإجاباته . هذه ، الأصالة ، وهذه ، الحكمة ، وهذه ، الحيوية ، كثيراً ما تخمد مع خمود العوامل الغريزية .

وهكذا نجد أننا نخسر كثيراً إذ نخلُق من الشيطان الصغير «غلاماً» طيباً ، لأنه يخسر مع شيطانيته كثيرا من حسناته ، ويكتسب مع الطيبة شيئاً من الركود والتفاهة .

ذلك لأن العقبات التى نضعها فى طريق تفكير الأطفال ، والقيود التى نحيط بها حيويتهم ، وأصالتهم ، هذه العقبات والقيود تنسحب إلى نشاطهم العام وحيويتهم العامة وقدرتهم على العمل والابتكار .

وبعد انتهاء هذه الفترة ، تبدأ الفترة التالية — وهى فترة المراهقة — وفيها يعاود الطفل المرور على المصاعب النفسية التى سبق له أن مر بها فى الطفولة ، فتبدو تلك المصاعب التى ظلت كامنة فترة من الزمن ، فى صـــورة جديدة ، ولكنها مبنية على الصورة القديمة ، كالكتاب الذى تختلف طبعته الثانية عن طبعته الأولى ، ولكن يبقى بين الطبعتين شَبَهٌ لا يخطئه القارىء .

فالمواقف الانفعالية التى دارحولها الصراع فى طفولته ، تبقى نواة للاضطراب فإذا تكررت هذه المواقف ، أو ما يشبهها — واللاشعور يرى التشابه حتى فى العَرَض الطفيف كما قلنا — فإنها تنفجر ثانية ، وتسبب له متاعب نفسية كبيرة . ومن المواقف المتكررة فى العادة موقف الإبن من أبيه ، إذ يكون ما يبدو من الأب من التحكم ، وما يبديه الإبن من التحدى ، مشوبا بعنف الانفعال القديم . وعل ذلك تكون فترة الكمُون مرحلة هدوء بين مرحلتى الثورة العنيفة فى حياة الطفل . وكأنّ الطبيعة تعطى للغريزة فترة للاستجمام ، استعدادا لمطالب الغريزة الجنسية الناضجة ، بعد أن مرُنَ الطفل فى بدء حياته على الطبعة الأولى من هذه الغريزة .

ففترة الكمون إذن جسر يصل بين العهدين ، ويحمل فى باطنه بأمانة كل ما أخذه من العهد السابق ويوصله إلى العهد اللاحق كأن لم تكن هذه سوى فترة استجمام بينهما .

والصورة العامة للطفل فى دور الكمون صورة « ناضجة » تشبه من بعض الوجوه صورة الرجل الذى جاوز فترة المراهقة ودخل فى دور الاستقرار .

فهو أقل أنانية وأقل عنفا فى انفعالاته ، يهتم بما هو خارج نفسه ، فيتوجه إلى الأشياء والأشخاص ويوثق العلاقة بينه وبين محيطه الخارجى . وعلاقته الآن ليست كعلاقته عند ما كان طفلا ، إذ أن الأخيرة علاقة من جانب واحد علاقة هو مركزها ، والمحيط الخارجى له وظيفة واحدة هى إجابة رغباته ، فإذا قصَّر فى ذلك فهو مكروه . كان مبدأ اللذة هو العامل الأساسى فى علاقاته هذه ، أما الآن فقد بدأ جانب آخر من هذه العلاقة ، جانب العطاء فى مقابل الأخذ ، وبعبارة أخرى بدأ السلوك يصطبغ بالصبغة الاجتماعية التى يتعاون فيها الفرد مع المجتمع .

كذلك يبدأ الطفل فى فترة الكمون فى أن ينتقى أفرادا يكونون له بمثابة الآباء بحكم مركزهم ، أو علاقتهم معه ، كالمعلمين ومن إليهم .

وعلاقته بالأب فى منشأ الحياة علاقة معقدة تضطرب فيها المحبة والكراهية وتتصارعان ؛ أما الآن فقد تغلبت المحبة ، وتطورت الكراهية ، حتى انحدرت إلى اللاشعور ، وأصبح سلوك الطفل وكأن له جانبا واحدا هو جانب المحبة والطاعة ، بل إن المحبة تصبح أشبه بالواجب منها بالعاطفة ، ولاشك فى فتور علائق الأبناء مع آبائهم فى هذه الفترة وميلها إلى أن تصطبغ بصبغة الواقعية ، وتنفصل عن الصبغة (الرومانسيه) التى تبدو بها فى الطفولة ، والتى تميز بعد ذلك محبة المراهق .

ويبدو أنه من اليسير فى فترة الكمون أن تنتقل سلطة الأب إلى غيره كالمعلم ومن إليه ممن يشرفون على الطفل ، بل وإلى أى شخص يعينه الأب أو الأم ، دائما كان هذا التعيين أم موقتا ، على حين أن هذا الانتقال فى الطفولة الأولى أمر يكاد يكون متعذرا ، ولا يحدث إلا ضد كثير من المقاومة .

بل إن الطفل يقوم بنفسه بدور الرقابة على نفسه فهو يتبع الأوامر والنواهى

لا فى وقت وجود الوالدين فقط ، كما كان يفعل وهو صغير ، بل يتبعها وهما بعيدان عنه ، وغير قادرين على مراقبته ، فيقوم هو نفسه بهذه المراقبة . ومن هذا الطريق تتكون الأنا العليا كما ذكرنا ، فيصبح الطفل وفى داخله عناصر تعمل على كبح جماحه .

ويمكن تلخيص الفرق بين الفترتين فى كلمات السيدة (آنافرويد)(١) كما يأتى:

« إن العلاقة بين الطفل وأول معلميه (الأبوين) علاقة بين عدوين متضادين فما يريده الطفل لا يريده الوالدان ، وما يريده الوالدان لا يريده الطفل ، والطفل يصر على متابعة أغراضه بكلية نفسه وبحماسة غير متجزئة . ولا يجد الآباء أمامهم طريقا غير استخدام القوة لإرغام الطفل على الإذعان لمطالبهم . وتستمر هذه المعركة التى لا تتكافأ فيها القوى ، والطفل فى غالب الأحيان هو الخاسر ، لأنه ضعيف الحول بجانب أبويه » .

أما المرحلة التالية من عمره - فترة الكمون — فالموقف غير ذلك بالمرة ، فالطفل الذى يواجه مهذبيه — أبويه والمدرسين — لم يعد مخلوقا تعمل نزعاته فى اتجاه واحد ، بل لقد انقسم على نفسه . وحتى لو كانت « أناه » لا تزال تتابع أغراضه الأولى ، فإن « أناه العليا » — وريثة خلق الأبوين - تكون دائما فى صف المهذِّب . فكأن المهذب أصبح له حليفٌ فى نفس الطفل . وهذه الحقيقة ذات أهمية تربوية فائقة جدا ، إذ أنها تتيح لنا أن نوجّه الطفل الوجهة الصالحة بلا ضرورة لاستخدام القهر فى هذه السن ، ما دام فى طاقتنا أن نلجأ إلى هذا الحليف . ويكون من المستحسن إذن أن نقوّيه ، بدل أن نضعفه بتصرفاتنا . والذى يؤدى إلى تقويته ليس هو القهر بل هو الأخذ بيد الطفل برفق وحزم .

وعلى ذلك فالمدرس أو الأب يخطىء خطأ كبيرا إذ يستمر على معاملة الطفل

---

(١) Anna Freud : Psychoanalysis for Teachers. 1931 p. 87

على أنه عدوّ ، تلك المعاملة التى قد (١) تجد ما يبررها فى الطفولة الأولى » .

وكل ذلك يسّهل خروج الطفل من محيطه العائلى ، وانتقاله إلى محيط المدرسة خصوصا وأن اهتمامه لا يصبح مركّزا على غرائزه ونزعاته فى صورتها البدائية ، بل إن قدرا من الإعلاء يكون قد حدث ، فيبدأ الطفل يهتم بأشياء يصادفها فى طريقه ، فيتابعها بكثير من الاهتمام ، بل أنه يهتم بمعظم ما يرى أن الكبار يطلبون منه الاهتمام به ، فيتعلم القراءة والكتابة وأشياء مثل جداول الضرب وما إليها .

وعلى ذلك تكون العلاقة بين الحدث وبين أبويه ومعلميه وغيرهم علاقة تصطبغ بصبغة واقعية ، ويغلب أن تكون صبغتها العاطفية معتدلة .

فالأب لا يصبح ذلك المخلوق الكامل ، والأم لا تبقى أجمل من فى العالم .

وسلوك الطفل فى هذه الفترة لا يكاد يرى فيه ذلك الطابع العنيف الحار الذى يوحى باتجاهاته الجنسية . فما أعظم الفرق بين ضمة الطفل الصغير لأبيه أو أمه وتقبيلهما ، وبين تحية الإبن الأكبر منه تحية رسمية مصحوبة بقبلة على الوجنة أو على اليد .

---

(١) المقصود هنا أن موقف الطفل العدائى فى بدء طفولته قد يثير عند الأب أو الأم نزعات عدائية أو انتقامية ضده ، فهو احتمال نفسى وليس تبريرا تربوياً .

الباب الثالث عشر

الأحلام

لعل كشفاً من كشوف التحليل النفسى لم يلفت الأنظار كما لفته كشف فرويد لحقيقة الأحلام ووظيفتها العقلية .

وذلك أن الأحلام وما يحيط بها من الغرابة ، قد لفتت نظر الإنسان منذ القدم ، وقد كان جو الغموض والرهبة اللذين يحيطان بها مما يزيد فى تفكيره فى شأنها .

وقد نسبها الإنسان حينا للشيطان وحينا لأرواح الموتى ، ولكنه فهم منذ القدم أن لها وظيفة ، وأنها لم توجد فى حياة الإنسان عبثا .

وفُهمت وظيفتها على أنها التنبؤ بالمستقبل وما فيه من مخبئات ، ولذلك كان تفسير الأحلام مبنياً على كونها تحمل فى طياتها معنى خبيئاً يشير إلى المستقبل المجهول .

وقد أتى العلم الحديث فألقى بظل من الشك على هذه النظرة ، وقام كثير من الباحثين بتجارب فى الأحلام ، ووصلوا إلى نتائج تتلخص فى أن الأحلام نتيجة لمؤثرات حسية معينة ، وعلى ذلك فليست لها أهمية ما ، لأن طبيعتها تتوقف على طبيعة المؤثر الذى أثارها ، سواء أكان هذا عطشا يصيب الإنسان وهو نائم ، أو ضغطا على القلب من جراء أكلة متخمة قبل النوم ، أو صوتا وصل إلى سمعه وهو نائم فلم يوقظه ولكنه أثار عنده سلسلة من الأحلام ؛ وكذلك سقطت الأحلام فى نظر الباحثين عن مكانتها الأولى وبقى الاعتقاد فى القدرة على التنبؤ بواسطتها من نصيب أولئك الذين يؤثرون البقاء على القديم .

وعند ما بدأ فرويد فى بحث نظرياته ، قادته بحوثه إلى ميدان الأحلام ، فقد وجد أن أعراض الاضطرابات العصبية تصحبها أنواع من الأحلام لفتت

نظره لما بدا من أوجه الشبه بينها وبين الأعراض العصبية إذ يخضع تكييفهما لنفس النوع من الحيل اللاشعورية . فبدأ فى دراستها ، وما لبث أن رأى صلتها الوثيقة بالحياة اللاشعورية وقيمتها فى كشف أسرارها ، فهى بالنسبة للتحليل النفسى كنز ثمين ، كلما تعمقنا فيه عثرنا على النفيس من اللقيا ، واستطعنا أن نلقى الضوء على مكنونات اللاشعور ومحتوياته المخفية . فالحلم كما قال فرويد بحق يُعتبر الطريق السلطانى إلى مكامن اللاشعور .

ذلك لأن اللاشعور ، كما علمنا من قبل ، زاخر بالنزعات والرغبات المكبوتة التى « تكدح » فى سبيل الإشباع — وهذه النزعات كما رأينا لا تجد السبيل هيّنا ، فتحتال على الظهور متخفية مقنعة ، فى صور شائهة ، تخفى مظاهرها ، وإن كانت تبطن معانيها . وساعات النوم من تلك الأوقات التى يغفل فيها الرقيب نوعا ما ، لأن الشعور يصبح فى حالة خمول يكاد يكون تاما ، فتنتهز هذه الرغبات فرصة الغفلة ، وتترى زرافات ووحدانا ، تريد أن تظهر فى الشعور لتعبر عن نفسها ، ولكن هذا الفيض من الرغبات المكبوتة لو سمح له بأن يهمى لما بقى للنوم أثر ، والرقابة لا تندثر أثناء النوم وإنما تغفل كما قلنا ، ويبقى أثر منها ، وعلى ذلك فإن هذه الرغبات تمر فى صور مزيفة ملتوية غامضة ، أكثر زيفاً والتواء وغموضا مما تستطيع أن تفعل فى حالة اليقظة ، وذلك لأن الشعور اليقظ لا يحتملها ، بينما يحتملها الشعور النائم ، فتظهر الأحلام فى تلك الصور الغريبة ، البعيدة عن كل منطق أو مألوف ، إذ تتوالى فيها الحوادث والأشياء ضد كل منطق أو قانون ، ويغلب عليها التفكك والغموض .

وكثيراً ما يصحب الأحلام شعور بالقلق ، والخوف الشديد ، الذى لا يكاد يوجد له نظير فى حياتنا الشعورية ، لشدته من جهة ، ولتفاهة الداعى إليه غالباً — فى الحلم — من جهة أخرى ، فهو أشبه بمخاوف الأطفال ، وهذا هو الشعور المعروف « بالكابوس » وهو مظهر من مظاهر تدافع الرغبات ، وإلحاحها فى الظهور والتعبير عن نفسها ، وينتهى الأمر غالبا فى هذه الأحوال بأن يُستدعى الشعور فجأة للتغلب على هذه الرغبات ، فيهبّ الانسان من نومه مذعورا وهو منقبض قلق .

وكثيرا ما ترتبط الصور التى تبدو فى الحلم بمؤثرات مشتقة من حياتنا اليومية، فتحوى عناصر مما مر بنا فى اليوم السابق ، أوأى وقت ماض ،وعناصر أخرى من الأفكار التى تهمنا أو تقلقنا ، أو من المؤثرات التى تصل إلينا أثناء النوم نفسه ، خصوصا إذا كانت هذه المؤثرات من الشدة وكانت تلك الأفكار من الأهمية ، بحيث تهدد بزوال النوم كطرق شديد ، أو صوت جرس عال أو طلقات مدفع ، أو هبوب عاصفة ، أو برودة فجائية ، أو ألم داخل المعدة أو الأضراس ، فيكون للحلم وظيفة الاحتفاظ بالنوم والوقاية من اليقظة . فكأنه يحيل المؤثرات الحسية أو الفكرية مع النزعات والرغبات المكبوتة ، إلى صور يحتملها النائم بقدر الامكان ، فتدخل فى شعوره بالقدر والكيفية التى تدعو إلى ايقاظه . ولكنها لا تنجح فى ذلك دائما بطبيعة الحال .

وللحلم « مضمونة الظاهر(١) » كما يسميه فرويد وهو ما وردفيه من الصور والحوادث والأشخاص التى يحكيها الحالم ، ولكن هذه تعتبر تمويها يخفى وراءه حقيقة الدوافع الكامنة وراء الحلم ، ومجموع هذه الدوافع هو ما اطلق عليه « المضمون الكامن » (٢) للحلم .

ويحدث ذلك عن طريق « الرمز(٣) » فالشخص الذى يرد فى الحلم لايجب أن يؤخذ على علاته،فقد يكون رمزا لشخص آخر،وكذلك الأشياء والحوادث فهى لاتعنى ما تشير إليه فى الظاهر ، بل تعنى ما تشير إليه بطريق الرمز .

ولكن نوضح هذه النقطة نورد مثالين مأخوذين من فرويد « محاضرات فى مبادىء التحليل النفسى » .

١ — « مريض رأى حلماً طويلا ورد فيه أنه رأى عدداً يذكر من أفراد عائلته يجلسون حول مائدة ذات شكل خاص » (٤) .

وعند التحليل وسؤال المريض عما تذكّره به الأشياء الواردة فى الحلم ، قال إن المائدة تذكره بمائدة أخرى رآها فى منزل إحدى العائلات المعروفة له،

---

(١) Manifest Content (٢) Latent Content (٣) Symbolism

(٤) Freud : Introductory Lectures to Psycho-Analysis, 1940 p. 98 otc.

وعند ماسئل عن هـذه العائلة ، أجاب بأن رب العائلة يعامل أبنه بنفس المعاملة التى يعامله بها أبوه .

وعلى ذلك فالمضمون الكامن للحلم هو « ان أبى يعاملنى كما يعامل تتشلر — اسم رب العائلة — ابنه » .

ومن الغريب أن اسم العائله « تتشلر » مشتق من كلمة « مائدة » فى الألمانية(١) وعلى ذلك فيكون الحلم قد جعل عائلة المريض تجلس إلى مائدة مشتقة اسما وشكلا من العائلة الأخرى لـكى يعبر عن الفكرة الكامنة .

٢ — شخص آخر رأى فى المنام أنه كان مع الآنسة (س) وهى فتاة كانت تعمل سكرتيرة « لمهندس » عجوز قادم من الخارج وكان قد تمرن معه فى أيام تلمذتة وكانا يركبان عربة من نوع معين وعندما وقفت العربة أمام باب حديدى، أبلغهما شخص آخر (ص) أن المهندس العجوز قد توفى، فأظهرت الفتاة علامات الجزع — وكانت وظيفة سكرتيرة — فى الحلم - مختلطة بوظيفة زوجة ، وفجأة وجد نفسه مرغما على أن يتخذهـا زوجـة كما لو كان ذلك أمرا لامناص منه ، وعند سؤاله عما يتذكره حول الحلم وجد ما يأتى :

(ا) أنه كان يعرف سيدة أخرى تشبه الأولى فى أنها أجنبية وفى الشكل العام للجسم ، وقد ركب معها مرة عربة من هذا النوع فى حين أنه لم يركب مثل هذه العربة مع السكرتيرة .

(ب) أن هذه السيدة متزوجة بصديق له مهندس وهو (ص) وهو الذى قابله فى الحلم وذكر لهم أن المهندس العجوز قد توفى .

(ح) أن هـــذه السيدة تقوم بعمل يشبه من بعض الوجوه العمل الذى كانت تقوم به الآنسة (س) فتساعد زوجها فى بعض الأحيان .

وعلى ذلك فهذا الحلم قد حقق رغبة لاشعورية هى الزواج من السيدة (س) بعد أن تغلب على جميع العقبات التى يقيمها العرف والخلق فى سبيل ذلك، وذلك بأن رمز لها (بالآنسة) السكرتيرة ، بعد أن خلط بين وظيفته سكرتيرة ووظيفة

---

(١) Tisch

زوجة — ثم جعل الإذن بالزراج يصدر بطريق غير مباشر من زوج (ص) إذ أنه هو الذى ذكر لها خبر وفاة المهندس العجوز وبذلك امتنع الشك ، وبقيت علامات ضئيلة هى التى أنارت طريق التحليل وهى العربة وشكل الباب الحديدى ومهنة كل من من الزوجة والسكرتيرة ، ثم الشبه الطبيعى بينهما ، وجعل الزواج شبه واجب ، حتى يدفع أقل شبهة فى رغبته من قبل ، إذ كان كل ذلك مفاجئا له فى الحلم .

٣ - سيدة كانت تحلم مرارا بأن الله يلبس قبعة بيضاء مدببة من الورق (١) وقد ظهر من التحليل انها وهى طفلة كانت دائمة النظر إلى جانبيها عندما تكون على المائدة لنرى هل اخذ اخوتها نصيبا اكبر من نصيبها من الطعام ، وحاول اهلها ان يجعلوها تقلع عن ذلك فلم يستطيعوا ، فصنعوا لها قبعة من الورق تمنعها من رؤية الجوانب فلا ترى إلا ما امامها .

ولكن الرغبة فى معرفة ما اخذ إخوتها ، ظلت على إلحاحها ، وانتهت بأن كُبتت ولكنها حققتها فى احلامها ، لأن الله يعلم كل شىء وهو يلبس قبعة مدببة من الورق ، فهى إذن تعلم كل شىء وتعلم نصيب إخوتها من الطعام . فأصبحت القبعة فى الحلم مساعدا لا عائقا فى سبيل المعرفة التى تتحرق إليها .

وهكذا نرى ان الحلم هو طريق لتحقيق هذه الرغبات عن طريق الرمز تحقيقا خياليا . وان المضمون الكامن هو الأهم بينما المضمون الظاهر ليس إلا غلالة تغطى هذا المضمون ، وتخفيه عن الحالم نفسه .

والتحليل يُظهر فى الأحلام كل الحيل اللاشعورية ، من تبرير وتكثيف وإلصاق وابدال . . . الخ .

٤ — سيدة توفى والدها وقد رأت فى المنام كأنها فى مستشفى وكأن والدها مريض فى هذا المستشفى ، وبينما هى واقفة تنتظر اخبارا عن صحته إذا بشيخ كبير يلبس عمامة ويمسك (بيرقا) يأتى إليها ويقول : إنه أى (والدها) ذهب

---

(١) Introd . Lect etc . . . p 98 .

إلى المكان الذى فيه (أكوام أكوام) ، وقالت إنها قامت من النوم وهى تشعر بشعور قوى من الراحة العقلية والرضاء النفسى .

وبالتحليل وجد أن والدها ينتسب إلى عائلة دينية معروفة ، وأنه قبل أن يموت طلب أن يُدفن فى مدافن آبائه ، ولكنه بعد أن مات فعلا دفن فى مدافن عائلة زوجته . وكانت ابنته (وهى الحالمة) تعارض فى ذلك . أما المكان الذى فيه (أكوام أكوام) فقد تذكرت أن لها عما مات قبل والدها ، وقد وصف لها مدافن عائلة الأب بأنها أرض فيها «أكوام أكوام» ، ولما مات العم دفن فى هذه المدافن .

فكأن الشخص الدينى لابس العمامة هو الأب نفسه ، وكأن الدفن قد حدث فعلا طبقا لرغبة الأب وذلك هو السر فى شعور الراحة والرضى الذى شعرت به عند استيقاظها .

٥ — فتاة متعلمة تعليما عاليا مصابة بهستريا تحولية (١) وقد ظهر أن الأعراض عندها ترجع إلى أسباب جنسية ، وتتميز حياتها بالكبت من هذه الناحية ، فهى لم تستطع بتاتا أن تفكر فى قبول عروض الزواج المختلفة التى عرضت عليها ، وهى تحاول أن تبنى مستقبلها على عدم الزواج ، وقد رأت الحلم الآتى بنصه كما قصته على طبيبها :

رأيت أنى أسير مع فتاه تسكن بجوارنا وإذا نحن أمام حديقة . . : وهناك جمع كبير من الناس داخل الحديقة وقد سألنا عن سبب تجمع هؤلاء الناس فقيل أن هناك ثعبانا كبيرا . وبينما أنا واقفة أنا وزميلتى ، إذا بالثعبان يترك الزحام وإذا به ينزل من فوق شجرة مجاورة لنا تماما ويتجه إلينا ، وكان ثعبانا ضخما يشبه تلك التى فى حديقة الحيوانات ، ففزعت فزعا شديدا ولكن زميلتى قالت لا تخافى انظرى : وأمسكت براس الثعبان وفتحت فمه وقالت انظرى ، إن هذا (الكيس) يحتوى على «الحويصلة» التى بها السم فاذا نزعناه هكذا . .

---

(١) Conversion Hysteria

— ونزعته بيدها — أصبح الثعبان غير قادر على الحاق الأذى بأحد . . وتركت الثعبان بعد ذلك فاتجة إلى شجرة أخرى وصعد عليها . وبالرغم من أنى أطمأننت بعض الاطمئنان فانى بقيت خائفة وقلت لها إننى لن أدخل هذه الحديقة مرة أخرى واستيقظت من نومى مذعورة .

والرمز بالثعبان رمز جنسى واضح ، ولكن ظروف الحلم نفسها كانت من الوضوح بحيث لاتدع مجالا للشك فى تفسيره . فقد سألها الطبيب عن الفتاة المرافقة لها فقالت فى مبدأ الأمر إنها مجرد جارة ، ثم عادت وأضافت أنها فتاة مخطوبة وسوف تتزوج . . ، لاحظ اطمئنانها الى الثعبان فى الحلم ، ثم سألها الطبيب عن نوع الدراسة العلمية التى درستها فقالت انها درست الحيوان والفسيولوجيا . فسألها هل درست الزواحف بالذات ؟ فقالت نعم . . فقال لها هل تذكرين أن الجزء الذى يحتوى السم فى فم الثعبان يطلق عليه اسم (حويصلة) فقالت لا ! ولكنى لا أذكر اسمه الآن . . وبعد قليل سألها أأنت متأكدة أنه لا يسمى حويصلة ؟ قالت نعم انى متأكدة ولكنى لا أذكر اسمه الحقيقى . فسألها ما هى الأشياء التى تذكرها بها كلمة حويصلة ؟ قالت بعد تردد (الحويصلة المنوية) . . وعند ذلك ذكر لها أن الكلمة التى تطلق على الجزء الذى يفرز السم فى الثعبان هو (الغدة) وليس الحويصلة فوافقت .

والرمز هنا واضح لايحتاج الى تفسير فقد يرمز اللاشعور بالثعبان الى العضو التناسلى تفاديا للحرج الذى يصيب الشعور اذا أظهر هذا بمظهره الحقيقى ، وجعل من السهل على الحالمة أن تفسر الخوف الذى أصابها فى الحلم أنه خوف من الثعبان بينما هو فى الواقع خوف مرتبط بالدفاع اللاشعورى . ولكن الذى نم عن حقيقة الرمز أمران : (الأول) وجود الفتاة التى على وشك الزواج وعدم خوفها من « الثعبان » بل محاولتها اقناع الحالمة بإمكان انتفاء الضرر منه . (والثانى) تعبيرها عن الغـــدة بذلك اللفظ الذى دل على حقيقة الأمر وهو (الحويصلة) بدل اللفظ الحقيقى وهو الغدة .

الباب الرابع عشر

هفوات فى الوظائف العقلية

نلاحظ فى حياتنا اليومية كثيرا من الأخطاء العارضة أو الهفوات التى ننسبها لمجرد الصدفة ولا نلقى اليها بالاً إلا فى النادر ، فكلنا ينسى بين الفينة والفينة اسم واحد من معارفه أو أصدقائه ، وأحيانا يكون هذا النسيان فى مواقف محرجة ، كأن يكون بادئا فى تقديمه لصديق آخر ، وكثيرا ما ننسى المفاتيح أو الساعة أو النقود عند خروجنا من المنزل ، أو ننسى أين وضعنا شيئا معينا ، ومن الظواهر المنتشرة نسيان السيدات لمفاتيحهن ، فالكثيرات منهن يضيعن كثيرا من الوقت فى البحث عن المفاتيح ، ولا يجدنها إلا ليضيعنها ثانية . ثم إننا كثيرا ما تصدف منا أخطاء نسميها أحيانا فلتات اللسان أو القلم ، فنريد شيئا ونقول غيره ، أو نقول شيئا لا نريده بالمرة ، ونكون أول المستغربين لما حدث .

نحن نُرجع كل ذلك عادة لمجرد الصدفة ، أو ننسبه لعدم الانتباه ، ولا يخطر ببالنا أن هذا مظهر من مظاهر حياتنا الوجدانية العميقة ، وهو مظهر ولو أنه قليل الخطر ، يعتبر عَرضا عاديا ولا ينسب إلى الأعراض المرضية بحال من الأحوال ، فإن دراسته تلقى من الضوء على حياتنا العقلية وعلى أعراض الاضطراب العصبى نفسه ما يجعلها جديرة بالعناية .

ويمكن تقسيم هذه الأخطاء إلى نوعين :

الأول — حركى . ومثاله :

(١) الخطأ فى تنفيذ أمر مقصود سواء أكان ذلك كلاما يقال أو يكتب أو غير ذلك من الأعمال .

(٢) تنفيذ أمر لم يقصد الإنسان إلى تنفيذه ، عن غير قصد .

الثانى — حسى :

(١) كالنسيان وعدم الالتفات للأشياء .

(٢) أو الإدراك الخاطىء سواء كان بالنسبة للمرئيات أو فى الذاكرة .. الخ(١)

وهذه الهفوات يمكن أن تشبه الأعراض الخفيفة ، وقد دل البحث على أن هذا الشبه حقيقى ولو أنه ليس كاملا .

وقد وجد فرويد أن هذه الهفوات التى ننسبها للصدفة أو قلة الانتبـــاه ، مسببة تسبيباً حقيقياً ، وذلك بالرغم مما نظنه من تفاهتها ، ومن الغريب أن هذه الفكرة ليست بعيدة عن العرف العام للناس ، فمن المعلوم أننا إذا أهملنا زيارة صديق واحتججنا بحق بكثرة المشاغل ، فإنه لا يقنع بهذا العذر ويظن أن ذلك دليل على فتور العلاقات على كل حال . والرجل الذى ينسى أن يُحضر هدية لزوجته فى عيد ميلادها ، ويحتج بالمشاغل التى تملأ رأسه لا يجد من زوجته ارتياحا إلى هذا التفسير ، ويجد أنها تقول بحق : ولكنك لم تكن تنسى ذلك فى أول عهدنا بالزواج ، والصديق الذى ننسى اسمه يجد فى ذلك غضاضة ولا يستريح إلى التفسير البسيط بأنها هفوة من هفوات الذاكرة ، وكأنه يشعر فى قرارة نفسه بأن وراء هذا النسيان شيئاً . . . الخ ، فالفكرة موجودة عن طريق التجربة العادية للأشخاص العاديين .

أما تفسير فرويد لهذه الهفوات أو السقطـــات ، فهو أن كلا منها له معنى خاص ويخدم غرضا خاصا فى الحياة العقلية .

فعندما ننسى شيئاً فوراء هذا النسيان دافع ، وهذا الدافع فى الغالب لاشعورى صرف ، وليس بينه وبين الشىء المنسى علاقة منطقية مباشرة .

فقد يكون فى تذكر هذا الشىء ، بدء سلسلة من الذكريات غير المرغوب فيها لسبب انفعالى ما ، وعلى ذلك يكون النسيان عملية إيجابية تحدث بدون علم الشخص ، وتعمل على تجنيب الشعور أن يتنبه إلى أمور يحسن نسيانها .

ومن هذا القبيل ما حدث (للكاتب) إذ قابل شخصا مصريا فى لندن ، وقد

---

(١) Ernest Jones Pycho - Analysis

أقبل عليه هذا الشخص فى الحال مسلما باشتياق ، وأجهد الكاتب فكره اجهادا كبيراً جدا لكى يذكر متى وأين قابل هذا الشخص أو أن يذكر اسمه ، فلم يستطع إطلاقا . فلم يسعه إلا أن يرد التحية بنفس الحرارة متجنبا أن يضطر إلى الاعتراف بنسيانه لهذا الشخص . وما زال بعد أن تركه يبذل مجهودا مضاعفا للتذكر ولكن بلا جدوى . وأخيرا ترك الأمر وأهمله ، حتى أتى يوم خطرت بباله حادثة حضرها لأحد أقاربه فى مصر ، وكانت ظروفها فى مجموعها مخجلة ومما لايحسن ذكره ، وفجأة برزت لذهنه صورة الشاب الذى قابله فقد كان مرتبطا ببطل الحادثة — فكأن نسيان الشخص فى وقته قد وفر عليه ذكر هذه الحادثة — وإذا ذكرنا أن المقابلة كانت فى النادى المصرى ، حيث يكثر المصريون ، عرفنا أن الدافع للنسيان كان مضاعفا . ولو تتبعنا كل حادث من حوادث النسيان على سبيل (السهو) كما نسميه ، لوجدنا الدافع الخاص به . ولكن الدوافع تختلف فى العمق وفى مقدار المجهود اللازم لكشفها .

وكل أنواع الاضطراب العصبى تعتمد على النسيان ، وفى بعض حالات الهستريا يفقد الانسان أجزاء كاملة من ذكرياته . ويحدث أن ينسى فى بعض الأحيان اسمه وشخصيته وتاريخه الماضى كله — وقد بيّن فرويد أنه فى هذه الحالات ، كما فى حالات نسيان عهد الطفولة ، يكون النسيان ذا غرض محدد . يرمى إلى أن يصبح الشخص جاهلا بجزء من تاريخه ليس فى مقدوره أن يواجهه فى الشعور .

ولا شك فى أننا ننسى الجزء الأكبر من عهد طفولتنا الزاخر بالتجارب والذكريات والطافح بالانفعالات والعواطف ، ونظن أن هذا النسيان أمر طبيعى بينما هو فى الواقع جزء من الطرق الوقائية التى يتبعها العقل لمنع الانقسام الذى لا يحتمله .

وهناك نوع آخر من الهفوات ، هو تداخل النزعات ، إذ تحل واحدة منها محل أخرى ، فيريد الشخص أن يقول شيئاً فيجد نفسه يقول شيئاً آخر ، ومن قبيل

ذلك ما حدث لرجل كانت إمرأته تحمّله الكثير من عملها فى المنزل ، وهو كاره ولكنه مضطر إلى ذلك ، لما يبدو عليها من أمارات العصبية ، ولأنهما كانا فى بلد أجنبى لا سبيل له فيه إلى استئجار الخدم ومن إليهم ، وكان يحمل طفلهما على ذراعه بالرغم منه ، وهو مضطر إلى أن يظهر بمظهر الرضا والبشاشة أمام زوار أجانب ، وبينما هو فى الحديث معهم إذ أراد أن يقول إن « زوجتى » آتية حالا ، فقال إن « زوجى »(١) بلفظ المذكر ، وكان ذلك طبعا مثار الضحك عندهم ومثار الخجل والغيظ الوقتى عنده .

والدافع هنا قد لا يكون واضحا كل الوضوح ، وليس من السهل أن نتكلم عن الدوافع ونحن لم نقم بعملية التحليل فى وقتها ، ولكن المحتمل أن يكون فى ذلك تعبير عن الدور الذى يقوم به مضطرا وهو دور الزوجة ، فهو يتكلم بلسانها إمعاناً فى تمثيل الدور وقمع النزعات المضادة له .

وتأتى بعد ذلك الأخطاء التى يعمل فيها الانسان شيئاً مثل كسر زجاجة بحركة خاطئة كثيرا ما تكون غير طبيعية بالمرة ، حتى إنها لتظهر للمشاهد كما لو كانت مقصودة ، أو إلى « التعرض » لحوادث الاصطدام وحوادث الطريق بشكل خطر قد يؤدى إلى الإصابة فى كثير من الأحيان .

فهذه « الحوادث » ليست دائما بنت الصدفة بل إن منها ما هو « مقصود » إذا اعتبرنا النزعات اللاشعورية ، إما للاعتداء والفتك بالغير ، وإما لعقاب النفس كما لو كان ذلك نوع من الانتحار .

ولعل من أبرز السقطات ما يحدث كثيرا فى حالات السرقة والقتل وغيرها من أن يترك المجرم وراءه (دليلا) عن طريق السهو ، وما أكثر السهو فى هذه الحالات . وهو ينسب إلى اضطراب المجرم وقت ارتكاب جرمه — ولكن هذا الاضطراب نفسه دليل على أن عند المجرم نزعة مضادة لارتكاب الجرم ، وهذه النزعة نفسها هى الدافع إلى هذا السهو القاتل ، ولا شك فى أن النزعة

---

(١) My hnsband

لعقاب الانسان لنفسه نزعة موجودة ، وهى تعبير عن القوة الكابتة ضد النزعات الغريزية . (راجع الأنا العليا) .

وأخيرا نأتى إلى دلالة اجتماعية هامة جدا . وهى محاسبة الناس بعضهم لبعض على هذه الهفوات ، فكثيرا ما يفسر الانسان الهفوة التى تقع قِبَله تفسيرا لا تساهل فيه ، ولا يقبل فى ذلك عذرا ، ويعتبر أن الشخص الآخر قد ، وقع بلسانه ، كما يقال ، وكثيرا ما يدافع المخطىء عن نفسه دفاعا حارا ، بأنه لم يقصد ، وهو حقيقة لم يقصد ما وقع منه ، وإن حرارة الدفاع لتزيد ، لأن الدافع الذى دفعه إلى الهفوة دافع مجهول منه نفسه ، ويراد أن يظل مجهولا .

ومن المعروف أن كثيرا من المناوشات العائلية خصوصا بين الأزواج تقع حول التوافه من الأمور . ولكن هذه التوافه لها أهميتها الكبيرة لأن انتهازها دليل على وجود الدوافع العميقة للنزاع والعراك . وأى حل لأمثال هذه المشاكل يدور حول حوادث النزاع نفسه حلّ ناقص ، إذ يجب أن يتناول الحل الدوافع الأساسية أولا .

الباب الخامس عشر

الانحراف فى وظائف العقل

إن الصورة التى رسمها فرويد لعقل الانسان والتى شرحناها بما سمحت به الظروف فى الصفحات السابقة ، هذه الصورة تمتاز عن الصورة التقليدية فى علم النفس ، بأنها تفسر السلوك العادى للانسان ، وتفسر - فوق ذلك - مايبدو فى سلوك الأطفال من الخصائص التى تميز هذه الفترة من حياة الإنسان ، كما أنها تبين لنا كيف تحدث الهفوات فى تأدية العقل لوظيفته وتفسر لنا حدوث أحلام النوم وأحلام اليقظة ، تفسر جميع هذه بنظرية واحدة بسيطة نسبيا .

فى كل هذه الحالات تجد أن اللاشعور هو العامل الأساسى فى تكييف سلوك الإنسان ، وقد شرحنا القواعد التى يعمل اللاشعور طبقا لها ، وهذه القواعد هى ، لا تتغير ، سواء فى الأحلام ، أو سقطات اللسان ، أو فى غيرها. وهناك تفاعل دائم بين قوى العقل : النزعات من جهة ، والأنا العليا من جهة أخرى ، وبينهما الذات الشعورية (الأنا) التى تمثل العالم الواقع . وعلى قدر ما فى هذا التفاعل من سلاسة ومرونة ، على قدر ما يكون العقل سليما ؛ أى أن العقل السليم هو الذى تستطيع أناه أن توفق توفيقا سليما بين النزعات (الهى) وبين مطالب الأنا العليـا ، ومطالب البيئة الخارجية . وتمتـاز الحياة العقلية السليمة بالخلو من التوتر والشد والجذب القويين ، وغير ذلك من مظاهر الصراع النفسى ، فإذا وجدت هذه المظاهر فالنتيجة هى أن ينحرف العقل عن تأدية وظيفته انحرافا بينا ، ويقال فى هذه الحالة إن الشخص مصاب باضطراب عصبى أو « عصاب » .

ولكن هل يخلو شخص ما من مظاهر الصراع ؟ الواقع أن لكل شخص نصيبا من هذه المظاهر ، غير أن الفرق بين السليم والعصابى(١) فرق فى الدرجة

(١) Neurotic

فمن كانت صبغة حياته الغالبة هى الهدوء والاستقرار والسلاسة ، وكانت مظاهر الصراع طوارىء تزول ولا تترك أثرا واضحا أو دائما فى حياة الشخص، فهو سليم .

وأما من كانت صبغة حياته الغالبة هى الصراع : يبدو فى قلقة واضطرابه وما ينتابه من الوساوس والهواجس ، يبدو فى أفكار تقتحم عليه شعوره وتنتزعه من حياة المنطق والواقع ، وفى أعمال يجد نفسه مقسورا على إتيانها لا يستطيع منها فكاكا ، يجد نفسه ثائرة حائرة يتناوبها الشدّ والجذب ، وليس لها من الاستقرار والسلاسة إلا النزر اليسير . من كانت هذه صبغة حياته ، اعتُبر مصابا بالاضطراب العصبى « عصابيا » . والمصابون بهذا النوع من الانحراف العقلى يعيشون بين سائر الناس ، ويعملون معهم ولكنهم يكونون فى غالب الأمر تعساء ، يشعرون تمام الشعور بما هم فيه ، ويحاولون بمختلف الطرق أن يملكوا زمام أنفسهم فلا يستطيعون ، فمنهم من يشكو من مخاوف أو شكوك عنيفة من غير مبرر حقيقى ، ويعيش عبدا لهواجسه ، ومنهم من يصيبه الخجل والارتباك الشديدين فى حضرة الآخرين ، حتى إنه لينزوى عن الناس أكثر الوقت ، ويبقى وحيدا منفردا ، ومنهم من تسود عقله أفكار ثابتة تنغص عليه عيشه ، ومنهم من يجد نفسه ملزما بالقيام بحركات أو أعمال لا مبرر لها ، بل ومنهم من يصيبه عجز جثمانى ، فتقف بعض أعضائه أو حواسه عن تأدية وظائفها بغير علة عضوية ، إلى غير ذلك .

ويأتى بعد ذلك طائفة المصابين بأمراض « عقلية » « ذهانيين » (١) وهم أولئك الذين يبلغ من انحرافهم أنهم لا يستطيعون أن يماشوا الناس فى حياتهم ويبلغ من شذوذهم أن يصبحوا فى بعض الحالات خطرا على الناس أو على أنفسهم ، فيحجزون فى مستشفيات الأمراض العقلية . وهم فى الغالب لا يشعرون ولا يعترفون بما عندهم من شذوذ متنوع الأشكال ، فمنهم من يبقى وحيدا منفصلا

---

(١) Paychotics

عما حواليه وقد تدلت رأسه بين كتفيه ، يعيش نهبا لأفكاره السوداء ، كأنما هو موكل بتعذيب نفسه إلى آخر حياته ، ومنهم من تأتى عليه فترات يهتاج فيها ويبدو عليه العنف والوحشية ، فيعتدى ، ويهشم ، ويضرب ، ويؤذى غيره ونفسه أبلغ الأذى ، ويستمر على هذا الهياج ساعات بل أياما وهو يبذل جهدا لا يقدر عليه السليم مهما حاول .

وهكذا نرى أن الشذوذ على درجات : منها ما يمكن احتماله بشىء من السهولة والبساطة ، ومنها ما لا يحتمل إلا بالجهد وشق النفس ، ومنها ما يخرج عن الطوق خروجا تاما . والفرق بين السليم والشاذ هو إذن فرق فى الدرجة لا فى النوع ، فالمجانين ، أو مضطربو الأعصاب لا يكوّنون جنسا قائما بذاته ، يختلف عن غيرهم من الناس ، وإنما هم أناس قد بولغ فى بعض نواحى الضعف عندهم المبالغة التى أخرجتهم عن نطاق العاديين من الناس حتى لا تكاد تجد بينهم شبها ظاهرا فى بعض الأحيان . وبعبارة أخرى ، فإن الشخص العادىّ السليم العقل ، فى نفسه جميع البذور التى إذا نمت وتفرعت وامتدت أغصانها وجذورها وتشعبت ، أدت إلى الاضطراب أو الجنون . أليس الطفل فى سلوكه وفى نزواته ، أشبه بمرضى الأعصاب منه بالأصحاء من الناس ؟ أليس مريض الأعصاب شخصا قد نما جسمه وجاوز سنه عهد الطفولة ولكنّ نواحى من عقله لا تزال فى طفولتها عن طريق التثبيت أو النكوص (١) ؟ أو ليس المرض العقلى أو الجنون نكوصا إلى دور بدائى جدا فى حياة الطفل ، قبل أن يدخل على نزعاته تهذيب أو تعديل من أى نوع ؟ أليس الشخص العاقل فى أحلامه « مجنونا » ، تمر به الأفكار والصور ملتوية ، ناشزة ، مضطربة ؟ أليس هو طفلا تأتيه المخاوف المتناهية فى الشدة لأتفه الأسباب ؟

لعل التحليل النفسى لم ينجح إلا لأنه قد وحّد ما بين الحياة العقلية للإنسان فى مختلف أدوار نموه ، وفى متنوع حالاته العقلية . فهو فى ذلك قد عمل ما عمله

---

(١) Regression

الطب الحديث فى نظرته إلى المرض باعتبار أنه نوع من الاضطراب فى تأدية وظيفة طبيعية عادية ، فمريض القلب لايختلف عن السليم إلا أن قلبه يبالغ أو يقصر فى تأدية وظيفته ، والخلايا المصابة بالسرطان خلايا تبالغ فى سرعة النمو والانقسام والتكاثر ، والحمى تنشأ عن «تحمية» عامة فى وظائف الجسم الحيوية ، والحموضة مبالغة فى إفراز أحماض المعدة الخ وكل هذه إنما هى مظاهر لاختلال عميق فى توافق الكائن الحى مع بيئته ، فى النواحى السلبية والإيجابية ، وهى نتيجة محاولات يبذلها الجسم لكى يعيد هـذا التوافق إلى حالة ، أو لكى يبذل الجهد المطلوب فى الظروف الشاذة التى فرضت عليه ، والانحراف العقلى مثل ذلك تماما فهو ينشأ من فشل التوافق بين العقل والبيئة ، وهذا الفشل يبدو فى مظاهر « تعويضية » مختلفة للشذوذ العقلى . والمبدأ الاساسى الذى تنبنى عليه كل هذه الأعراض هو الصراع اللاشعورى بين دوافع الغريزة (الهى) ومطالب البيئة ممثلة فى الذات (الأنا) ، ثم الأنا العليا .

ونتائج الصراع متنوعة متفاوتة ولـكنها لاتخرج عما يلى :

١ — الإعلاء : حيث يطرأ على الدوافع الجنسية تغيير يؤدى إلى أن تفقد خاصة « الجنس » وتحيد فتتجه إلى أهداف غير جنسية . وقدسبق أن شرحناه بالتفصيل .

٢ — رد الفعل (١) : حيث يحدث عكس الإعلاء من حيث اتجاه الطاقة ، ففى الإعلاء تشتق الطاقة من الدوافع الغريزية نفسها وتندفع فى اتجاه مغاير ولو أنه مواز بعض الشىء لاتجاهها الأصلى ، لكى تتحاشى القوة المضادة أو « القوى الكابتة » ، فيكون سلوك الشخص معبرا عن هذه النزعات الغريزية تعبيرا غير مباشر . أما فى رد الفعل فإن سلوك الشخص يـكون تعبيرا عن القوى الكابتة نفسها فيصبح الشخص كارها للجنس « الآخر » ، أو مبتعدا عن حب الظهور ، وعلى العموم يصطبغ سلوكه بالمبالغة فى كظم الدوافع الغريزية ، والابتعاد عن كل ما يشتم منه — ولو من بعيد — رائحة هذه الدوافع .

---

(١) Reaction Formation

٣ — تكوين الخلق (١) : إن الكيفية التى يعالج بها الصراع تؤدى إلى صبغ الخلق بصبغات دائمة مدى الحياة . فهناك صفات خلقية كقوة العزيمة ، أو اشتداد المطامع ، أو الجبن ، أو الاندفاع . . الخ تتكون كنتيجة لهذه المعالجة.

وكثيرا ما يكون التكوين الخلقى مشتملا على بعض الخصائص اللاشعورية كالإلزام (٢) أو الحصار (٣) ويطلق على هذه الحالات اسم « الخلق العصابى »(٤) وهو الخلق الذى تنقصه المرونة ، وتقل فيه الواقعية ، ويبرز فيه الشذوذ ، وحالات الانحراف التى من هذا النوع أصعب علاجا من غيرها ، لأن الشذوذ يصبح داخلا فى بناء الخلق ، ومكونا لجزء من الشخصية ، بينما يسهل علاج غيرها نسبيا لأن الأعراض تكون منفصلة ، وغريبة عن الشخصية الأساسية وتبدو كأنما هى نتيجة إصابة سطحية .

٤ — الاضطراب العصابى : رأينا فى الحالات السابقة كيف أن نتيجة الصراع كانت تعبيرا فى (اتجاه واحد) عن « احدى » القوى المتصارعة . أما فى الاضطراب العصابى فالأمر ليس كذلك لأنه يتضمن تعبيرا ناقصا عن كليهما أو (حلا وسطا) للصراع لا يُشبع أيا من الطرفين . وعلاوة على ذلك فان النزعات المكبوته تحتفظ بطابعها الجنسى ولا تغيره كما هو الحال فى الإعلاء . وتعبر القوى المتصارعة عن نفسها تعبيرا ملتويا هو عبارة عن « الأعراض » العصابية . وبالاختصار فإن الأعراض هى تعبير مقنع عن الحياة الجنسية للطفولة ، ويشمل الدوافع الغريزية والقوى الكابتة معا .

وهناك نوعان أساسيان من الاضطراب العصابى : اضطراب هستيرى واضطراب حصارى (٥) .

والأعراض قد تكون إيجابية كالألم أو الأنقباض ، أو سلبية كانعدام إحساس ما أو تعطيل قوة ما .

---

(١) Character - Formation (٢) Compulsion (٣) Obsession
(٤) Neurotic Character (٥) Ernst Jones : Psycho Analysis, p.47

وقد تكون الأعراض جثمانية : كالتقيء المستمر ، أو فقد الإبصار ، أو عقلية صرفة ، كالخوف الشديد ، أو الميل إلى تعذيب الغير .

وأخيراً قد لا تكون الأعراض محدودة كل هذا التحديد ، بل تكون مائعة من وجهة التشخيص ، كالشكوى من الشعور بالتعاسة الشديدة ، أوعدم المقدرة على معالجة المشاكل العائلية ، أو مشاكل الزوجية ، أو الفشل فى الحياة الاجتماعية ، أو المهنية .

ويرجع الاضطراب الى الظروف المصاحبة لتطور الغريزة فى عهد الطفولة إذ تكسب الشخص بناء عقليا خاصا ، يجعله قابلا للتأثر بصفة خاصة عندما تواجهه ظروف معينة ، وقد تكون هذه الظروف تافهة فى نظر الشخص العادى ، وقد تكون مما يعتبره الشخص العادى ظروفا صعبة ، كالحزن أو الإفلاس أو التعرض للأخطار إلى آخر ذلك ؛ وقد تكون متسعة بحيث تشمل الحياة بأكملها ، ومن هذا القبيل الحالات التى تنهار فيها الشخصية فى أعمار معينة عندما يواجه المرء بمشكلات الحياة . ففى أمثال هذه المواقف نجد أن الشخص المهيأ للاضطراب قد انطوى على نفسه هروبا من مواجهة المشكل ، فيحدث عنده ما يسمى بالقبض ، إذ يتحلل من مواجهة الحياة ومعالجة مشاكلها بأن يخلق لنفسه جوا وهميا يخدعه عن حقيقة الأمر ، ولا تلبث العناصر الخيالية أن تندمج مع عناصر لا شعورية قديمة من نوعها ، فيتسبب عن ذلك نكوص الى مستوى طفلى ، وبذلك يتشعع الاضطراب فى طبقات أعمق فأعمق من اللاشعور ، وتكون النتيجة أن النزعات القديمة المكبوتة تتحرك ويزداد إلحاحها فى سبيل الإشباع ، وتكون الأعراض معبرة عن هذه النزعات .

وعلى ذلك فكل اضطراب عصبى عبارة من نتيجة لصراع لاشعورى بين العناصر الأساسية فى الشخصية .

وكل مصاب بالاضطراب ، هو شخص « موثق » إلى فترة معينة من حياته الماضية تثيرها مواجهة مواقف تعتبر — من وجهة نظر اللاشعور — تكرارا

لأحداث هذه الفترة الماضية ، ويمكن توضيح ذلك بمعادلة كالآتية :

أسباب الاضطراب العصابى = { استعداد ناتج عن التثبيت الغريزى } + تجارب طارئة(١)

الاستعداد الموروث — تجارب الطفولة

وعلى ذلك فأساس الاضطراب يوضع فى الطفولة ، ويبقى كامنا ، حتى يأتى من المواقف الانفعالية فيما بعد ما « يطابق » الأساس ، فيتصل به ، فتتكون الأعراض ، التى تعبر عن هذا الحلف بين الماضى والحاضر نتيجة لهذا الاتصال .

وعلى ذلك فالأعراض العصابية نكوص إلى جنسية الطفل ، مبنى على تثبيت حدث فى عهد الطفولة ، والعلاقة بين النكوص والتثبيت علاقة وثيقة .

فمعنى التثبيت ، كما قلنا ، أن بعض مكونات الغريزة لا تصل إلى نهاية المرحلة المعدة لها بل تقف فى وسط الطريق فيقال إنها (ثبتت) ، بينما تستمر المكونات الأخرى فى سبيل تطورها الطبيعى ، كالقافلة التى يتخلف بعض أفرادها ، أو كالجيش الذى يتقدم مسافة بعيدة ويترك فى طريقه بعض المتخلفين ، وكلما كثر عدد المتخلفين قل عدد الجيش المتقدم ، وقد يصل من القلة إلى درجة تجعله عاجزاً عن التقدم عند أول صدمة ، فينكص ، على عقبيه . فالتثبيت فى عهد الطفولة إذن هو الذى يمهد الطريق للنكوص فى عهد « النضج » . والوصف الصحيح للحالة هو أن العقل ، يجد نفسه أمام مشكل يتعذر عليه مواجهته لأسباب لا شعورية ، فينكص إلى عهد الطفولة فى بعض نواحيه ، وليس ذلك بمستغرب لأن العقل يقول بلسان الحال « إنى لا أزال طفلا ، فلا قبل لى بمجابهة الموقف » . وهو طبعا لا يقول ذلك صراحة وإنما تترجمه عنه الأعراض . فالأعراض كما

(١) Freud. Introd. Lect. to Psycho - Analysis

قلنا ذات معنى وذات وظيفة معينة ، ويمكن تلخيص هذه الوظيفة فى أنها تحقق ما تعذر تحقيقه فى عالم الواقع ، عن طريق الوهم أو الخداع . فكأن العقل إذ لا يجد الأشباع فى حاضره ينتقل إلى ماضيه ، ويبحث عن فترة كان يحصل فيها على إشباع خيالى — مما هو طبيعى فى الطفولة — فيكرر هذا الاشباع الخيالى بصورة مقنعة . وقد يكون هذا الاشباع لا بأس به فى نظر اللاشعور — الذى يتجاهل الزمان — ولكنه يقابل بالذعر والتقزز من الشعور ، ولعلنا ندرك ذلك إذا تصورنا رجلا وجد نفسه مرغما — لاشعوريا — على أن يرضع من الثدى ، أو يجلس على « قصرية » . وعلى ذلك فهذا الاشباع الخيالى لا يقوم بالنسبة للشعور مقام الاشباع الحقيقى وهذا التفاوت بين قيمة الاشباع فى نظر الشعور واللاشعور من أهم مظاهر الاضطراب العصابى .

والصراع الداخلى فى حالة المصاب بالاضطراب العصابى يختلف تماما عن الصراع العادى بين نزعتين متضادتين فى الشعور ، لأن الصراع فى الحالة الأخيرة هو بين نزعتين تتبعان نفس المستوى من العقل ، بينما فى الحالة المرضية ، يكون الصراع بين مستويين مختلفين . فاحدى النزعتين شعورية ، والأخرى لا شعورية ، وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن أن يحل الصراع بينهما ، لأن النزعتين المتعارضتين لا تتقابلان وجها لوجه . ولا يمكن الوصول إلى قرار حاسم إلا إذا تقابلتا فى نفس المستوى . ووظيفة العلاج التحليلى هى انتشال النزعة اللاشعورية إلى مستوى الشعور ؛ وبذلك فقط يمكن حل الصراع الذى يصبح فى هذه الحالة بين متكافئين .

ويظن البعض خطأ أن العلاج التحليلى يوعز إلى المريض أن يطلق العنان لشهواته الجنسية ، وألا يقيد نفسه بالقيود الخلقية المألوفة ، وليس ذلك صحيحاً بالمرة ، لأن وظيفة التحليل أن يعنى بالكبت الذى انصب على مكونات الغريزة فى الطفولة ، باعتبار أنه السبب الأساسى لما قد ينشأ بعد البلوغ من متاعب جنسية أو غيرها ، ومن الأخطاء الشائعة أن الامتناع الجنسى سبب من أسباب

الاضطراب العصبى . كما أن من الأخطاء الشائعة اعتبار الحرية الجنسية علاجا للحالات العصبية . وكلا الأمرين يصح أن يكون مظهراً من مظاهر الحياة السليمة أو شبهها ، كما يصح أن يكون مظهراً من مظاهر الانحراف أو عرضاً من الأعراض المرضية . ويتوقف على ذلك مقدار تلونه بلون الصراع ، وأثره فى السلوك العام للشخص ، وعلى الصلة بينه وبين باقى نواحى شخصيته وكلاهما فى الواقع نتيجة لاسبب ؛ هو نتيجة لما مرّ بالفرد فى طفولته ، ولكنه ليس العلاج ، لأن العلاج ينصب على الماضى ويجعل الشخص أقدر على مواجهة الحاضر وما فيه من أزمات ومصاعب .

أمثلة لبعض أنواع الاضطراب العصابى (١)

القلق العصابى (٢) :

ويظهر فى حالة من القلق العام تنتاب المريض . يصحبها ارتعاش وينصب العرق بغزارة من جسمه فى هذه الأحوال ، وتنتابه الأحلام المفزعة وينوء تحت شعور بالهم والتوجس . وعناصر الصراع فى هذه الحالة تكون متقاربة بمعنى أن العناصر المكبوتة تكون قريبة من الشعور ، فتكون الأنا مهددة تهديداً مباشرا ، وذلك هو سر الشعور بالقلق والوهم والتوجس .

النوراستينيا (٣) :

وتظهر فى شعور بالتعب والإنهاك العام — ينام المريض نوما عميقاً ولكنه يستيقظ متعباً أكثر مما كان ، وهنا تكون عناصر الصراع بعيدة عن الشعور وعميقة ، لدرجة تجعل الشخص لا يشعر بمخاوف أو رغبات أو قلق ، بل بالعكس كثيراً مايكون المريض هادئا بليداً ، لا يبدو عليه أثر الرغبة أو العاطفة المشبوبة . ولكنه دائما متعب ، وهو متعب لأنه يصرف طاقته فى كبت النزعات

---

(١) Hadfield : Psychology and Morals

(٢) Anxiety Neurosis

(٣) Neurasthenia

وإبقائها بعيدة عن الشعور ، فكأن هذه المعركة اللاشعورية الدائمة تُنهك قواه إنها كا دائما بغير أن يشعر . وهو ينجح فى محاولته ، ولكن القوى التى يستخدمها لا تترك له بقية تكفى لشئون حياته العادية ، فيشعر بالتعب الجثمانى والانحطاط العقلى الدائم .

وكثيراً ما تبدو أمثال هذه الأعراض على بعض ذوى الخلق الجامد الذين تصرفون طاقتهم فى كبح نزعاتهم ولا يسمحون لأنفسهم بأن يتمتعوا بما يعتبره الآخرون مشروعا : وأمثال هؤلاء قد يعتبرون فى نظر الناس «طيبين» ولكن يندر أن يكونوا سعداء .

الهستريا التحولية (١) :

هنا تظهر أعراض الصراع على شكل نقص أو عجز جثمانى محدد ، كفقد الابصار أو الاحساس ، أو فقد القدرة على تحريك بعض الأعضاء ، أو على شكل آلام تصيب أجزاء معينة من الجسم ، أو قىء مستمر ، إلى غير هذه من الأعراض الجسمية التى ليس لها ما يبررها من الوجهة الفسيولوجية . وتطلق على هذه الأنواع الهستريا التحولية ، لأن العرَض الجسمى يُستبدل بالعرض النفسى ، أى أن الصراع النفسى يتبلور ويتخذ مظهراً جسميا يتعلق به . وهذا المظهر يؤدى فى الغالب إلى نقص فى التوتر النفسى ، فكثيراً ما تتحسن حالة المريض النفسية كثيراً بعد ظهور العرض الجسمى .

وهناك حالات لا يتحول فيها الصراع إلى عرض جثمانى ، بل يظهر على شكل عرض عقلى محدد ، كفكرة ثابتة ، أو انفعال عنيف ، ومثل ذلك أنواع المخاوف (٢)

الحُصار (٣) والإلزام (٤) :

وفيهما يجد المريض أن هناك أفكارا تطارده وتضطره إلى أنواع من السلوك

---

(١) Conversion Hysteria (٢) Phobias
(٣) Obsession (٤) Compulsion

الشاذ كأن يغسل يديه باستمرار ومن هذا القبيل سيدة كانت تمر على البيوت وتطلب من الناس أن يقفلوا صنابيرهم ولا يدعوها تسح الماء، وأخرى كانت لا تتناول من أحد شيئا إلا إذا غسل مراراً وتكرارا، وثالثة تقوم من نومها مراراً لتتأكد من أن الأبواب مقفلة. والحصار والإلزام متشابهان وإنما يطلق الحصار على الحالات التى يغلب فيها تسلط الفكرة، بينما يطلق الإلزام على الحالات التى يغلب فيها أن يجد المريض نفسه ملزما بالقيام بأعمال معينة.

ازدواج الشخصية[١]:

وقد اشتهر أمره لما يثيره من الغرابة إذ يكون للشخص الواحد جانبان أو شخصيتان منفصلتان، تجهل كل منهما كل شيء عن الأخرى، والواقع أن هذه حالة متطرفة مما يحدث لكل فرد من انقسام فى شخصيته يتجلى فى أحلامه مثلا، فلاشك أن الأحلام تمثل وجهة نظر تختلف تماما عن وجهة نظر الشعور ويمكن النظر إليها على أنها تعبير عن شخصية ثانية للإنسان.

الاضطراب العقلى: (الجنون) أو (الذُهان)[٢]:

وهى حالات متطرفة يصل فيها الشعور إلى أن يصبح خاضعا خضوعا تاما للعوامل اللاشعورية، وتصبح الذات عبارة عن بوق لهذه العوامل وتفقد كل مميزاتها باعتبارها إحدى القوى الفعالة فى الشخصية.

أمثلة لبعض الحالات:

ليس شيء أكثر تشويقاً من الدراسة التفصيلية لحالات الاضطراب العصبى ومتابعة الأثر الذى يحدثه العلاج التحليلى فيها. ولكن حجم مثل هذا الكتاب لا يتيح لنا أن نفعل ذلك، لأن دراسة تفصيلية لحالة واحدة، قد تستغرق كل صفحاته أو أكثر. ولكن ذلك لا يمنع أن نورد تلخيصاً لبعض حالات

---

(١) Dual Personality

(٢) Psychosis

نموذجية . ولا يقل تشويقا عن ذلك تحليل بعض الأعمال الفنية الكبرى أو دراسة طرز معينة من الشخصيات ، وفيما يلى بعض الحالات ماخوذة عن فرويد من (مجموعة بحوث ، المجلد ٣ ، ٤)(١) .

١ — رجل فى سن السابعة والعشرين موهوب متعلم تعليما راقياً ، كان يشكو من أن حياته مملوءة بصراع مع والدته ، أثر تأثيراً سيئاً فى حياته الخاصة والعامة .

وهذا الصراع يرجع إلى عهد الطفولة ، فقد كان إلى سن الرابعة وحيد أمه ، ولم يكن يشاركه أحد فى حبها وحنانها ، وفى حوالى هذه السن ، ولد له أخ ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح عنيدا ، صعب القياد ، وأصبح يستجلب سخط أمه دائما ، بعد أن كان طفلا هادئاً سهل القياد ، وعندما أتى للعلاج كانت غيرته من أخيه قد اختفت تماما ، وكان يعامل أخاه هذا بمنتهى العناية ، ولكنه كان يشكو من نزوات طارئة تتملكه أحيانا ، فيشعر بدافع فجائى لأن يعذب حيوانا أليفاً له ، ومن تلك كلابه وطيوره التى يعنى بها عادة كل العناية . ويفهم من هذا أن رغبته فى انزال الأذى بأخيه ، قد تحولت إلى هذه النزوات نحو حيواناته الأليفة ، بينما أصبحت معاملته لأخيه معاملة مودة عادية .

وقد ظهر أنه فى طفولته قد هاجم أخاه وهو فى مهده ، كما ظهر أنه فى حوالى ذلك الوقت حدث أن أمسك بجميع ما استطاع أن يحصل عليه من أوانى البيت وألقى بها خارجا من النافذة ، وهذا عمل رمزى يرمى إلى التخلص من هذا الضيف الثقيل وهو الأخ بإلقائه من النافذة ؛ وبما أنه لا يستطيع(٢) أن يلقى الطفل بنفسه فهو يلقى الآنية بدلا منه . وهو لم يغفر لأمه إشراكها لأخيه فى محبته وذلك سر معاملته لها فى كبره .

٢ — حالة فتاة فى سن السابعة عشرة (دورا) كانت دائمة الاتهام لوالدها بأن له علاقات مريبة بمدام (س) ، وهى زوجة صديق له ، وكانت تتهم (س) نفسه وهو زوج هذه السيدة وصديق والدها ، بأنه يحاول أن يكوّن معها هى (دورا) ، علاقات من نفس النوع ، وقد كانت تنتابها أعراض هستيرية ، هى

---

(١) Freud : Collected Papers (٢) الاستطاعة هنا نفسية أكثر منها مادية .

عبارة عن نوع من السعال والألم فى الحلق ، مع فقدان الصوت ، يتردد عليها بين حين وآخر .

وكانت العلاقة بين العائلتين علاقة متشابكة الأطراف ، والغريب أن والدة دورا كانت أمرأة هادئة لا يهمها من أمر علاقة زوجها شيء ، وكانت الابنة تحتقر أمها وتعاملها معاملة شخص فى مستوى أقل من مستواها ، ولكنها كانت تقوم « بدلها » بدور الغيرة على الأب من علاقاته مع مدام (س) ، وكانت دائما تحتج على أبيها ، وتستاء من سلوكه ، وتشك فى كل علاقة له مع مدام (س) ، وقد كان الأصل فى علاقة الأب بمدام (س) أنها كانت تمرضه عندما كان مريضا بالسل ، الذى شفى منه بعد ذلك بفضلها كما يقول ، ولكن هذه الحالة جعلته غير قادر على أن يكون له اتصال جنسى حقيقى مع أية أمرأة ، ويبدو من هذا الشرح كيف أن الفتاة كانت « مندمجة » فى شخصية الأم رغم كراهتها الظاهرة لها ، وكيف أنها كانت « تحب » والدها وتغار عليه من مدام (س) ولكن التحليل أظهر أكثر من ذلك وهو أنها فى الواقع كانت تحب مدام (س) وتغار عليها من والدها ، وهذا هو تفسير الأعراض التى كانت تنتابها وهى (السعال) حيث إن سر اهتمام مدام (س) بوالدها كان مرضه الصدرى فكأنها اصطنعت « لاشعوريا » مرضا مشابها له لكى تفوز بعنايتها . كما أن شعورها نحو زوج مدام (س) كان شعورا مزدوجا من حب وكراهية . فقد كانت تعنى فى مبدأ الأمر بأبناء مدام (س) وتعلمهم ، وكانت الأعراض تنتابها فى فترات غياب (س) . وقد كانت مقابلتهم الأولى فى أحد المصايف ولكن (س) على ما يظهر حاول أن يقبلها فى يوم من الأيام ، فانتزعت نفسها منه وأصبحت تعمل على ألا تبقى معه وحيدة فى مكان ما ، والغريب أنها لم تذكر هذه القصة لوالدها إلا بعد مضى مدة ، ولما سئلت أثناء التحليل عن سبب ذلك ذكرت أنها كانت « تتوقع » أن يعيد الكرة .

ومن الحالات الطريفة تلك التي يظهر فيها أن الشخص يجاهد في حياته

ويكافح للوصول إلى غرض يعتبره غاية حياته ، حتى إذا نجح ووصل إلى هذا الغرض انهارت قواه ، أو أصبح فى حالة لا يستطيع معها أن يقطف ثمرة متاعبه ، وإليك أمثلة من هذه الحالات :

٣ — فالحالة الأولى : فتاة فى مقتبل العمر لم يستطع المنزل أن يشبع رغباتها الجامحة لأنها لم تجد من يقدر جمالها وذكاءها ، فهربت وظلت تحيا حياة شاردة حتى التقت بفنان موهوب استطاع أن يقدر ميزاتها فعاشرته وعاشت سعيدة معه لا ينقصها إلا أن يعترف المجتمع بعلاقتها به فتحصل على السعادة الكاملة ، وبعد بضع سنين استطاع هذا الفنان أن يحصل على موافقة عائلته على الزواج منها . وما أن وصل ذلك إلى سمعها حتى انهارت انهيارا . فأهملت المنزل الذى كانت تصبو إلى أن تكون سيدته المعتبرة ، وطافت بنفسها أوهام غريبة ، فكانت تتخيل أقارب زوجها يتآمرون عليها ويظلمونها ، وظهرت عليها علامات جديدة للغيرة الشديدة فحرمت على رجلها كل اتصال اجتماعى ، وتدخلت فى عمله وأربكته ، وسرعان ما أصيبت بمرض عقلى غير قابل للشفاء .

٤ — والحالة الثانية : حالة مدرس فى الجامعة كان أمله بعد سنوات طويلة أن يحل محل الأستاذ الذى تتلمذ على يديه ، وزامله سنين طويلة ، وعندما تقاعد هذا الأستاذ المسن ، واتفق جميع زملائه على أن صاحبنا هذا هو الوحيد الذى يصلح لأن يأخذ مكانه ، بدأ يتردد ، بدأ يتحدث عن ضعف مواهبه ، وعدم أهليته لملء الفراغ الذى طلب منه أن يملأه ، وما لبث أن أصيب بحالة من الوجوم والانقباض أوقفت كل نشاطه سنين طويلة .

ويظهر أن هذه الحالات راجعة إلى أنه كثيرا ما يُسمح بظهور الرغبة وترددها فى الشعور ، طالما كانت بعيدة التحقيق ، إذ يكون خطرها فى هذه الحالة ضئيلا ، فإذا تغيرت الأمور وأصبح الخيال حقيقة توشك أن تصبح واقعة ثارت الأنا ضدها ، وعملت على منع تحقيقها بمختلف الوسائل ، ويظهر من التحليل أن الدافع الذى يؤدى إلى هذا الحال هو قوة مشتقة من « الأنا

العليا ، تحرم على الشخص اجتناء الثمرة التى جاهـــد فى سبيلها ، عقابا له على خطيئة لاشعورية .

فالنزعات الغريزية التى ترمى إلى الأشباع تروم تدمير كل عقبة فى سبيل هذا الإشباع فتتمنى الموت لمن يقفون فى سبيلها ، والقوى المشتقة من الأنا العليا تعارض فى هـذه النزعات المدمرة ، وتطلب إلى الأنا إيقافها ، ولـكن هـذه لاترى خطرا منهـا مادامت بعيدة عن التحقيق . فاذا تحققت فإنهـا تنزل على إرادة الأنا العليا ، وتنزل العقوبة التى تؤدى إلى الحرمان من اجتناء ثمرة النجاح .

ولعل من خير الأمثلة على ذلك مثال « ليدى مكبث (١) » من شخصيـات شـكسبير وهى التى دفعت زوجهـا دفعا لتحقيق النبوءة التى تنبأت له بها الساحرات ، فقتل الملك « دنكان » وعملت بنفسها على إبعاد الشبهة عنه . فلمـا تم النجاح ونالت أمنيتها ، فأصبح زوجها ملـكا ، وهى بالتالى ملـكة ، لم تستطع تحمل النجاح فانهارت وأصاب عقلها الخبل وما لبثت أن ماتت . ومن الغريب أن شكسبير قد أوضح الحالة بما لا يترك مجالا للشك فى فهمه لها ، فعندما دخلت لترى الملك وهو مقتول ، وتأخذ من دمه وتلطخ به أيدى الحارسين اللذين دست لهما المخدر فى الخمر حتى تقع عليهمـا تبعة القتل ، خرجت وهى تقول « إن الرجل العجوز كان يشبه والدى وهو ملقى على سريره » ، فـكأن الجريمة من الوجهة اللاشعورية جريمة ضد والدها — وذلك يظهر لنا صدى « عقدة أوديب » التى تـكونت فى الصغر ، والأنا العليا كما عرفنا من ثمرات هذه العقدة .

---

(١) Lady Macbeth

الباب السادس عشر

المدارس المشتقة من التحليل النفسى

« يونج وأدلر »

كان يونج وأدلر كما سبق أن ذكرنا من تلاميذ فرويد ، وقد اتخذ كل منهما لنفسه بعد ذلك وجهة مستقلة وأنشأ مدرسة خاصة به تعتبر مستقلة عن مدرسة التحليل النفسى الأساسية .

ولكن الكثيرين يعتبرون هاتين المدرستين مشتقتين من التحليل النفسى وذلك لاصطباغهما ، رغم استقلالهما ، بصبغة لم تكن لتوجد لولا علاقة مؤسسيهما السابقة بالتحليل النفسى .

وبين المدارس الثلاث نقط تعتبر نقط اتفاق ، ولكن الخلاف بينها أوضح وخصوصاً على المسائل الأساسية كاللاشعور والجنسية .

وبالرغم من ذلك فان كثيرا من الكشوف التى ظهرت فيهما لا تعتبر مناقضة للتحليل النفسى مناقضة أساسية ، وإنما تعتبر إضافات إلى معلوماتنا عن الإنسان إذا نظرنا إليها من الناحية السيكولوجية الصرفة ، وذلك مثل « الأنماط » ، عند يونج ، ومثل فكرة « الشعور بالضعة » عند أدلر . وسنهتم فى هذا الباب بإيراد هذه النواحى ونمر على سواها مرا سريعا .

اشتهر يونج بالأنماط النفسية (١) التى وصفها ، فهو يميز بين نمطين متميزين من الناس المنقبض (٢) والمنبسط (٣) .

والمنقبض شخص تتجه طاقته الغريزية إلى داخل نفسه وتكيفه على البيئة التى يعيش فيها يجعله ينظر إلى البيئة من وجهة النظر الشخصية ، فهو يحاول

---

(١) Jung : Psychological Types 1930 (٢) Introvert (٣) Extravert

أن يكيف الحقائق والأشياء طبقا لحاجته النفسية . أما المنبسط فهو شخص يهتم بالعالم الخارجى كما هو، ولا يحاول أن يخضعه لنزعاته واتجاهاته النفسية ؛ هو شخص يَقبل العالم ويتعامل معه كما هو فى الواقع ، بل إنه ليكيف نفسه حتى تلائم هذا العالم المحيط به .

وفى نظر يونج أن الانسان الذى يكون منقبضا فى الشعور يميل إلى أن يكون منبسطا فى اللاشعور ، وبالعكس .

والمنقبض شخص يميل للعزلة والانزواء ، ويهاب الناس ويظهر على وجهه الخجل حينما يواجههم، والتلعثم حينما يضطر إلى محادثتهم ، هو شخص يجعل حياته ملكا له يحيطها بسياج من التكتم والاستتار ، لا يميل لإبداء آرائه ، أو للاشتراك فى المناقشات العلنية ، وإذا اختار ملابسه فضل الألوان القاتمة على الألوان الزاهية ، وإذا اختار مهنته فضل المهنة التى تسمح له بالتفكير والانتاج بعيداً عن الاحتكاك بالناس على مدى واسع ؛ شخص قليل التعرف بالناس ، قليل الأصدقاء ، تكاد تتبينه فى مشيته وفى لفتته وفى مصافحته باليد ، يظهر إنقباضه فى أسلوب كلامه وأسلوب كتابته ، بل وفى تنسيق بيته وفى نظام حياته وفى الأعمال التى يفضّل مزاولتها والكتب التى يفضل قراءتها ، يظهر فى جِدّه وفى هوايته ، فى مرحه وفى مباذله ، وبالجملة فإن الانقباض طابع يطبع حياة الشخص ويظهر فى مختلف ألوان سلوكه . ومن الغريب أن الشخص المنقبض إنما هو منقبض فى سلوكه الظاهرى فقط ، أى أنه منقبض من وجهة الشعور فقط ؛ أما من ناحية اللاشعور فهو منبسط ، راغب فى الاختلاط والاجتماع ، متجه إلى العالم المحيط به ، يأنس إليه من أعماقه ولكنه يهابه فى ظاهره .

أما المنبسط فهو شخص يتجه بكلية نفسه إلى البيئة ، يأنس إلى الناس ، ولا يهابهم ، يحدّث القريب والبعيد بلا خوف ولا وجل ، يفعل ما يحلوله بلا كثير تحفظ ، يكثر من المعارف والأصدقاء ، يلبس الزاهى من الألوان ، ويظهر انبساطه فى مختلف نواحى حياته المختلفة . ومن الغريب أيضا أن أولئك

المنبسطين الذين نراهم يخطبون الجماهير ولا يهابونها ويتحركون فى المجتمع ولا يتحفظون فى القول أو الفعل ، إنما هم فى أعماقهم منقبضون، وكأن مظهرهم هو رد الفعل «لمخبرهم» ، كالجبان الرعيد الذى إذا واجهته المخاطر انقلب جريئا مجازفا بحياته لا يهاب شيئا .

وبين هذين الطرفين المتناقصين ، يقع أوساط الناس ممن يتراوح سلوكهم بين الانبساط والانقباض، فتزيد فى أحدهم درجة الانبساط بمقدار ما تقل درجة الانقباض وبالعكس ، وهؤلاء يكونون الأغلبية الكبرى بين الناس .

والانبساط أو الانقباض قد يكون مظهرا سليما عاديا وقد ينقلب إلى مظهر شاذ مرضى فإذا زاد الانقباض إلى الحد الذى يجعل الشخص راغبا عن الحياة الجماعيه إلى الدرجة التى تجعل من حياته جحيما ، والتى تجعل من انقباضه عبئا لا تحتمله مطالب الحياة العادية ، فينزوى حيث يجب الظهور والإقدام ، ويهرب من تكاليف الحياة ، ويرى الأشياء والحوادث بمنظار قاتم مقلوب أوحت اليه به نفسه المنقبضة ، إنما يعتبر شاذا لا تقوم حياته على مواجهة الوقائع.

كما أن المنبسط المتطرف فى انبساطه ، الذى يصبح عبئا على الناس ، ينتقل من جمع إلى جمع يتحدث حيث يجب السكون ، ويقول مالا يحسن أن يقال ، لا يجد جمعا إلا وقف فيه خطيبا ، ولا حادثا إلا دخل فيه شاهدا ، ولا شخصا إلا أوقفه يحدثه عن نفسه ، يطارد من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، ولا يجد فى نفسه دافعا يدفعه إلى تحفظ أو خجل أو اعتكاف ، فهو شخص زاد تطرفه حتى أصبحت حياته العملية والاجتماعية معرضة للخطر وأصبح فى عداد الشواذ.

وقد يصل الأمر بهذا وذاك إلى أن يصبح احتمالهما مستحيلا على الناس ، فيجدان فى النهاية مكانهما فى مستشفيات الأمراض العقلية بجانب غيرهما ممن قصُر المجتمع عن احتمالهم. وإذا دخلت أحد هذه المستشفيات فإنك تجد النمطين متمثلين تمام التمثيل ، فتجد فريقا من المرضى قد اختلى كل بنفسه ، وانزوى عن العالم الذى يحيط به ؛ منهم من وقف فى وسط المكان وقد غطى رأسه وجسمه

بغطاء يخفيه عن الأعين ويخفى عنه ما يحيط به من الناس والأشياء، ومنهم من وضع رأسه بين يديه فى ركن قصىّ ورفض الكلام أو تناول الطعام، ومنهم من ندر أن يفتح فمه بكلمة . . . ثم تجد آخرين يهرولون ويجرون ويصيحون ويخطبون ويهتفون، لا يسكت لهم صوت ولاتهمد لهم حركة .

هذان هما النمطان الأساسيان للحياة العقلية كما وصفها يونج. وقد أطلق يونج على هذين النمطين « نمطى الاتجاه العام » (١) . وعاد فقسم الناس إلى أربعة « أنماط وظيفية »(٢) هى التفكيرى (٣) ، والوجدانى (٤) ، والإحساسى (٥)، والإلهامى(٦) .

فالإنسان قد يكون منقبضا تفكيريا ، أو منقبضا وجدانيا ، أو إحساسياً ، أو إلهاميا . وكذلك بالنسبة للمنبسط . فلكل فرد نمطه الاتجاهى العام، ثم نمطه الوظيفى الذى يحدد الكيفية التى يظهر بها النمط الأول فى سلوكه .

فالنمط التفكيرى يشمل أولئك الذين يغلب عليهم الفكر فى توجية سلوكهم، فإذا كان التفكير متجها إلى داخل النفس كان الشخص منقبضا ، أما إذا كان متجها إلى خارجها كان منبسطا ، ومعظم الفلاسفة من النوع الأول ، بينما نجد الاجتماعيين وبعض علماء الطبيعيات من النوع الثانى .

أما النمط الوجدانى فيمثل الشخص الذى تتحكم فيه عواطفه أكثر من فكره . فإذا كان منقبضاً كانت عواطفه قوية عميقة ، أما إذا كان منبسطا فإن منطق حياته يكون مستمدا من الانفعالات والعواطف السطحية. ويغلب أن يكون النساء من الطراز الأخير .

أما النمط الإحساسى فهو الذى يهتم بالعالم الخارجى كما يظهر له عن طريق الحواس ، كالفنان الذى يتأثر بالألوان والأشكال والأصوات التى تعرضها له الطبيعة ، تأثراً يرتبط أشد ارتباط بالأثر النفسانى الداخلى، ولذلك فهو منقبض،

---

(١) General attitude Types (٢) Functional (٣) Thinking
(٤) Feeling (٥) Sensation (٦) Intuition

أما الرجل «العملى» الذى يهتم بالعالم الخارجى كما هو، ويراه كما تعرضـــه له الحواس بلا نقص ولا زيادة فهو الإحساسى المنبسط.

وأخيراً نجد الإلهاميين، أولئك الذين يسـيِّر حياتَهم «الإلهام» أو الفطنة التى لا تستند إلى منطق واضح أو عاطفة واضحة. ونجـــد المتصوفين من النوع الإلهامى المنقبض، بينما نجد أغلب الخطباء والسياسيين من النوع الإلهامى المنبسط.

هذا ملخص قصير لنظرية يونج وهى نظرية قد لاقت أكبر التقدير فى محيط المشتغلين بعلم النفس، وقد أوحت بكثير من البحوث التجريبية، وقد اختلف يونج مع فرويد فى اعتبارين: (الأول) أن الطاقة الغريزية الأصلية(١) أصبحت عنده تشمل مجموع النزعات على اختلافها بينما هى منصـبة عند فرويد على مكونات الغريزة الجنسية (٢).

واللاشعور عنـد يونج يشمل طبقة أعمق من الطبقة التى وصفهـا فرويد. فهناك ما يسميه «اللاشعور الجمعى»(٣) الذى يتكون من الأصول البدائية لما مر على الإنسانية فى مراحلها المختلفة من أفكار وحاجات وآمال. ويضـاف هذا اللاشعور الجمعى إلى اللاشعور الفردى عنـــد كل شخص، وهو الذى يشمل ما تـكون من الـكبت فى حياته الخاصة.

ووظيفة التحليل عنـــد يونج لا تقف عند ماضى الشخص وإنما تمتد إلى مستقبله، فالأحلام مثلا لها مهمة وظيفية تتعلق بالمستقبل، فوق مهمتها التفسيرية المتعلقة بالماضى، فمعناها لا ينصب على الأشياء والأشخاص فقط، وإنمـا يتعلق أيضا بالاتجـاهات العقلية التى ترمى إلى أغراض مسـتقبله، كالميل للتحرر من النزعات البدائية أو الوصول إلى السمو الفكرى.

---

(١) Libido (٢) Cmoponents (٣) Collective Unconscious

سيكولوجية أدلر (١) :

وتتلخص سيكولوجية أدلر فى أن الغرض الذى يرمى إليه الفرد هو الوصول إلى القوة والسيطرة والسمو ، وأن هذا الدافع نحو السيطرة مشتق من الشعور بالضعف والضعة الذى يحس به الفرد فى طفولته . فليس هناك ما يبهر نظر الطفل فى مبدأ حياته مثل الفرق الهائل الذى يلمسه بين ضعفه وقلة حيلته وبين مظاهر القوة والقدرة التى تحيط به . وعلى ذلك تصبح حياته صراعا فى سبيل الوصول إلى السيطرة والقوة . وبما أن الإناث يبقين فى منزلة ثانوية من حيث السيطرة طول حياتهن ، فإن هذه النزعة تظهر عندهن بكيفية خاصة فتبدو فى صورة « رغبة شديدة متغالية فى الذكورة » تبحث عن التحقق بصور متعددة ويدسب إليها كثير من المتاعب التى يلقينها .

وبما أن كل فرد يكتشف فى نفسه نقطة ضعف أو نقص فى ناحية ما ، فى الجسم أو فى العقل ، فإن جهوده فى الوصول إلى السيطرة سرعان ما تتأثر بهذا الكشف ، فيسعى إلى التغلب عليه بإحدى وسائل ثلاث :

(الأولى) مباشرة : وهى ترمى إلى التغلب على الضعف . والوصول إلى القوة فى نفس المجال الذى يشعر فيه الفرد بالضعف . وخير مثال لذلك هو ديموستينس الخطيب الرومانى المشهور ، الذى بدأ حياته الكلامية بالفأفأة ، وما لبث أن هاجم هذا الضعف فى نفسه وأصبح أشهر خطيب عرفه العالم .

(الثانية) غير مباشرة : وهى ترمى إلى محاولة السيطرة والسمو فى مجال آخر يختلف عن ذلك الذى يجد فيه الشخص ضعفه ، فالشخص الضعيف الجسم يحاول أن يبرز فى الناحية الفكرية ، وضعيف العقل يحاول أن يسيطر فى الناحية الجسمية ، ومن رزق وجها قبيحا يحاول أن يجتذب الناس إلى سلطانه بأن يصطنع نفسا جميلة .

(الثالثة) وهمية : يلجأ فيها الشخص إلى الهروب من مواجهة ضعفه فى

---

(١) Adler : Understanding Human Nature & The Science of Living.

حياة الواقع ، فيخلق لنفسه جوا وهميا يسيطر فيه ، أو يصطنع « سبباً » ينسب إليه فشله وضعفه ، كمرض جسمى أو عقلى ، فكأنه يقول بلسان الحال « هأنذا مريض لا أستطيع العمل ولو استطعته لبززت غيرى وظهرت على منافسىّ » .

وهذه الطريقة لمواجهة الضعف طريقة مَرَضية ، يكون السلوك فيها من قبيل الأعراض التى لا تؤدى غرضاً واقعياً ولا قيمة لها فى الحياة العملية .

ولكل فرد « أسلوب للحياة »(١) يصطنعه فى مبـــدأ حياته للتغلب على مشكلات الضعف التى تواجهه ، ويتوقف هذا الأسلوب على ظروف طفولته وهذا الأسلوب هو الذى يشتقه من مواجهة المشكلة الأولى من مشاكل حياته وهى السيطرة على المجتمع وهو طفل . وهنـاك فرق كبير بين أسلوب الطفل الذى ينشأ وحيدا بين جمع من الكبار ، وذلك الذى ينشأ بين جمع من الأطفال كلهم يكبرونه ويفوقونه قوة ومقدرة . هناك فرق بين أسلوب الطفل الجميل والطفل الماهر . بل إن هناك فرقا بين أسلوب الطفل الأول والطفـل الثانى والطفـل الأخير فى العائلة فلكل منهم ظروفه الخاصـة التى تتوقف على نوع المجتمع الذى يشعر فيه بالضعف ويريد أن يصل فيه إلى القوة وعلى الأدوات التى تضعها طبيعته ويضعها المجتمع بين يديه ليستخدمها .

وهذا الأسلوب هو نفسه الأسلوب الذى يعالج به الطفـــل ما يتلو من مشكلات حياته الأساسية . فهو يختار المهنة التى يجد فيها تحقيقاً لغرض السيطرة الذى اتجه إليه ، ويجـد فى ثناياها الوسائل التى تجعل لأسلوبه فرصة النجاح . كما أنه فى حبه وزواجه يرمى إلى نفس الأغراض ويتأثر بالأسلوب الأول .

ذكرنا طرفا عن هذين المذهبين بشىء من التفصيل لأنهما يعتبران فى عرف الكثيرين مشتقين من التحليل النفسى . وليس معنى الاشـتقاق الاتفاق ، بل بالعكس . فإن هناك خلافا حقيقيا بين هذه المدارس ، فأدلر قد هجر ناحيتين أساسيتين من التحليل النفسى : أولاهما الغريزة الجنسية ، والثانية اللاشعور — أو على الأقل قد قلل من أهميتهما إلى الدرجة القصوى .

---

(١) Style of Life

الباب السابع عشر

تطبيقات التحليل النفسى

أولا — فى الطب

إن الميدان الأساسى الذى نجح فيه التحليل النفسى هو ميدان العلاج ، علاج الاضطراب العصبى بأنواعه أولا ، ثم علاج الأمراض العقلية ثانيا . وليس ذلك بمستغرب ، لأن هذا الميدان هو الذى نشأ فيه التحليل النفسى وترعرع ، وقد جمعت حقائقه الأولى من الحالات التى عولجت فى عيادات المحللين النفسيين ، ولا يزال العلاج هو المصـــدر الأساسى الذى يغذى العلم ، ويدعم حقائقه ، ويضيف إليها ، أو يدخل عليها ، بعض التعديل . ولا شك فى أن مايجمع من الحقائق عن طريق العلاج ، تكون له أول ما تكون ، قيمة علاجية . وينظر أصحاب التحليل النفسى إليه على أنه علم تطبيقى فوق أنه علم نظرى ، بل هو تطبيقى أولا ، ثم نظرى بعد ذلك . وهم لا يعتبرون أية دراسة نظرية لهذا العلم كافية لفهم حقائقه فهما صحيحا ، بل يحتّمون على من يريد أن يتخصص فيه ، أن يقوم بتدريب عملى طويل . ويمتاز التحليل النفسى بأنه يجمع بين الناحيتين العلاجية والنظرية جمعا لم يُتح لأى مدرسة أخرى فى علم النفس أن تصل إليه .

والعلاج عن طريق التحليل النفسى علاج طويل يحتاج إلى كثير من التفرغ والجهد اللذين يصرفان الكثيرين عن اتّباعه ، وذلك لأن ما يقيمه شعور المريض من العقبات وما يثيره من المقاومات فى طريق اللاشعور ، يجعل من العسير أن يصل المحلل إلى هذا الأخير ، ومما جعل التغلب على هذه المقاومة أكثر عسرا أنها مقاومة لاشعورية ، لا يشعر بها المريض وإنما يتبينها الطبيب فى مظاهر الصراع التى لا تخطئها العين المدربة ، والتى تبدو كلما وقف الطبيب والمريض وجها لوجه أمام إحدى هذه المقاومات . والطريق إلى اللاشعور طريق

ملتو ملتف . معقد طويل ، لا نصل به إلى الغاية إلا بالجهد الكبير ؛ وليس ذلك بمستغرب ، لأن الغاية النهائية هى العودة بالمريض إلى أصول الاضطراب عنده ، والوصول إلى عهود سحيقة فى حياته هى عهود الطفولة ، وأعماق سحيقة فى نفسه هى أعماق اللاشعور ، وكل ذلك ضد المقاومة التى تتجدد كلما لمس الطبيب نقطة حساسة فى الحياة النفسية للمريض . وبذلك يصل التحليل إلى جذور الاضطراب ويحل عقدة الطفولة نفسها ، فيهب الشخص سلاما داخليا لايصل إليه بوسيلة أخرى من وسائل العلاج ، وينتشله من جو الأوهام والخيالات والوساوس الطفلية التى يعيش فيها ، ويثبّت أركان علاقته بالعالم الواقع ، ويجعل بناءه النفسى سليما قادرا على تحمل الصدمات ، والمرور فى الأزمات النفسية ، فهو علاج للماضى ، وهو وقاية للمستقبل . كل هذا يميز التحليل النفسى عن غيره من وسائل العلاج .

وقد أدى التحليل رسالته أحسن أداء فى المحيط المحدود الذى عمل فيه فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة ، غير أنه لايزال أمامه شوط طويل حتى يحقق كل الفائدة المرجوة منه ، فلا يزال عدد المختصين فيه سواء من الأطباء أو غيرهم قليلا ، ولا يزال الكثيرون ينظرون إلى هذا العلم بشىء من الشك والحذر ؛ ولا جدال فى أن الجرأة والصراحة اللتين يواجههما التحليل النفسانى مشاكل العقل مما لايحتمله كل إنسان ، بل الواقع أنه لا يُنتظر أن يحتمله إلا القليل ، وتجد تفسير ذلك فى نظريات التحليل النفسى ذاتها . ولكن متى انتشر هذا العلم بين الناس ، ولمس الجميع نتائجه أمكن أن يتسع تطبيقه تدريجيا حتى يأتى اليوم الذى تجنى فيه كل فوائده .

هذا من ناحية العلاج النفسى ، ولكن للتحليل النفسى قيمة فى توجيه عمل الطبيب العادى فى علاقته بمرضاه .

فالمرض ولا شك أزمة فى حياة الشخص سواء أكان عارضا أم مزمنا ، وله نفس النتائج التى تكون للأزمات النفسية ، فقد تلبس أعراضه أو الظروف

المحيطة به ناحية مدفونة فى اللاشعور ، فيتسبب عن ذلك أن يكون له أثر باق فى نفسية الشخص . خصوصا وأن الطبيب نفسه قد يكون عاملا مساعدا فى ذلك ، لأنه يكون موضعا لتحول العواطف(١) نحوه ، فيحل فى اللاشعور محل الأشخاص الذين كانوا يحدبون على المريض فى طفولته ويقومون له بالحماية والرعاية ، فتصبح عواطف المريض نحوه مزيجا من عواطفه نحو الأم والأب . فإذا أدركنا ذلك تبينا أن على الطبيب أن يقوم بدوره فى علاج المريض ومعاملته بكيفية تسمح بمرور هذه الأزمة النفسية فى سهولة ، وانتهائها بسلام . وبمعنى آخر أن العلاج الطبى الصرف يجب أن يصحبه « علاج » سيكولوجى ، أو على الأقل يجب أن يتنبه الطبيب إلى ألا يكون فى معاملته للمريض ما يؤثر أثرا غير مرغوب فيه من هذه الناحية .

ولعل كثيرا من الناس يستغربون أحيانا للنتائج الحسنة التى يصل اليها بعض الأطباء دون البعض الآخر ، حتى مع تساوى القدرة الطبية . والسبب فى ذلك يرجع غالبا لنوع العلاقة التى ينشئها الطبيب مع مريضه ، وهذه العلاقة يجب أن تكون علاقة عطف ومحبة واهتمام ، ويجب أن يحسب فيها حساب النزعات النفسية التى تتناول المريض فى هذه الفترة من حياته . وليس معنى ذلك أن يدلل المريض ، بل بالعكس يجب أن يحمل مع الطبيب مسئولية العلاج على قدر طاقته ، وبالرفق الذى تحتمله حالته . وإذا صح ذلك بالنسبة للطبيب فهو صحيح أيضاً ، وبصفة خاصة بالنسبة للعلاج بالمستشفيات ، حيث يجب أن يكون الجو الذى يحيط المريض جوا مشوبا بالعطف ، يبعث الطمأنينة والثقة فى نفسه ، ويجب أن تكون العلاقة بينه وبين القائمين على علاجه علاقة محبة متبادلة . وذلك فى مصلحة العلاج الطبى نفسه فوق أنها ضرورية لسلامة نفس المريض .

والواقع أن المريض يشبه الطفل فى كثير من الوجوه ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس ، مع الانتباه للفروق التى لابد من وجودها بينه وبين الطفل ،

---

(١) Transference

أى أنه يجب أن يحصل على مقومات عاطفية من نوع يشبه ما يحتاج إليه الطفل على أن يحل محلها بالتدريج ، إلقاء المسئولية عليه ، وإعادته إلى حالة الاستقلال والثقة من جديد ؛ ولعل فى هذه النقطة وحدها ما يبرر استخدام النساء فى التمريض على أن يتلقين التدريب السيكولوجى الكافى .

كل ذلك فى حالة المرضى من الكبار فما بالك بالمرضى من الأطفال ؟ لاشك أن أثر المرض الجثمانى فى حالة الطفل النفسية دائما أثر بالغ . وكثيرا مالاحظ الآباء أن قياد الأطفال ، حتى الرّضع منهم ، يصبح أصعب مراسا بعد إبلالهم من مرض خصوصا إذا كان طويلا . والمرض يهاجم الذات « الأنا » ويضعفها فتنتهز النزعات هذه الفرصة لتعبر عن نفسها كما يحدث فى الأحلام ، وهذا هو السر فيما يبدو على المريض أحيانا من قلق وتبرم وما يبديه من صعوبة القياد .

والأطباء يشكون من ضيق بعض المرضى بتناول الدواء واتباع التعليمات ، والإهمال فى التوقى من المضاعفات ، ويعتبرون ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لبعض المرضى ويظنون أحيانا ألا حيلة لهم فيه . والواقع أن سلوك المريض يرجع إلى الدوافع الأصلية العميقة ، يرجع إلى صورة الطفولة وإلى المعاملة التى لقيها وهو طفل ، وماكان يجد فيها من يسر وسهولة ، فهو يعكس على الطبيب وعلى علاجه ماكان يعامل به من الأبوين وهو طفل بدون أن يشعر أنه يفعل ذلك .

ففترة المرض تعبر إذن فترة شاذة ، يحتملها فى سهولة ويسر الأشخاص الذين سلم بناء شخصياتهم وخلا من آثار الصراع العنيفة ؛ أما أولئك الذين عانوا كثيرا من الصراع والكبت فى طفولتهم ، فإن هذه الفترة تعتبر أزمة نفسية حقيقية بالنسبة إليهم .

ومما يزيد فى صعوبة الموقف أحيانا أن يجد المريض فى ظروف المرض ما يشبع بعض الرغبات التى يشعر بالحرمان منها فى العادة . ومثال ذلك الزوجة التى لا يلتفت لها زوجها كثيرا ولا يرعاها ، فإذا مرضت أقبل عليها واهتم بها وبذل لها من حنانه الشيء الكثير ، أو الابن الذى لا يرضى أبواه عن سلوكه فى

الأحوال العادية ، فإذا مرض احتملا منه هذا السلوك وعاملاه بالحدب والعطف والرعاية . مثل هؤلاء الأشخاص يكون للمرض قيمة حقيقية عندهم فهم يستفيدون من أعراض المرض وظروفه فائدة شعورية ظاهرة ، فإذا كان لهم من ماضى حياتهم ما يجعل للمرض فوق ذلك قيمة لاشعورية أيضا نتجت حالة من أصعب الحالات . لأن الأعراض التى تحقق غرضا شعوريا وتحقق فى الوقت نفسه غرضا لاشعوريا تميل إلى أن تثبت ويصبح التخلى عنها أمرا عسيرا.

ونلاحظ هذه الظاهرة بوضوح فى الأطفال حينما يمرضون ، فتنقلب معاملة أهليهم لهم من الجفاف والخشونة إلى التدليل وإجابة المطالب . ولذلك فمن الضرورى أن يحصل أولئك الذين يقومون بالتمريض ، وخصوصاً تمريض الأطفال على تدريب كاف فى هذه الناحية ، حتى يستطيعوا أن يعينوا المريض، طفلا كان أم راشداً ، على المرور فى فترة المرض بدون أن يترك ذلك عنده أثراً باقياً . ولا ننسى أن المرض والألم الجثمانى من الأشياء التى يُحتمل جداً أن تحدث صدمة (١) يبقى أثرها مدى الحياة .

وهكذا نرى أن التحليل النفسى ذو قيمة خاصة لعلاج الأمراض النفسانية ، وذو قيمة عامة لصلته بالناحية الطبية الصرفة ، وهو فى الناحيتين يستطيع أن يؤدى أجل الخدمات إذا أحسن استخدامه .

ويحسن ، بناء على ذلك ، أن تشمل المقررات الطبية دراسة متزنة لمبادىء علم النفس بصفة عامة ، والتحليل النفسى بصفة خاصة .

ومن اللازم مراعاة هذه المبادىء فى جميع المؤسسات التى تشتغل بعلاج الأطفال ووقايتهم ، كمستشفيات الولادة ، والأطفال ، ومراكز رعاية الطفل ، إلى غير ذلك . بل إنه من اللازم مراعاتها حتى عند تركيب الأدوية التى يستعملها الأطفال .

ومن الضرورى إذن أن يلم كل من يتصل بالأطفال من ناحية التطبيب

---

(١) Trauma

والتمريض وغيره ، بمبادىء التحليل النفسى ، إلماما يؤدى على الأقل إلى أن يدرك أخطار بعض التصرفات ، وأن يدرك فى الوقت نفسه متى يحسن استشارة الإخصائيين فى صدد المشاكل التى تنشأ فى محيطه .

ثانيا — فى التربية

هنا نأتى إلى موضوع من أخطر الموضوعات ، وأبعدها أثراً فى حياة الطفولة وحياة الأجيال المستقبلة وهو موضوع التربية والتعليم. وإننا لنتساءل ما الذى يفيد المربى من العلم بالتحليل النفسى ؟

وقبل أن نستطيع الإجابة على هذا السؤال نجد من اللازم أن نتساءل أولا عن الأغراض التى ترمى إليها التربية ؟ فنجد أن التربية ترمى إلى تنمية الشخصية تنمية تتناول مختلف جوانبها من فكرية وخلقية واجتماعية ، والوصول بالفرد إلى أقصى ما تؤهله له مواهبه ، وإلى توجيه ميوله واستعداده توجيها يجعل منه قوة فعالة وعضواً عاملا نافعاً فى المجتمع الذى يعيش فيه .

تنمية الشخصية :

والتربية إذ تعنى بالشخصية ، لا تستطيع أن تُغفل العوامل اللاشعورية التى لها أكبر الأثر فى بناء هذه الشخصية ، وقد كانت التربية تعنى إلى وقت قريب بالذات « الأنا » وتتعامل معها مباشرة وترمى إلى تقويتها بمختلف الوسائل . ونستطيع أن نقول إنه لكى نصل إلى هذه الغاية لابد لنا من العلم بالنزعات والقوى الأخرى التى تعمل فى النفس . ومن أهم ما أوصله إلينا التحليل النفسى فكرة نشوء الذات من النزعات وإن معرفتنا بذلك تفهمنا كيف أن الذات تعتبر تطوراً حديثاً نسبياً فى حياة الطفل ، وهى فى نشأتها الأولى كالنبت الحديث يحتاج إلى الكثير من العناية والرعاية لكى ينمو النمو السليم ، وتتضح ضرورة هذه العناية إذا ذكرنا أن الذات تتولى من مبدأ الأمر معارضة النزعات وقمعها وكبتها فهى محتاجة إلى أن تقوى ، وهى تستمد قوتها من المجتمع

الذى يجب أن يعتبرها حليفة ويقدر صعوبتها ، وينظر اليها بعين الرفق والفهم، فيعينها على ما تقوم به ، ويدرك أن زلاتها ناشئة عن ضعفها أمام النزعات ، فلا يفعل ما قد يؤدى إلى زيادة هذا الضعف ؛ ولاشك أن اعتدال مطالب المجتمع تسهل على الذات القيام بهذه المطالب ؛ ولذلك كان من الضرورى فى تربية الأطفال أن نتطلب القدر الضرورى من السلوك الخلقى والاجتماعى فى مبدأ الأمر ، وأن نسمح بتحقيق ما لا ضرر فى تحقيقه من النزعات .

ولا شك أننا نسهل مهمة الذات « الأنا » إذا لم تف مطالبنا منها عند حدّ القمع والكبت للنزعات ، بل إذا عملنا فى الوقت نفسه على تهيئة الفرص المناسبة لإعلاء النزعات ، بأن هيأنا للطفل مجالى الخبرة والنشاط التى يجد فيها بديلا من نزعاته البدائية التى لا نسمح بظهورها .

موقفنا فى مبدأ الأمر من الطفل لا يصح أن يكون موقف تعسف واشتداد فى اقتضاء المطالب ، وإنما يجب أن يكون موقف تقدير واعتدال ، وفى الوقت نفسه يجب أن نعد له الفرص لإبدال نزعاته .

وقد أدركت التربية منذ زمن بعيد أهمية « الذات » أو « الأنا » فعملت على تدعيم الثقة بالنفس عند الطفل ، ونصحت بالاعتراف بذاتيته ، وعملت على تدعيمها . والجديد هنا هو أن ندرك تماماً موقف الذات فيساعدنا ذلك على حسن التدعيم . والأهم من هذا هو أن نفهم هفوات الطفل وأخطائه فهما جديدا : فالطفل إذ يخطىء أو يهفو إنما يخطىء أو يهفو بالرغم من «أناه» ، أولأن هذه الأنا كثيراً ما تجهل موقفنا من هذا العمل ولا تعتبره « خطأ » . وعلى ذلك فإن واجبنا فى هذه الحالة هو أن نقوم هذه الأخطاء بطريقة لا تضعف الأنا ، وإنما يكون التقويم بحيث يبدأ من نقطة الضعف عند الطفل وهى شعوره بأنه لم يكن يجب أن يفعل ما فعل . ولا ننسى أن الأنا تتقاضى ثمناً هو نجاحها فى كسب رضاء المجتمع وعطفه ، وهذا الثمن فى أيدينا يجب أن نتعامل به ولكن يجب ألا نتغالى فى التعامل فلا نغدق ولا نقتر ، لأن فى الإغداق إضعافا لمبدأ بذل الجهاد فى إرضاء المجتمع ، وفى التقتير إضعافا لمبدأ الأخذ والعطاء .

ولا يلبث أن يدخل فى الصفقة عميل جديد ، ولكنه عميل صارم لا يعرف الهوادة ، هو الأنا العليا ، ولا شك أن من مصلحتنا أن تقف أمام النزعات الجامحة « أنا عليا » جامحة أيضاً ، لأن ذلك يسهل على الأنا أن تحصل على مطالبها من كليهما . وكما أن النزعات تنتهز فرصة كل ضعف يبدو من الذات لتصل إلى الإشباع ، فإن الذات العليا تنتهز نفس هذه الفرص للوصول إلى الحرمان المطلق . فالمعول إذن على الأنا القوية . ومما يزيد فى قوة الأنا الخبرة ، فكلما سهلنا للطفل أن يقوم بنوع من الخبرة الاجتماعية والخلقية تحت رقابتنا وإرشادنا ازدادت مهارة « أناه » فى تناول العوامل اللاشعورية والتوفيق بينها واختيار المسلك الذى يعتبر كافياً من وجهة نظر الجميع .

وعلى ذلك فالصورة السليمة للشخصية هى صورة « الأنا » المتربعة على عرش العقل ، والتى تدير مملكتها إدارة حازمة حكيمة ، فتعامل الجانب الثائر من النفس (النزعات) بما لا يزيد فى ثورته وتسهل له التنفيس عن هذه الثورة وتتلقى الوحى من الأنا العليا ، ولكنها تهوّن من عسف هذا الوحى وتشذّب من ضراوته ، وتحيله إلى مسلك عملى سليم ، وهى تكتسب بأعمالها ود العالم الخارجى بأن تتفاهم معه وتراعى مطالبه ، حتى إذا أتى الوقت المناسب أصبحت هى بدورها قوة ذات أثر فى هذا العالم الخارجى ، فحاولت أن تصلح من شئونه بما وصلت إليه من حكمة فى تجاربها .

ولكى نصل بالشخصية إلى الصورة السليمة يجب أن نحاذر من تحميلها بآثار الصراع الذى ينغص عليها سلامها . ويجب ألا نغتر بالظواهر ، فنظن أننا قد وصلنا إلى الإعلاء فى حين أننا نكون قد هيأنا الطريق للمتاعب النفسية المستقبلة بأن تخلصنا من مسئولية الحاضر ، وليس أضر على مستقبل الفرد من حل مشاكله الحاضرة حلا يتناول الأعراض ولا ينفذ إلى « الجوهر » — وهو العوامل الأساسية اللاشعورية — لأن ذلك يكون من قبيل إقفال الجرح الملوث وتعريض الجسم كله للخطر .

وإن أساس تربية الشخصية هو فهم الدوافع الأساسية للسلوك ، والصبر

والمثابرة فى معالجتها ، والأخذ بيدها ، وتهيئة السبل لإعلائها ، بحيث تتكون الشخصية متكاملة متساندة الأجزاء ، تنمو نمواً منتظما ، لايختلف جانب منه عن سائر الجوانب ، وحتى تتكون عند الناشىء المناعة ضد الصدمات والأزمات .

الإعلاء :

والإعلاء غرض من أغراض التربية ، وهو الذى تتحول فيه الطاقة الغريزية إلى مسالك لها قيمة فعلية واجتماعية كما عرفنا من قبل . والإعلاء إذن هو نوع من الإنتاج الفعلى يعطى الغريزة بديلا عن الإشباع المباشر الذى لاسبيل إليه ، ويصرفها فى الوقت نفسه عن الانتاج الوهمى عن طريق اصطناع الأعراض المرضية كما يصرفها عن عرقلة الذات فى سلوكها وإقامة العقبات فى طريق حياتها . وعلى ذلك يجب أن تتوفر للطفل حرية العمل والانتاج فى المحيطين المادى والاجتماعى . والحرية هنا حرية إيجابية معناها أن نهيىء بيئة الطفل فى مراحل نموه المختلفة تهيئة تسمح له ببذل النشاط وتسمح له بالخبرة والتجريب والعمل والإنتاج . ويجب أن تكون هذه البيئة متسعة ومرنة حتى يتخير من بين عناصرها ما يناسب اتجاه نزعاته الخاصة .

وللإعلاء ثمن تتقاضاه النفس ، فهو مهمة تحتاج إلى جهد ، ولذلك يجب أن نترفق فى توجيه الطفل إليه ولا نتعجل الأمور ، وأن نترك الفرصة لكى يبنى الإعلاء على أثاث ثابت حتى تكون له صفة الدوام والاستقرار .

الخبرة الاجتماعية :

والخبرة الاجتماعية التى نقصدها تقتضى أن يعتاد الطفل على المخالطة والتعامل مع غيره من الأفراد ، وكلما كان الجو الذى يحيط به جوا مستقرا سليما كلما مكنا له من اجتناء ثمرتها . وبما أن من المهم أن يعلم الطفل بدستور المجتمعات المختلفة التى « نؤهله » لعضويتها ، فإن من اللازم أن يفهم طرائق السلوك الاجتماعى عن طريق الخبرة الشخصية ، على أن نعينه بالشرح والمثال كلما استعصى عليه أمر .

وهكذا يتكون خلقه تكوينا متنورا فى مجموعه ، فلا يكون عبدا لأوامر ونواه لايدرك حكمتها ولا يستطيع أن يفهمها ؛ ولا شك فى أن ذلك أمر نسبى ، فكثيرا ما نجد من المتعذر أن نستخدم المنطق مع الطفل ، وفى هذه الحالة نستطيع أن نستخدم نفوذنا فى توجيهه ، على أن يكون نفوذا تسنده المحبة والحنان والرفق ، حتى نسهل عليه تقبل التوجيه واصطناع السلوك الجديد .

وكلما نما الطفل واتسع مجاله الاجتماعى أصبح من اللازم أن تزيد معرفته بالمجتمع عن طريق الخبرة والتعلم .

ولا ننسى أن الطفل يبدأ أنانيا ، وعلى أساس أنانيته يتكون سلوكه الاجتماعى ، وكل خلق اجتماعى يعود بالنفع إن عاجلا وإن آجلا على الفرد . ومن الضرورى أن يفهم الفرد ذلك ، وأن يدرك بالتدريج الحكمة التى ينطوى عليها المجتمع بالنسبة إليه . ويستلزم ذلك أن يكون المجتمع نفسه منطقيا ، كما سبق أن بينا .

الخبرة المادية :

والخبرة بالعالم المادى كالخبرة بالعالم الاجتماعى ، تمر فى أطوار متعددة : تبدأ باللعب ، وتثنّى بالدرس ، وتنتهى بالعمل فى الحياة ، وفى كل هذه فرص الإعلاء . ولكى تتوفر الظروف للإعلاء يجب أن يتوفر فى عمل الطفل (سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى غيرها) عامل الاهتمام والشوق . وإذا ذكرنا أن النزعات فى أساسها جنسية ترمى إلى اللذة ، أمكننا أن ندرك أن خير بديل لهذه النزعات هو ما أثار الشوق والاهتمام عند الطفل . والواقع أنه لاتكاد توجد خبرة مادية خالصة ، فكل خبرة مادية لها جانبها الاجتماعى ، أو يجب أن يكون لها جانبها الاجتماعى ، فيتحقق لها شرط الإشباع ، لأن الفرد يتجه مع الوقت إلى الاندماج مع المجتمع فيجد فيما يُرضى المجتمع ويخدمه إرضاء لنفسه واشباعا لها .

التدريب وتكوين العادات :

ولعل من المناسب أن نتكلم عن تكوين العادات كوسيلة للتربية الخلقية

والاجتماعية ، وذلك لأن الكثيرين يظنون أن أهم طريق إلى التربية هو أخذ الطفل بالتدريب لتكوين العادات الصالحة للعمل والفكر ، حتى يجد نفسه مدفوعا إلى الاستمرار فى السلوك الصالح بحكم هذه العادات . وتكوين العادات معناه تثبيت وسائل معينة للسلوك عن طريق التكرار ؛ ولا خلاف فى أن ذلك مفيد وضرورى فى كثير من الحالات ، خصوصا بالنسبة للأمور البسيطة التى لاتحتاج إلى كثير من التصرف الشخصى أو التفكير ؛ ولكن التحليل النفسى يحذرنا من المغالاة فى الاعتماد على العادات فى توجيه السلوك ، ويحذرنا خصوصا من المعنى الذى تأخذه فكرة العادة عند الفرد ؛ فالعادة يصح أن أن تتحول إلى نوع من الإلزام ، إن لم يكن مرضيا فإنه يكون شاذا . انظر عادة مثل غسل الأيدى التماسا للنظافة ، وكيف تتحول عند بعض الأشخاص إلى إلزام ينغص عليهم عيشهم ، ويحول دون تمتعهم بما لاحرج منه ولاضرر فيه. وانظر إلى عادة النظام والترتيب التى يقصد بها إلى تسهيل تأدية العمل ، وكيف تصل عند بعض الأفراد إلى أن تصبح هى الغاية حتى ولو أدت إلى تعطيل العمل أو وقوفه .

وهناك كثير من الأسئلة التى تبين أن العادة إذا لم تتصف بالمرونة وإدراك المرمى ، كانت عرضا ثقيلا يحمل النفس أعباء فوق أعبائها .

الخُلُق :

وما قيل عن العادة يقال عن الخلق ، فهناك من الناس من نجد أن الفضيلة عندهم أوالتدين ـ أن صح أن تسميا بهذين الاسمين ـ الزام أقرب إلى العَرَض المرضى منه إلى المظهر الخلقى أو الدينى ، وقد وجد كتاب القصص فى أمثال هؤلاء المتزمتين مادة خصبة للإنتاج ، وتنتهى القصة غالبا بانهيار هذا البناء الكاذب ، لأنه بناء لا يستند إلى أساس صحيح من الإعلاء . ومثل هذا الخلق ينبنى غالبا على المعاملة بالعسف والقهر عند الطفولة ؛ فهو لا يواجه الصعاب مواجهة فعلية ،

وإنما يهرب منها ويتحاشاها؛ فيكون بناؤه شبه وهمى، أو غير مهيأ لملاقاة الصعاب والأعاصير، لأنه بنى فى غير مواجهتها.

والخلق الوحيد الذى تستطيع النفس أن تدمجه فى كيانها وتجعل منه حقيقة «واقعة» هو الخلق الإجتماعى، كما أن الفضيلة التى تبقى وتثبت فضيلة اجتماعية، وكلا من هذين له من هذا الأساس ما يثبت أركانه، لأننا لا نضطر إلى إغماض العين والهروب من الحقائق، بل بالعكس، نجد أننا كلما تقدمنا فى السن واتسع بنا الإدراك أمكننا أن نزيد علما وفهما بالأسس التى بنى عليها خلقنا.

المدرسة:

وهنا نأتى إلى التعليم بمعناه المحدد فى المدرسة فنجد أن الحدث ينتقل إلى مجتمع جديد بالنسبة إليه: مجتمع لا تربطه بأفراده الروابط الوثيقة التى تعوّد عليها فى المجتمع المنزلى.

والمدرسة تعتبر وسطا بين المجتمع المنزلى والمجتمع الخارجى، وهى تحتوى من خصائص هذا الأخير على ما لا يحتويه المنزل: ففيها مجال واسع لتكوين الروابط، وفيها مجال للخدمة العامة التى لا ترتبط بأفراد معينين، ثم أن فيها انصرافا إلى العمل والانتاج. ولعل المدرسة لو تنبهت لوظيفتها الاجتماعية وأدتها الأداء الكامل لاستطاعت أن تغرس فى نفوس الأطفال التوجيه الاجتماعى السليم لمستقبل حياتهم. ولكى تقوم المدرسة بهذه الوظيفة يجب أن يتوفر فيها «جو» اجتماعى حقيقى، يجب أن تكون مجتمعا ذا إرادة مستمدة من إرادة أعضائه، عاملة لخيرهم، بها ما للجمعيات الحقيقية من الشخصية ومن التفاعل الداخلى والخارجى. هنا يصح أن يتدرب الناشىء على التعامل الاجتماعى فى صورة مصغرة، وبذلك نستطيع أن نبنى الأساس الذى يقوم عليه تعامله الاجتماعى فيما بعد.

فالمدرسة تستطيع أن تحل بعض العقد النفسية التى تتكون عند الطفل وهو فى المنزل، فتهون من ألوان المحبة والكراهية جميعا وتحيلها من العنف إلى

الاعتدال ، تستطيع أن تسهل فطامة الطفل من المجتمع المنزلى بأن تهيء له جوا سعيدا فتعده للاستقلال النفسى فيما بعد ، تستطيع أن تساعد على أن تجعل حياة الطفل أكثر واقعية مما كانت ، بأن تهيء له الخبرة التى لا يستطيع المنزل بحكم تكوينه أن يهيئها له .

وبعبارة أخرى فالمدرسة تأخذ بيد الطفل الذى لم يعرف إلا المنزل ، وتوثق علاقاته بالعالم الخارجى شيئاً فشيئا ، حتى يطمئن إليه ، ويشعر بحاجته إلى الاندماج فيه ، ويعرف كيف يناضل ويكافح فى هذا المجتمع .

والطفل فى مرحلة الدراسة الابتدائية يكون عادة فى فترة الكمون أو الخمود المؤقت بالنسبة لنزعاته الغريزية . فيكون قد بدأ يتخلص من مظاهر الثورة العنيفة ، والأنانية القوية ، وأصبح مهذباً شيئاً ما واجتماعيا شيئا ما ، ومعنى ذلك أنه آخذ فى اعلاء نزعاته الغريزية ، آخذ بمبدأ التعاون الاجتماعى ، آخذ فى إدراك حقوقه وواجباته فى ضوء جديد .

وخروجه من المجتمع المنزلى فى هذه الفترة يضيف إلى أعبائه عبئاً جديدا هو التكيف لحياته الجديدة ، بينما هو فى دور يشبه دور النقاهة من ثورة الانفعالات وعنف الحياة الغريزية الأولى ، وكمثل ناقه نجده شديد التعرض للنكسة والنكوص على عقبيه إذا صدم بما يزعزع العوامل التى بدأت فى الاستقرار عنده فلا يلبث أن يرتد إلى حالة تشبه حالته الأولى ، ولكنها تزيد عليها بأنها ليست طبيعية بالنسبة إليه . والارتداد هنا ليس ماديا بل نفسيا ، ومحصله أن يتخلى الطفل عن كثير مما كسبه فى أثناء تطوره وتقدمه ، ويعود القهقرى إلى صفات طفولته الأولى التى تكون فى هذا الدور أشبه بالأعراض المرضية منها بالصفات الطفلية ، ولعل أكبر جريمة ترتكبها المدرسة فى هذا السبيل أن تنظر إلى الطفل نظرتها إلى الثائر المتمرد الذى يؤخذ بالشدة والقهر ، التماسا لسرعة النتائج — وكم تجنى الرغبة فى سرعة الحصول على النتائج — فتميت فيه البذرة النامية نحو التقدم الاجتماعى وترجعه القهقرى ، فى حين أن واجب المدرسة عكس ذلك تماما وهو أن تترفق فى معاملته ترفقا يطمئنه لحياته الجديدة

ويسهل عليه تحمل الأعباء المتزايدة التى تلقيها عليه ، فتقوى ذاته وتجعلها أقدر على معالجة نزعاته أمام مشاكل الحياة المتزايدة فى صعوبتها ، ولن يكون ذلك إلا باحترام الطفل احتراما مقرونا بالحزم ، وبأن يجد فى جو المدرسة من المحبة والعطف ما يغريه بإعلاء نزعاته وتهذيبها .

ولنذكر أن الطفل فى المدرسة قد بدأ أن يكون مجرد «فرد» فى مجتمع كبير ، فهو ليس مركزاً للالتفات كما كان فى المنزل . وهذه النقلة ليست بالسهولة التى نتصورها لأنها تستلزم النزول عن كثير من المزايا والميزات التى تعودها ، ولا يشجعه على هذا التنازل إلا شعوره بعطف جديد وميزة جديدة يكسبهما من هذا المجتمع الذى يراد منه أن يفنى فيه ، وهو لا يحظى منه إلا بقدر يسير من الإلتفات .

وفى مرحلة الدراسة الثانوية يجب أن نعطى الطفل استقلالا تدريجياً من درجة أعلى ، وأن نهيئه لتحمل مسئوليات أثقل ، سواء فى محيطه العملى أو الاجتماعى ، حتى يتهيأ بعد ذلك لتحمل المسئوليات التى ستلقيها الحياة على كتفيه قريباً عند ما يشب ويدخل فى دور الرجولة .

التعليم ، أو التدريس :

وهو نقل المعلومات إلى الطفل بمختلف الطرق . وإننا لنجد فى حقائق التحليل النفسى ما يعرفنا أن النزعات البدائية الصرفة قابلة للإعلاء فى مختلف النواحى الفكرية ، وأن النفس تنزع — عن طريق الأنا العليا — إلى تحويل النزعات البدائية إلى شغف بمختلف العلوم والفنون ، وهذا الشغف يعوضها عن اللذات الحسية لذّات من نوع آخر ، على أن الإعلاء لابد له من ثمن ، والثمن هو ما يلمسه الطفل من رضا المشرفين عليه ومن عطفهم ومحبتهم وما يجده من النجاح فى هذه السبل الجديدة عليه لإرضاء النزعات .

ولعل خير برهان على ذلك ما نجده فى صغار الأطفال أحياناً من «شغف» بالقيام بعمليات جافة كجمع الأعداد وطرحها وكتابة الكلمات والجمل .

ولذلك فنحن نخطىء كثيراً إذ نفرض أن الطفل لا يحب أن يتعلم ، ونبنى على

هذا الفرض أن يجب أن نرغمه على التعليم .

والواقع أن الطفل يحب أن يتعلم إذا هيأنا له الفرصة لكى يحب ما يتعلمه ، بأن ننتقى له الشائق من الموضوعات والطرق والأساليب ، وبأن نجعل علاقتنا — كمعلمين — به مما يحببه ويوجهه نحو التعليم .

وكم من معلم محبوب أثرى تلاميذه أكبر الأثر فجعلهم يشغفون بأقل الأشياء جاذبية وأكثرها جفافاً .

والطفل يجد فى كثير من الدروس تعبيراً عن نزعاته يؤدى بها إلى الإعلاء ، وخصوصاً تلك الدروس التى تتضمن التعبير الحر والتشكيل والإنتاج ، كدروس الرسم والأشغال وما إليها ، كما أنه يميل إلى القصص وإلى التمثيل لما يجد فى ثناياها من مواقف تلمس مواضع حساسة تستجيب لها نزعاته .

فإذا عرف المعلم كيف يتخير الموضوعات والطرق والأساليب فإنه لا يحتاج مطلقاً لأن يفرض أن التلاميذ لا يحبون التعليم .

المعلم :

قلنا فيما سبق إن العامل الأساسى فى إعلاء النزعات هو العلاقة التى تتكون بين الطفل وأبويه ، ثم بينا أن هذه العلاقة نفسها تتكرر بشكل معدل بالنسبة للمعلم ، فالمعلم أب فى صورة جديدة . وعواطف الطفل نحو الأب كما علمنا عواطف متناقضة تتضمن المحبة القوية والكراهية القوية ، والطفل يميل إلى كبت الكراهية ، بل وإعلاء عناصرها بتحويلها إلى كراهية الشر والرذيلة والاعتداء . فإذا فطنا إلى إن مركز المدرس بالنسبة للطفل بالغ هذه الدرجة من التعقيد بادىء ذى بدء ، أدركنا كيف أن مهمته فى الواقع مهمة عسيرة ، فهو هدف لما قد يكون مكبوتاً من كراهية الطفل لأبيه . وإذا كان سلوكه مع تلاميذه كسلوك الكثيرين من معلمى الأطفال فى بلادنا ، سلوك جبروت واعتداء وعسف ، فإن هذا يشجع على تحميل شخصه بعوامل الكراهية ، ويجعل من الصعب على الأطفال أن يصلوا إلى الإعلاء والسمو بنزعاتهم . بل وأكثر من ذلك فإنه إذ

يملى على الأطفال طرق السلوك ، ومبادىء الأخلاق ، وفكرة الواجب ، يمزج هذه الافكار فى أنفسهم بصورة العسف والقهر ، فتصبح هذه الافكار والمبادىء نفسها محملة بآثار الصراع والكراهية ، فيخلق أطفالا قد يعملون الواجب ولكنهم لايحبونه ، يخلق أشخاصاً قد يكونون طيبى الخلق ولكنهم غير سعداء بطيب خلقهم ، يعملون الواجب ويتبعون الفضيلة بنفس الروح التى تجعلنا نتجرع الدواء المر أو الجرعة المقززة .

المدرس إذن يجب أن يغلّب جانب الحب فى نفس الطفل ، لكى يساعده على إعلاء نزعاته ، ولكى يسهل له فى مستقبل حياته الهدوء النفسى والسعادة ، فيجعله سعيداً بأن يعيش ، سعيداً بأن يؤدى الواجب .

ولكن هذه صورة جانب واحد من المدرس ، أما الجانب الآخر فهو جانب الموجه الحازم ، الذى يرشد التلميذ ويوجهه إلى ما فيه إعلاء النزعات ، وما فيه الإنتاج والخلق ، وإلى السلوك الاجتماعى الصحيح .

والمعلم يمثل المجتمع الواسع بالنسبة للطفل ، وعلاقته به قمينةٌ بأن تكيّف علاقاته المستقبلة بالرءوس المختلفة فى هذا المجتمع ، وعليه أن يكون حريصاً على أن يمثل المجتمع تمثيلا يجعل الطفل مقبلا على المجتمع ، عاملا فيه ، مطمئناً إليه .

ثالثا — فى رعاية الطفولة

يشتغل الكثيرون فى الوقت الحاضر بمعالجة المشاكل الاجتماعية للأطفال عن طريق الرعاية والعلاج .

ولا شك أن كل مشكلة اجتماعية لها جانبها النفسى الذى يكون جزءاً لا يتجزأ منها .

فالطفل السارق ، أو المتشرد ، أو المجرم ، أو يتيم الابوين ، عبارة عن مشكل نفسى قبل كل شىء آخر . والمسئول عن وصوله إلى هذا الحال هو بيئته الاجتماعية التى حرمته من عوامل النمو السليم ، وهيأت له الفرص للنشوز والانحراف .

ولذلك فالفحص الاجتماعى يجب أن يكون له مرماه السيكولوجى ، وكذلك يجب أن يكون للعلاج فى النهاية هذا المرمى ، حتى يمكن الاعتماد على نتائجه .

ويرمى العلاج فى الغالب إلى إعادة بناء المحيط الاجتماعى للطفل ، بناء سليما ، يجد فيه ضروراته النفسية . ويكون ذلك عادة بتغيير المعاملة التى يلقاها الطفل فى محيطه تغييراً أساسياً يتفق مع مطالبه النفسية .

ومن الغريب أن الطفل سرعان ما يستجيب إلى هذا التغيير فى المعاملة ، وسرعان ما نكسب من ذاته حليفاً لنا ، يقف فى طريق نزعاته الشاذة ، ويؤدى إلى إصلاح حاله لدرجة كبيرة . بل إن المقاومة التى نلقاها عند الأبوين أكثر بكثير من تلك التى نلقاها عند الطفل فى عملية إعادة التكييف .

والأساس الذى تقوم عليه الخدمة الاجتماعية يختلف عن الأساس الذى يقوم عليه العلاج النفسانى بعض الاختلاف .

فنقطة التوكيد فى الخدمة الاجتماعية هى على بيئة الطفل — وإن كانت لا تهمل الطفل نفسه بطبيعة الحال — ولا شك أن هذا أفعل فى حالة الطفل منه فى حالة البالغ الذى يجب أن يصل العلاج إلى تقويمه هو بالذات ، بصرف النظر عن بيئته ، أى إلى تكييفه تكييفاً يجعله قادراً على مواجهة المشاكل التى تلقيها البيئة فى طريقه أيا كانت .

ولكن ذلك لا يمنع من أن المبادىء التى نتعلمها من التحليل النفسى تنير لنا السبيل ، سواء رمينا إلى تكييف محيط الطفل أم إلى علاجه ذاتياً .

ولا شك أن لمشاكل الأطفال مغزاها الاجتماعى الواسع ، إذ نرى أثر العوامل الاجتماعية الكبرى فى الحالات الفردية للشذوذ والمروق .

رابعا — فى التضامن الاجتماعى

لاشك أن المجتمع ظاهرة إنسانية نفسية ، وأنه لما يساعدنا على فهمه وتقدير المشاكل التى تقوم فيه أن ندرك هذه الحقيقة إدراكا واضحا .

فالإنسان هو الوحدة المتكررة التى يتكون منها المجتمع . والعلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، وبين كل منهم والمجموع ، هذه العلاقات تتفاعل تفاعلا أوليا وثانويا .. الخ. وتتكون من نتائج هذه التفاعلات العلائق والنظم والأسس والتقاليد الاجتماعية على اختلافها .

وعلى ذلك فدراسة الإنسان نفسه ، وما فيها من قوى ودوافع ونزعات ، وما ينشأ بينه وبين غيره من علاقات ، هذه الدراسة ضرورية لفهم القوى التى تؤثر فى المجتمع .

ويجب أن تقوم دراسة أى سيكولوجية اجتماعية على مركز الفرد فى الجماعة.

فلننظر إذن فى الوحدة الاجتماعية ، وهى الفرد ، فماذا نجد ؟

نجد أن الفرد ينشأ ولا حول له ولا قوة ، تعتمد حياته اعتمادا كليا على ما يبذله له الغير — الأم — من حماية ورعاية .

والطفل فى مبدأ حياته أنانى ، وأنانيته كاملة لا تعرف الاعتدال، ورغباته ملحه تطلب الإشباع المطلق . وعل ذلك تصبح الأم مصدر الإشباع وفى الوقت نفسه موضوعا للحب، وتمتد أنانية الطفل فتشمل الأم — أو بعبارة أخرى يحدث اندماج بين شخصيته وشخصية الأم — وتصبح لرغبات الأم صدى فى نفس الطفل لا تلبث أن تصل إلى مكان الصدارة من نفسه وتحاول انتزاعه من رغباته وشهواته . وعلى ذلك يأخذ الطفل نفسه قليلا قليلا بتلبية مطالبها حتى ولو كانت ضد رغباته . وتنشأ تجاه الأم عاطفة مركبة تحمل فى ثناياها حقوقا كما تحمل واجبات ، وتبذل الواجبات ، كما لو كانت فى مقابل الحقوق .

ويظهر الأب على مسرح حياة الطفل فيدخل هو أيضا فى الصفقة . والأب فى العادة يُكره ويُخاف لأنه يأخذ جانبا من التفات الأم ومحبتها ويحبسها عن الطفل أحياناً ويخلو بها خلوات مريبة لا يرى الطفل لها مبررا ولا يستطيع أن يحتملها فى أول الأمر .

ولكن هذه الكراهية لا تدوم لأن الأم تجد الحماية فى كنف الأب ، وتبذل له المحبة والطاعة ، فلا يلبث الابن أن يتخذ هذه الوجهة نفسها ، فكأنه

فى شغفه بإرضاء الأم يشاركها محبتها لأبيه ، فيبذل له الحب ، ويشعر فى كنفه بالأمن ، ويشاركه فيما يخلقه وجوده وقوته ورجولته من شعور بالطمأنينة والسلامة . وأما ما عدا هذه من العواطف فتكبت ، فإذا سمحت الظروف تناولها الإعلاء .

وهكذا تتطور علاقة الطفل بأبويه ويتكون تجاههما شعور مركزى معقد ولكنه يتضمن دائما وجهى الحقوق والواجبات ، أما الحقوق فهو يتقاضاها ويطالب بها من مبدأ الأمر ، وأما الواجبات فهو يحسن فهمها وأداءها كلما تقدم به العمر ، ولكن يظل الأمر أبدا أمر حقوق وواجبات ، وإن كان الطفل لا يربط هذه بتلك ربطا واضحا فى شعوره . والأساس الذى تبنى عليه هذه « السياسة » ، سياسة « الأخذ والعطاء » ، يقوم على نوع من « التعاقد » ، تقوم به وتنفذه « الأنا » ، أطرافه « الهى » و « المجتمع » و « الأنا العليا » . فكأن « الأنا » ترسم الحدود التى تتلاقى عندها النزعات الغريزية ومطالب المجتمع فى شبه تعاقد أو معاهدة يسهل « التعامل » على أساسها .

ويتسع محيط الطفل فيدخل فى « المعاهدة » أخوة وأخوات وخدم وأقارب وأصدقاء ويكون لكل فرد من هؤلاء قيمته الوجدانية الخاصة عند الطفل ، التى تختلف باختلاف ظروف الخبرة التى تجمع بينه وبين الطفل ، وباختلاف ترتيب وروده فى مجال هذه الخبرة .

وهكذا يجد الطفل نفسه فى مجتمع ، يلتمس فيه تحقيق الرغبات ، ويبذل له الواجبات ، ولكن الرغبات نفسها ، والواجبات نفسها ، تتغير بتغير الزمن درجة ونوعا . فكلما نما الطفل ارتقت مطالبه ، وتنازل عن التافه منها ، أو قام به لنفسه ، وارتقت واجباته ، وزادت قيمتها الحيوية للمجتمع .

وهكذا نرى أن « ولاء » الطفل لنفسه يترتب عليه « ولاؤه » لأمه ، ثم لأبيه ، ثم لمحيطه العائلى الصغير . وبعبارة أخرى أن أنانية الطفل أصبحت تتسع فتشمل أفرادا غير نفسه ، ارتبط معهم برباط الواجب والمصلحة .

وهذا الولاء نفسه ، هو الذى ينتقل بصورته أو بما يقرب منها ، فيما بعد

إلى ميادين نشاطه المختلفة فى المدرسة ، وفى المهنة ، وفى الزواج وفى ميدان أعم من هذا وهو المجتمع الأكبر الذى يعيش فيه مع مواطنيه .

وتصطبغ علاقته بالجماعة دائماً بصبغة تشتق من تلك التى اكتسبتها فى أول حياته مع بعض التعديل الضرورى ، فيبقى أثر هذه العوامل المبكرة فى سلوكه واضحا كل الوضوح .

والمجتمع مكون من أفراد عديدين كل منهم قد حمل معه آثار « ولائه » لأسرته وعكسها على المجتمع .

وبعبارة أخرى : إن كل فرد يتطلب من المجتمع أشياء ، ويبذل له أشياء ، ولكن هذه وتلك تتوقف على تجارب طفولته المبكرة ، ويتوقف التضامن الاجتماعى بين الأفراد على مابدأوا به حياتهم من العلائق الاجتماعية . ونخرج من ذلك بمبدأين هامين :

(الأول) أن التربية الاجتماعية الأولى هى المدار فيما يكون عليه المجتمع من تضامن وتماسك فى مستقبل الأيام ، وعلى ذلك فمهمة إصلاح المجتمع تقع على عواتق الأبوين ، ثم على عواتق المدرسين ومن يليهم ممن يحتكون بالنـــاس احتكاكا اجتماعياً ، وعليهم مسئولية نشوء هذا الولاء ونموه ورقيه .

(الثانى) أن المجتمع نفسه مسئول عن السلوك الاجتماعى لأفراده ، فهو لا يحصل على أقصى مايستطيع من الفرد ، إلا إذا بذل للفرد أقصى ما يستطيعه من رعاية وحماية . فيجب أن يشعر الفرد أنه محل عناية المجتمع ، وأن كل جهد يبذله إنما تعود عليه منفعته ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

وبعبارة أخرى فإن فكرة اتساع أنانية الفرد حتى تشمل المجتمع كله ، مبنية على تحقق شروط هذه الأنانية - التى تعمل الآن فى مستوى رفيع — وهذا التحقق لا يتحتم أن يبقى فى المستوى المادى ، بل تدخل فيه بالتدريج نواح فكرية ومعنوية ، ربما زادت قيمتها عند بعض الأشخاص على النواحى المادية .

ويستخلص مما فات أن تاريخ حياة الأفراد فى طفولتهم له أكبر الأثر فى

تكييف حياة المجتمع فيما بعد ، وأن طابع التربية والحياة العائلية فى أى أمة من الأمم له أكبر الأثر فى الطابع الاجتماعى لهذه الأمة .

وإذا أردنا أن ندرك هذا الأثر فلننظر فى أثر بعض البيئات المنزلية فى التكييف الاجتماعى للطفل . فهذه البيئات - وربما كانت منها بيئتنا المصرية - يغلب عليها التناقض فى معاملة الطفل .

فهو حيناً يجاب إلى مطالبه وحيناً يحرم منها بغير سبب معقول ، ثم هو يثاب حيناً ويعاقب حيناً مع وحدة الظروف فى الحالتين ، تخضع معاملته لنزوات الساعة ، وكثيراً ما تكون المثوبة والعقوبة رهن المصادفة . ويشعر الطفل بالقلق والحيرة إذ يرى معاملته تتأرجح بهذه الكيفية ، فلا يطمئن فى يومه إلى قاعدة للمعاملة حتى يجد فى غده مايشككه فيها ، فيعاقب اليوم على ماأثيب عليه بالأمس ، ولا يدرى المسكين أن خواطر الأبوين لا تجرى على قاعدة ، وأن مثوبته أو عقوبته كثيراً ما تكونان رهنا بما يحسانه من سرور أو من ضيق ، وتنهار القواعد التى ظنها الطفل ثابتة ، واحدة إثر واحدة ، فتزداد حيرته وقلقه ، وتندك قواعد طمأنينته وأمنه ، ولا يلبث أن يكتشف أن سلوك الأبوين نحوه سلوك أنانى ، تتحكم فيه لذاتهما ولا يتبع دستوراً ثابتاً . وينتج عن هذا الاكتشاف أمران فى غاية الأهمية :

(الاول) أن الطفل يجد المهرب فى أنانيته الخاصة ومعنى ذلك أنه «ينكص» على عقبيه ويعود إلى الأنانية الضيقة التى هى الأصل فى النزعات ، وتنقلب رغبته فى الأخذ والعطاء والتعامل العادل أنانية وجرياً وراء المصلحة حيث يجدها . فهو يرضى أباه مرة ويرضى أمه مرة ويلتمس المصلحة فى مختلف وجوهها .

(والثانى) أن الطفل ينافق وطبيعى أن يضطر الباحث وراء مصلحته إلى النفاق لإرضاء نزوات الوالدين التى لم يجد السبيل إلى إرضائها بغير ذلك . والنفاق هو الضريبة التى يدفعها الضعيف المحتاج إلى القوى المحتاج إليه .

ويدخل الناشىء معترك الحياة وهو مزود بهذين السلاحين : الأنانية والنفاق ، فهو فى كل جماعة وفى كل ناد يستعملهما ، لأنه يجد فيهما السلامة حيث تفشل

المحبة والتفاهم، ويصبح السلاحان نفسهما عدته تجاه العائلة الكبيرة وهى المجتمع. فهو، إذ يصطبغ ولاؤه لأبويه بهذه الصبغة، ينقل الصورة إلى ولائه للمجتمع.

وهكذا نرى أن الروح الاجتماعية والعاطفة الوطنية هى انعكاس لعاطفة الصغير نحو أبويه.

ونرى كيف تتكيف صورتهما فى المنزل فى السنين الأولى من حياة الطفل.

والعبرة فى هذا ذات وجهين:

(الأول) أن الوطنية تغرس فى البيت بين الأم والأب، وأن نشأة الطفل المبكرة لها أكبر الأثر فى توجيهه فى هذه الناحية، فحيث يكون دستور المعاملة فى البيت متناقضا مضطربا لا يكاد الطفل يصل فيه إلى قاعدة حتى يجد ما ينقضها أو إلى طمأنته حتى يجد ما يهددها، يهرب إلى الأنانية والنفاق فيتخذهما ديدنا فى مواجهة كل جماعة يلحق بها فى حياته.

فلنبدأ بغرس الروح الاجتماعية والوطنية فى بيوتنا (وفى مدارسنا) وليس ذلك بأن نلقن الأطفال حب الوطن بل بأن نعاملهم معاملة عادلة، ونشعرهم بالطمأنينة، ونفهمهم بأعمالنا أن الإحسان جزاؤه العطف والمحبة. وليكن لنا دستور ثابت ما أمكن، يجد الطفل فى كنفه الأمن والطمأنينة فنعده بذلك للمجتمع الأكبر ونوجهه نحو الصالح له وللمجتمع.

(والثانى) أن الفرد إذ يعمل واجبه للمجتمع، ينتظر من المجتمع أن يؤدى واجبه نحوه، ولن تجد الإخلاص من ناحيـــة الفرد إلا إذا وجد الالتفات والعطف والمعونة من ناحية المجموع.

فالفرد المهضوم الحق الذى لا يجد الأمن والطمأنينة المادية أو المعنوية فى كنف المجموع، لا يستطيع عادة أن يكون اجتماعياً أو وطنيا، لا يستطيع أن يؤدى الواجب إذا كان لا يصل إلى الحق.

فالمجتمع يجب أن يتساند ويتعاون، بحيث يحس كل فرد بأنه محل التفات المجتمع، كما يحس الطفل أنه محل التفات أبويه، فإذا مرض وجد من المجتمع عناية

به وبأولاده إذا مات ، وإذا افتقر أو ضعف أو أصيب بعاهة قدم المجتمع له ما يخفف عنه .

إذا شعر الفرد بهذا أعطى من قوته وحياته للمجتمع ولم يبخل عليه بما يستطيع من جهد أو مال أو حياة .

إذا أخلص المجتمع للفرد أخلص الفرد للمجتمع ، فكل مجتمع يستحق هذا الاسم يجب أن يقوم على قاعدة أن الواحد للكل والكل للواحد .

ولعل مختلف الدول قد فطنت إلى ذلك فى خلال هذه الحرب مما نجد أثره فيما ظهر من التشريعات المختلفة التى ترمى إلى التأمين الاجتماعى .

ولا شك أن التربية المبنية على القهر تخلق أعداء للمجتمع ، لأن قهر الأطفال كما قلنا يخلق الكراهية لآبائهم ولكن هذه الكراهية تكبت وتحل محلها المحبة للأب ، وتبقى الكراهية مكبوتة تنتظر أول بديل للأب ، فتلقى بنفسها عليه ، والبديل هنا هو المجتمع أو النظام أو القانون . . . الخ . ففسوة الأب أو المدرس قد تصل بالطفل إلى الطاعة المؤقتة ، ولكنها قد تنقلب فتصيّر الناشىء ناقما على المجتمع متمرداً عليه .

وكما أن تربية الأفراد مسئولة عن انتشار الروح الاجتماعية بين الشعوب ، فكذلك تربية الشعوب مسئولة عن انتشار روح الإخاء الإنسانى العام ولا شك أن الحروب والعداوات بين الناس هى مظاهر لنزعتهم الاعتدائية المتأصلة فيهم ولكن هذه النزعة ممكنة الإعلاء ولعل العالم ينجح فى توجيهها للكفاح ضد الفقر والمرض والجهل . . . بدلا من تدمير الناس بعضهم للبعض .

خامسا — فى الفن

إن الفن فى مختلف صوره ما هو إلا نوع من التعبير عن الطبقات العميقة فى العقل بما تحويه من رغبات ونزعات مختلفة قد أصابها الكبت والحرمان ، فلم تجد مجالا للإشباع فى الحياة اليومية ، فتحولت فى حياة الفنان إلى شعر أو نثر أو رسوم أو رقص أو موسيقى .

والفن يمتاز بقيمته الوجدانية الفائقة ، وهذه القيمة مشتقة من ارتباطه بالوجدانيات العميقة للفنان ، ونبوعه منها ، ثم أن تأثيرها فى المستمتع بها إنما يترتب على لمسها لتلك الانفعالات المكبوتة عند الإنسان بوجه عام . وأى نظرية تحاول أن تفسر الفن تفسيرا مبنيا على الشعور وحده تفشل فى تبيان عمق الأثر الذى يرتبط به . فالفنان يتكلم عن الإلهام الذى يهبط عليه، والشاعر يتحدث عن الشيطان الذى يتكلم باسمه ، وكلاهما تعبير عن عجز الفنان والشاعر عن تفسير إنتاجهما تفسيرا يرجع إلى الشعور ، بل هو إشارة واضحة إلى أن الإنتاج إنما يرجع إلى عوامل خارج « الأنا » أى إلى عوامل لاشعورية .

والجانب اللاشعورى من عقل الفنان أو الشاعر إنما يشتق القوة الدافعة التى يستخدمها فى تعبيره ، من العوامل النفسية اللاشعورية ، وهى الصراع والكبت، فيميل الانفعال الناشىء عنها إلى طريق آخر يعبر عن نزعاته المكبوتة، وعن رغباته التى لا تجد سبيلا إلى التحقيق ، وعما لاقى فى حياته من الحرمان ، يعبر عن كل ذلك بطريقته الفذة التى يتوفر فيها نوع من الانسجام والإمتاع والسمو .

وما يصحب كلا من الإبداع والاستماع الفنى من انفعال عميق ، إنما ينبع من معين الغريزة نفسها . والفنان إنما يعلى مستوى التعبير عن الغريزة ، بتجريد هذا التعبير من العناصر الجنسية والحسية المباشرة ، وبنائه على التناسق والتنغيم والانسجام الجمالى ، الذى يلتقى مع الغريزة فى مستوى يعلو على مستواها البدائى، الذى يرمى إلى الإشباع الحسى ، فيصل إلى نوع آخر من الإشباع المعنوى .

وينتج عن ذلك نوع آخر من الارتياح والاطمئنان المهذب ، وربما كان ذلك ناتجا من تمكن الإنسان من التعبير عن نزعاته الغريزية فى هذا المستوى المجرد ، ورؤية رموزها فى الخارج فى صورة أو حركة أو شعر ، فى هيئة مكتملة جميلة قد تخلصت مما هو عالق بها من تكالب ومن تصارع ومن كبت وحرمان .

فكأن الغريزة ترى نفسها لأول وهلة فى مرآة تعمل عمل المصفاة والمرآة فى وقت واحد، فتخلّص الغرائز مما هو عالق بها من آثار الألم والحرمان، وتظهرها

فى صورة جميلة . حتى المأساة فى الفن لا تشبه المأساة فى حياتنا العادية إذ تنتهى دائما بنوع من الراحة والطمأنينة ، لأنها تظهر آلام الإنسان فى ضوء جديد .

والواقع أن القدرة على التعبير الخيالى عند الطفل ، هى أساس القدرة على التعبير الفنى عند الفنان . فأحب الأشياء إلى الطفل هى أن يلعب ، وكل طفل عندما يلعب إنما يعمل عمل الفنان المبدع ، فهو يبدع عالما خاصا به ، يعيد فيه ترتيب الأشياء والأوضاع ، ويغير العلاقات بما يجعل هذا العالم أكثر إرضاء لنزعاته من عالمه الواقعى . والطفل يهتم كل الاهتمام بلعبه وهو عنده جد أعظم الجد . حقيقة أنه يعلم أن جو اللعب ليس هو بعينه جو الحياة الواقعية ، ولكنه ينسجم مع جو اللعب انسجاما يجعله ينسى نفسه . ويتلو هذه النزعة إلى اللعب عند الطفل ، نزعة إلى الخيال ؛ فهو إذ يكبر قليلا يجد أنه لا يستطيع أن يحصل على كل ما يريد من اللعب فيبدأ فى إطلاق العنان لخياله ، والخيال نوع من اللعب بالأفكار ، فيبنى فى داخل عقله عالما خاصا يشكله كيف شاء ، ويجد فيه رغباته مجابة وآماله محققة . وتبقى هذه النزعة للخيال أو « أحلام اليقظة » بعد تجاوز مرحلة الطفولة ، ولكنها تتطور مع تجارب حياته ، فكل تجربة جديدة تطبع خيال الفرد بطابعها الخاص . فالحادثة من حوادث الخيال إنما تتعلق بأزمنة ثلاث وتحوم بين هذه الأزمنة . فهناك التجربة المباشرة التى تنشط الخيال ، أى أن هناك المثير الحاضر للخيال ، الذى يكون فى العادة حادثا له القدرة على إثارة رغبة عميقة . ومن هذا الحاضر ينحدر الخيال إلى ماض بعيد ، حيث يلتقى فى طفولة الفرد بحادثة أخرى قد تحققت فيها الرغبة المثارة فى الحاضر . ثم يعود الخيال كرة أخرى فيخلق لنفسه حالة تمثل تحقيق الرغبة فى المستقبل . وهكذا نرى أن الماضى والحاضر والمستقبل ، كل قد سلك مع غيره فى مسلك الرغبة التى تنظمها جميعاً .

وهكذا نرى أن أحلام اليقظة تعتبر البديل الذى يلجأ إليه الانسان عندما يفوت مرحلة اللعب الخيالى . وصاحب أحلام اليقظة يعمل دائما على إخفاء أحلامه عن الآخرين ، لأنه يشعر بالخجل وبالعار إذ يكشف خبيئة نفسه

وأخص ما يلصق بها . وإذا لم يخبىء أحلامه وأراد أن يقصها علينا فإننا لا نستمتع بها، بل نضيق بها ونتبرم . وهنا تتجلى مقدرة الفنان فإنه الشخص الذى يستطيع أن يحيل هـذا الضيق والتبرم إلى سرور واهتمام (١) . إن هـذا هو سر الفن ، فهو يحيل أحلامه إلى مادة لا تصدمنا ولا تثير فينا المعارضة والضيق والكراهية ، أى يجردها من العناصر الشخصية ، ومن الرغبات العارضة ، التى يخفيها ببراعته الفنية ، فيرتفع عمله الفنى عن المستوى الذاتى الأنانى ، ثم إنه يجذبنا إلى عمله بتوكيد الناحية الشكلية الفنية فيعبر عن انفعالاته بكيفية لا تكاد تقرأ فيها أثرا أنانيا أو شخصيا ، لأن التعبير ارتفع إلى المستوى المجرد. وفى هذا المستوى نستطيع أن نستمتع بهـذا التعبير عن أحلامنا ونحن خلو من الشعور بالخجل والعار . وكلما خلص التعبير الفنى من أثر الرغبات المباشرة وتجرد عن المطالب الأنانية ، الرخيصة ، كلمـــا أصبح فنا رفيعا يرفع من مستوى النزعات هـذا الرفع الذى نلمسه فى شعور السمو الذى يشعر به الفنان عندما يبدع والمشاهد عندما يستمتع .

سادسا — فى « الصحة العقلية »

تبحث الصحة العقلية فى وسائل الوقاية من الانحراف العقلى بأنواعـــه المختلفة فى أدوار النمو المختلفة، أى أنها تستقصى العلل النفسية ، وتتعرف أسبابها، وتحاول أن تتقى هذه العلل عن طريق اتقاء مسبباتها . وعلى ذلك فعلم الصحة العقلية علم إنشائى ، يبنى على معرفة كاملة بالنفس فى حالتى الصحة والمرض ، وعلى معرفة بالعوامل والمؤثرات الظاهرة والمختفية التى تعمل فى هذه النفس ، وتسبب لها أنواعا من الانحراف ، بعضها مؤقت ، وبعضها دائم . ثم تعلمنا الصحة العقلية كيف نتقيها جميعا .

وقد أفاد التحليل النفسى فائدة عظمى فى أنه أظهر لنا أثر العوامل التى ترجع إلى الطفولة الأولى ، تلك العوامل التى قد لا تدخل فى حساب الشخص ، أو

---

(١) Freud : Collected Papers

حساب المحيطين به ، وبيّن لنا أن هذه العوامل منها ما قد يظهر له أثر واضح ومنها ما يختفى ولا يظهر له أثر واضح مباشر ، بل يبقى حتى يثار فيما يلى من العمر ، فيؤدى إلى الانحراف النفسى ، وبين أيضا بكل وضوح أن أهم مراحل النمو هى مرحلة الطفولة الأولى ، وأن أهم العوامل المؤثرة فى كيان النفس هى العوامل التى تؤثر فى هذه المرحلة ، فإذا مرت هذه المرحلة من مراحل العمر فى يسر وسلام كان بناء الشخصية سليما متينا ، يحتمل كثيرا من الصدمات التى قد تصيبه بعد ذلك ؛ وإنما تؤثر هذه الصدمات تأثيرا سيئا إذا إستطاعت أن تجد من أحداث الطفولة الأولى ما يتلاءم معها ، ويردد صداها ، فيثور على النفس ، ويؤدى إلى حدوث الانحراف أو الانهيار فيها . فكأن المهم هو البناء الداخلى للنفس أولا ، فإذا كان فى هذا البناء نقطة ضعف ، أمكن للأحداث الخارجية أن تنال منها ، وإذا استخدمنا لغة الحرب الحديثة فإنه لابد أن يكون فى داخل النفس « طابور خامس » ينتهز فرص الهجوم الخارجى ليعمل فى هدم كيان النفس الداخلى .

أصبحت فترة الطفولة الأولى إذن أهم الفترات التى تعنى بها الصحة العقلية وأصبحت معاملة الطفل فى هذه الفترة أساسا لصحته وسلامة عقله .

موقف الأنا :

ويمكن وصف جميع أنواع الانحراف والاضطراب النفسى على أنها متاعب « الذات » أو « الأنا » ـ متاعب تسببها لها النزعات التى لا تستطيع الذات أن ترضيها لأن المجتمع لا يرضى عنها ، ويحارب « الأنا » ويعاقبها إذا رضخت لشهوة النزعات فيها . ويضاف الى ذلك ، كما علمنا من قبل ، مطالب « الأنا العليا » من الأنا ، وهى مطالب تؤيد موقف الأنا من النزعات وتقويها على كبحها . ولكنها قد تبلغ من التطرف مبلغا يجعلها هى بدورها من المشكلات التى تواجه الأنا ؛ فلو زادت مطالب الأنا العليا وتعددت وتطرفت لأصبحت عبئاً جديداً على الأنا ، وتكون النتيجة أن تضعف الأنا تحت ضغط الأنا العليا ،

وتطمع هذه الأخيرة ، بل ويطمع المجتمع، فيؤدى إلى ضغط جديد وإلى ضعف جديد ، وهكذا .

فكأن الأنا يأتيها الضعف من نواح ثلاث :

(الأولى) إلحاح النزعات وطاقتها المكبوتة التى تبحث عن التنفيس والاشباع.

(والثانية) المجتمع ومطالبه وما يرمى إليه من مقاومة بعض النزعات. ولكل مجتمع ظروفه الخاصة ، وقد يكون المجتمع المحيط بالفرد قاسيا بدرجة تجعل من الصعب على الأنا أن تجيب مطالبه فيما يتعلق بالنزعات فتكثر المخالفات وتتعدد.

(والثالثة) الأنا العليا ،التى تقف بالمرصاد للنزعات ، وتوحى للذات بمعارضتها وتعاقبها وتؤنبها إذا قصرت ، أو إذا جارت النزعات ولو مجاراة جزئية .

فإذا ضعفت الأنا أصبح الكيان النفسى كله مهدداً بالانهيار، لأنها الجانب الوحيد من العقل الذى يتصل بكل الجوانب الأخرى ، والذى يلقى عليه عبء التوفيق والتنسيق ، والذى يستطيع بما له من اتصال بعالم الواقع أن يجعل إشباع النزعات يتجه اتجاهاً واقعياً منتجا ، ويستطيع فى بعض الأحيان أن يصل إلى تعديل وجهة نظر المجتمع ، فيسمح بشىء من الرفق فى معالجة النزعات .

والأنا القوية هى التى تمسك الزمام فى يدها ، وتستطيع أن تصرف الأمور تصريفاً حكيما ، وأن تتفادى الأزمات ، وأن توجه التيارات توجيها يحولها من الضرر إلى النفع .

فإذا قدرنا الأعباء الملقاة عليها حق قدرها ، استطعنا أن ندرك حاجتها إلى التقوية .

والواقع أن المهمة الأولى للعلاج النفسى هى تقوية الأنا وإعادة المقدرة والثقة إليها ، حتى تستطيع أن تواجه أعباءها مرة أخرى. ويحتم التحليل النفسى الوصول إلى هذه النتيجة ، وينكر كل محاولة تقف عند تقصى الأسباب الخارجية للمرض .

ولعل هذا يوضح لنا السر فى أن العلاج بالتحليل النفسى يتوقف على كشف

مخبآت اللاشعور ، لأننا إذ نكشفها إنما نكشفها للأنا الشعورية(١) فنعرفها بما كان خافياً عليها ، وبذلك نسهل عليها الرقابة والتوجيه، ونخلصها من الخوف والقلق اللذين ينجمان عن مواجهة المجهول .

فالصحة العقلية إذن مبنية على قوة الأنا أولا وقبل كل شيء ، وعلى ذلك يجب أن تبنى تنشئة الطفل على هذا المبدأ .

والأنا كما علمنا تنشأ من النزعات نتيجة للمقاومة التى تجدها هذه من العالم الخارجى ، فهى تنشأ كوسيط بين العالم الخارجى وبين النزعات ، وعلى العالم الخارجى - أى على الأبوين والمربين - أن يبذلا جهدهما فى تقوية هذا الوسيط وتدعيم مركزه .

موقفنا من النزعات :

وتقوية الأنا عملية تدريجية تنتج عن عاملين : العامل الأول المقاومة التى تلاقيها النزعات ، والعامل الثانى الإشباع الجزئى الذى تحصل عليه كما سبق أن بينا . وتتوقف متانة بنائها على السياسة التى تتبع بإزاء النزعات من مبدأ الأمر . وهنا نتساءل هل من مصلحة الصحة العقلية للفرد أن نجيب نزعاته ونشبعها ، أو نكبتها ونقف دونها ؟ الواقع أن الجواب حاضر فيما سبق أن ذكرناه ، وهو أن الكبت ضرورى لكى نعطى النزعات فرصة لأن تبحث عن طرق الإعلاء ، ثم هو أمر لا بد واقع ولا سبيل إلى تفاديه على أى حال ، وإنما المهم أن نبذل ثمنا فى مقابل الكبت . فتكون معاملتنا للطفل من مبدأ حياته معاملة يمتزج فيها الرفق بالحزم .

هذا هو موقفنا من النزعات وهو الموقف الذى يؤدى إلى نشوء الذات نشأة سليمة وإلى تقويتها وتدعيمها .

الأنا العليا :

فإذا بدأت نشأة الأنا العليا فإن نوع المعاملة التى يلقاها الطفل قد يؤدى

---

(١) أى للجانب الشعورى من الأنا .

إلى استبدادها استبدادا شاذا يؤدى إلى عكس الصورة الأولى ، فينمو الطفل ، ونفسه تميل إلى حرمانه وشقائه ، ويعيش عبداً لتبكيت الضمير والشعور بالخطيئة . وعندما يخطىء فإنه لا يواجه أخطاءه (أو أخطاء غيره) مواجهة واقعية بل يواجهها مواجهة قاسية عمياء فى قسوتها نتيجة لنفوذ الأنا العليا .

ويصبح الشخص فى هذه الحالة ميالا لا لمجرد إصلاح الأخطاء ، بل لنوع من العقاب الذاتى والتشفى ، الذى يستمر مدى الحياة .

ويصبح ميزان الخطأ والصواب عنده ميزانا مختلا ، يبالغ فى ناحية ويهون فى الأخرى . ومن الأسباب التى تؤدى إلى ذلك أن يكثر الأبوان من تأنيب الطفل وعقابه ، وأن يضخما من أخطائه وأن يهونا من حسناته ، وإن يحرماه من محبتهما وعطفهما كلما ارتكب الهين من الأمور . وهنا نجد مرة أخرى أن المعاملة التى يمتزج فيها الرفق والحزم هى خير وقاية من هذا التطرف .

إعلاء النزعات :

والصحة العقلية ترمى إلى إعلاء النزعات . والإعلاء لا يتأتى إلا بالتدريج وبالرفق فى معاملة الطفل . ولا بد لحدوثه من اتساع مدى الخبرة العملية والاجتماعية للطفل ، حتى تتعدد أمامه فرص الإعلاء فتتجه نزعاته إليها . ومن أخطر ما يواجه النفس فى تطورها حدوث التثبيت بالنسبة لفترات معينة من حياة الطفولة والتثبيت يحدث كنتيجة لأحد عاملين ، أو كلاهما ، وهما :

(الأول) أن تُشبَع الرغبات فى هذه الفترة إشباعا يجاوز المنتظر ويزيد من إثارة الرغبة فى هذه الفترة ، فيعمل الاستمتاع الفائق الذى حصل عليه الطفل فى هذا الدور من حياته على تعلقه بهذه الفترة وميله للرجوع إليها فيما يلى من حياته ، وهذا هو سر الصعوبات التى يجدها الطفل المدلل فى سائر حياته .

(والثانى) أن تُكبت النزعات كبتا شديدا ، ويعامَل الطفل بالقهر والشدة ، فتبقى هذه الفترة من حياته مقرونة بالحرمان الشديد الذى يجعله يحن إلى العودة إليها لكى يحصل على ما حرم منه .

وعلى ذلك ، فيجب أن يحصل الطفل فى كل طور من أطوار حياته النفسية على شيء من الإشباع ويُوجَّه نحوه شيء من الكبح ، ومن هذا المزيج تتأتى النتيجة المطلوبة . وهنا أيضا نجد أن طريقنا الذهبي إلى حسن تنشئة الطفل هو مزيج من الرفق والحزم فى معاملته .

الفطام النفسى :

ومعنى ذلك أن نتعلم احتمال نزعات الطفولة والنظر إليها باعتبارها مراحل تنتهى بانتهاء وظيفتها . وعلى ذلك فعلينا أن نساعد الطفل نفسه على احتمالها ثم التخلص منها عندما يحين الوقت لذلك . وموقفنا فى ذلك كموقفنا من جهة غذاء الطفل : فنحن نسمح له بالرضاعة مادام مهيئا لها ، فإذا آن الأوان أصبح من واجبنا أن نساعده على الفطام . والفطام النفسى معناه الانتقال السليم من مرحلة إلى المرحلة التالية ، وهو يرتبط بنفس المتاعب التى يرتبط بها الفطام الغذائى ، ويحتاج لنفس النوع من المعاملة الرفيقة الحازمة .

الخبرة الاجتماعية :

وإذا علَّمنا التحليل النفسى شيئا فهو أن نقدر صعوبة مركز الأنا بالنسبة للنزعات أولا ، ثم للأنا العليا . فإذا أدخلنا فى حسابنا هذا التقدير استطعنا أن نهون على الطفل هذه الصعوبة ، وأن نأخذ بيده لكى يخرج من الأزمات المتعددة المتلاحقة بنجاح ، يكون هو أساس نجاحه فيما بعد .

والذات كما قلنا تنشأ كنتيجة للعلاقة التى تتكون بين الطفل والمحيطين به ، لكى تكون قوة داخلية تمثل وجهة نظر المجتمع فى داخل النفس ، فهى تمثل نوعا من الحلف بين متضادين هما النزعات والمجتمع ، وهى تحاول أن تعمل طبقا لرغبات المجتمع ، ولا شك أنه مما يسهل عليها ذلك أن تكون متفهمة لهذا المجتمع ، وعارفة بما يتيحه من الفرص لإشباع بعض الرغبات . لذلك فإن علينا أن نتيح للطفل فرصا للخبرة الاجتماعية تجعله قادرا على فهم مطالب المجتمع بلا

إفراط ولا تفريط ، مقدرا الأهم فالمهم منها ، قادراً على ان يجد فى مقابل التكاليف التى يفرضها عليه المجتمع ما يعوضه ويجعله قادرا على تحملها .

دستور المعاملة :

والصحة العقلية مهمة بالنسبة للطفل وبالنسبة للراشد ، فما يصدق على معاملة الطفل يصدق على التلميذ والعامل والمرءوس والمريض ، بل والسجين . كل أولئك أشخاص يتعرضون لما يتعرض له الطفل من ضعف الأنا أمام القوى اللاشعورية . والأنا فى حاجة إلى التدعيم وهذا التدعيم يأتى ممن هم فى مركز الإشراف والرئاسة والتوجيه . فالمعلم ورئيس العمل ، والطبيب ، والمشرف على السجين - وبعبارة أخرى ، فالمجتمع فى مختلف أشخاص المشرفين منه — كل أولئك يجب ان يكون دستورهم فى معاملة من هم دونهم: الرفق والحزم .

العلم بالدوافع النفسية :

والمقصود بالرفق والحزم ان نعامل النفوس معاملة مبنية على المعرفة بنزعاتها الظاهرة والخفية . ولاشك ان العلم بمبادىء التحليل النفسى يجعلنا أكثر احتمالا لأخطاء الغير ، وذلك فى مصلحتنا ومصلحة هذا الغير ؛ فأنت إذ تتحمل أخطاء الغير إنما تترك أمامه السبيل مفتوحا لإصلاحها ، إذ أن الخطأ كثيراً ما يثبت نتيجة لمعالجته بالهجمات القاسية وبالعنف . ولهذه الحالة كثير من الأمثلة فى حياتنا العامة والخاصة .

وكما أن العلم بالتحليل النفسى يجعلنا أقدر على احتمال الآخرين فإنه يجعلنا أقدر على احتمال أعباء الحياة على اختلاف أنواعها ، أى أنه يمهد لصحة عقلية سليمة . وليس ذلك غريبا ، لأن أنواع المخاوف والقلق وأنواع الهواجس والأوهام إنما تأتى من جهل الإنسان بالركن المظلم فى نفسه ، فإذا ألقى الضوء على هذا الركن ، كان فى مقدوره أن يحصل على الطمأنينة . والشعور بالطمأنينة شرط لازم للسلامة العقلية .

ولا شك أن الصحة العقلية للجماهير تتوفر إذا زاد شعور الناس بالطمأنينة على اختلاف أنواعها .

الجو العام المحيط بالطفل :

ولاشك أن العامل الأول فى السلامة العقلية هو الجو العام الذى يحيط بالطفل ، وهذا الجو ليس ثابتا ، بل هو دائم الاتساع ، فهو يبدأ بالأسرة ، ثم يتسع فيشمل الأقارب والمعارف والأصدقاء ، ويزيد اتساعه فيشمل المتعاملين مع الأسرة على اختلاف أنواعهم من باعة أو مشترين أو ممثلين للحكم والنظام ، ثم ما يلبث أن يشمل المدرسة أو المصنع أو المزرعة أو غير ذلك من المجالات التى يتحرك فيها الطفل ، ويتسع مع اتساع مدارك الطفل وتشعب نشاطه ، فيشمل جزءاً من العالم الذى لا يراه بعينه ولكنه يحس بأثره فيما يسمعه فى دروسه وفى قراءته ، ويتسع حتى يشمل المدينة ثم الدولة التى يتبعها ، وقد يشمل الجنس أو المجموعة اللغوية أو الدينية ، وقد يتسع فيشمل العالم بأجمعه بما فيه من أجناس وألوان ، وقد يتسع فيشمل ماضى البشرية بأجمعه .

والجو الأساسى للطفل هو جو المنزل بطبيعة الحال ، ولكنه لا يلبث أن يتخذه مركزا « للمراقبة » يستطيع منه أن يكتشف الجو الخارجى ، فإذا اطمأن إليه خرج يستكشف ، فإذا اطمأن إلى هذا اتسع مجاله ، وإلا فإنه يعود إلى « قوقعته » الأولى ولا يجرؤ على العودة للاستكشاف إلا بصعوبة كبيرة ولكى ينشأ الطفل نشأة سليمة يجب أن يجد إشباع حاجاته النفسية وإعلائها فى هذه الميادين المختلفة ، وذلك لأن المهمة الأساسية التى تُلقَى عليه هى القدرة على « التكيف » للمجتمع الذى يحيط به بمختلف حلقاته . والتكيف عملية عسيرة كما علمنا ، وكلما سهّل عليه المجتمع العائلى المحدود أن يُحسن تكيفه فى داخله ، كلما كان تكيفه للمجتمعات التالية أسهل وأيسر .

وقد تمر بالفرد أزمات عارضة ولكن الجو السليم يجعل احتمال هذه الأزمات أمراً ممكناً ، خصوصاً إذا كان القائمون على تربيته من الحكمة بالدرجة التى تجعلهم

يستطيعون مساعدته على تحمل أزمات الطفولة الأولى — كأزمات الفطام والتسنين وغياب المراضع والمربيات وأزمات المرض وغيرها — مما يعتبر بالنسبة للطفل كأشد الأزمات وأكثرها هولا بالنسبة للراشد .

الحلقة المفرغة فى الصحة العقلية :

ومن أكبر العقبات فى سبيل تنشئة جيل صحيح العقل ، أن الجيل الذى يشرف عليه هو نفسه محمل بنتائج الكبت والصراع التى لاقاها فى طفولته . فالوالدون — وخصوصاً الأمهات — لا يعاملون أطفالهم معاملة مبنية على الحكم الصحيح على الأمور ، معاملة واقعية ترمى إلى الوصول إلى النتائج ، بل يجدون فى غالب الأحيان أن زمام المعاملة يفلت من أيديهم : فيشتدون مع أطفالهم حيث لا حاجة للشدة ، أو يلينون حيث لا يجب اللين ، يجدون أنهم ينتقمون إذ يعاقبون ، ويغلب عليهم الغيظ من الأطفال والنقمة عليهم ، بدل اتساع الصدر والرفق ، لا يحتملون من أطفالهم ما يحتملون من أطفال غيرهم . وقد يخرجهم عن حدودهم مجرد لعب الطفل أو ضحكه أو قيامه بما لا يضر أو يفسد من ألوان النشاط . هؤلاء آباء وأمهات قد حُمِّلت حياتهم بنتائج الصراع ، فهم يُحَمِّلونها بدورهم لأطفالهم ، إذا أتيحت لهم هذه الفرصة الفريدة ؛ وإن الأم التى تعامل طفلها بهذه الكيفية إنما تعود عودة مؤقتة إلى طفولتها هى ، وتعامل الأطفال بقسوة العقل الطفلى وعنفه وقلة احتماله ، وبما يحمله من الغيظ والغيرة والرغبة فى التدمير والتخريب . وتكون النتيجة أن ينشأ الأطفال بدورهم وهم محملون بنتائج الصراع التى تظهر فى معاملاتهم للناس ، ثم لأطفالهم إذا قدر لهم أن يكونوا آباء .

فإذا لم يكن للعلم بالتحليل النفسى إلا أن يلفت نظر الآباء إلى أن كثيرا من سلوكهم مع الأطفال لا يرجع إلى الروية والحكمة ، بقدر ما يرجع إلى ما لاقوه هم فى صغرهم من أنواع المعاملة الشاذة ، فإنه يكون قد أدى خدمة جليلة للصحة العقلية للأجيال الناشئة .

أعداء أحبائهم :

وهناك كثيرون من الأشخاص تحسن علاقاتهم مع الغرباء ومع المعارف السطحيين، ولكنك لا تكاد تدخل دائرة الاتصال الوثيق معهم حتى تجد حالهم قد انقلبت من الحسن إلى السوء ، فتجد الواحد منهم لا يقرب صديقا إلا وأبعده ، ولا يأنس لرفيق إلا ونال منه ، وتجده فى بيته وبين أولاده شخصاً قاسياً عنيفاً فكأن علاقاته كلما اشتدت وقويت ، كلما ظهرت فيها آثار الصراع . وهذه حالة واضحة لأنها ترينا كيف أن عوامل الكبت تنصب على العلاقات العائلية وأشباهها . وأمثال هؤلاء يكونون رؤساء خطرين وأصدقاء خطرين وآباء خطرين لأن القرب منهم يكون بمثابة اقتراب السفينة من دوّامة قوية دوّارة . وربما كان فى أخبار الأقدمين عن الملوك ، ما يؤيد هذا الرأى فكثيرا ما نصح الحكماء بالابتعاد عن الدائرة الضيقة لهم ، أى الابتعاد عن صداقتهم وأحكام الصلة بهم ، لأنه فى هذه الدائرة يتجلى تنكيلهم وجبروتهم . وأمثال هؤلاء هم أشخاص لاقوا فى صغرهم من العنت من الأقربين ومن إليهم ما جعلهم يربطون بين هذا العنت وبين توثق العلائق ، فكلما زادت علاقاتهم بالناس قوة وتوثقا كلما شعروا أنهم مرغمون على معاملتهم معاملة شاذة قاسية .

الخلاصة :

وأخيرا لعل فى الحكمة القديمة التى نطق بها سقراط « اعرف نفسك » خير مبدأ من مبادىء الصحة العقلية : فذلك الذى يعرف نفسه — وما أعسر معرفة النفس — هو الذى يستطيع أن يستمتع بحياة سعيدة سلسة منسجمة . قد يتعرض للنوائب والنوازل ، ولكنها لا تنال من سلامة النفس إلا بقدر ما تترك السحابة العابرة من أثر فى صفاء الجو .

ولعل خير ما أفعله فى ختام هذا الباب أن أنقل ما كتبه الدكتور هادفيلد المحاضر فى علم النفس بجامعة لندن فى ختام كتابه « علم النفس والأخلاق » فيما يلى (١) :

---

(١) Hadfield : Psychology and Morals

هناك مبادىء ثلاثة للصحة النفسية والخلقية وهى : اعرف نفسك ، وتقبلها بالرضى ، وكن كما أنت (١).

« اعرف نفسك »

إن الغرض الذى يجب أن نرمى إليه من اختبارنا لأنفسنا هو أن نعرفها على حقيقتها . ولعل ما نصح به الفيلسوف الأغريقى لم تتح له فرصة التحقق أكثر مما أتيحت له فى الوقت الحاضر ، والفضل فى ذلك للكشوف الحديثة فى علم النفس . فمعظم الناس يظنون أنهم يعرفون أنفسهم ، وهم فى الواقع إنما كانوا يعرفون أنفسهم كما يريدونها أن تكون ، لا كما هى فى الحقيقة . فإذا أدركنا أن ما نريده لأنفسنا هو شىء لا نملكه ، فإنه لا يدهشنا أن نعلم أن ما نظنه فى أنفسنا هو عكس الحقيقة ، أو عكس ما يراه الناس فينا .

وليس فى حياة أى شخص لحظة أجل ولا أعظم من اللحظة التى يتكشف فيها على حقيقة نفسه ؛ وقد يأتى ذلك أحيانا كنتيجة لمقارنة الإنسان نفسه بمثل أعلى كما يحدث فى الدين ، ويأتى كنتيجة التحليل . وغرض التحليل النفسى ، هو أنه يكشف عن الشخص كله ، إذ يكشف عن نفسه . وإن ما يظهر للشخص عن نفسه ليدهشه هو قبل كل إنسان ، بل إنه قد يصدمه صدما ، لغرابته وقلة توقعه.

« تقبّل نفسك »

من أصعب الأمور فى الحياة ، أن نتقبل أنفسنا ونرضى بها ، بعد أن عرفناها. وهناك فرق كبير جدا بين مجرد احتمال الانسان لنفسه وبين تقبلها بالرضى ، فعند ما نحتمل شيئا ما فمعنى هذا أننا لا نتقبله . فنحن نحتمل من أنفسنا نزوات ، ونحتمل من أنفسنا الغرور أو الطمع أو ورود الأفكار الشريرة عليها ، ولكننا إذ نفعل ذلك ، إنما نعتبر أننا نحتمل ذلك من أنفسنا ، إنما نعترف بأننا لا نتقبله. والواجب أن نتقبل أنفسنا كما هى ، وبهذه الوسيلة نستطيع أن نكتسب نزعاتها الغريزية إلى جانبنا ونوجهها الوجهة الصالحة ، وخير طريقة لترويض الوحش أن

(١) فى الأصل . Know Thyself, Accept Thyself, Be Thyself

نجعل منه صديقا . فالرجل الذى يشعر بأن سلوكه يصطبغ بالطراوة والرفق حتى ليكاد يعتبر « مؤنثا » لا يفيده تجاهل هذه الصفة فيه ، بل يفيده الاعتراف بها ، وتوجيهها الوجهة التى تجعلها مثمرة . والرجل المغرور لا يفيده أن يكظم غروره ، ويحوله إلى شعور بالمذلة والضعة ، وإنما يفيده أن يعترف بما يتصف به نفسه ، وأن يوجهه الوجهة الصالحة المنتجة . والرجل الذى يشعر فى نفسه بالنزعة الشهوانية تملأ أفكاره ، يجب أن يعترف بها ويتقبلها ، ويحاول أن يكشف السبل التى يوجه فيها ما كمن فى نفسه من طاقة .

وربما يظن البعض أننا إذا تقبلنا أنفسنا كما هى ، فإنما ندمر كل أساس للخلق ؛ والواقع أن هذا فهم خاطىء لأن التقدم الخلقى لا يمكن تحقيقه إلا على أساس مواجهة الواقع .

والصعوبة التى نجدها فى الاعتراف بأنفسنا وتقبلها كما هى فى الواقع ، هى أن ذلك إنما يغمز الصورة الوهمية المضخمة التى نرسمها لأنفسنا عن أنفسنا . والتحليل يزيح أمثال هذه الصورة الوهمية ، وكثيرا ما يكشف لنا أننا أشخاص عاديون بدرجة غير عادية . فإذا تقبلنا ذلك فلا يكون فيه راحة وطمأنينة لأنفسنا فقط ، وإنما يكون دافعا عظيما للتقدم الخلقى .

« كن كما أنت »

من الطبيعى أن نهتم بما يظنه الناس فينا ، ولكن غير الطبيعى هو أن يصل بنا ذلك الاهتمام إلى تحقيق الصورة التى يفرضها علينا الغير ، لأن ذلك معناه أننا نقوم بدور تمثيلى ، وأننا نحاول الخروج عن أنفسنا ، وأننا نفقد شخصيتنا .

ولكل منا أكثر من شخصية ، ومن أهم هذه الشخصيات الشخصية التى نظهر بها للناس — أى شخصيتنا كما تظهر للآخرين .

وهذه الشخصية « المظهرية » هى القناع الذى نصطفيه والذى نريد من الآخرين أن يروه . وكثيرا ما تكون هذه الشخصية بعيدة عن شخصيتنا الحقيقية ، بل ومناقضة لحقيقتنا النفسية كل المناقضة . وبينما تعبر الأولى عن سلوكنا الخارجى تعبر الثانية عن أنفسنا الحقيقية ، وكثيرا ما نجد أنفسنا نفعل ما نسترجع إليه لمجرد أننا نظن أنه يناسب الآخرين .

وهذه الرغبة فى أن نصطنع ما ليس فينا ، ونتعمَّل ، تجعلنا نحاول أن نُلبس أنفسنا لبوس الغير ، ولا نلبث أن نخال أننا قد أصبحنا وهم سواء .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما يأتى من حياة المشاهير ومنها ما نجده فى حياة العاديين من الناس .

فنابليون كان يفخر بأنه موسيقى أكثر مما يفخر بأنه محارب ، والقيصر وهلم كان يظن نفسه مثَّالا ، وهكذا نجد الحلاق فنانا ، والاسكافى جراحا ، والعطار مدير متجر ، وغير ذلك مما يستطيع أن يدركه كل من حادث أمثال هؤلاء الناس أو قرأ اللافتات التى يكتبونها على محالهم .

وهذه التخيلات لا تكون ضارة مادمنا ندرك أنها تخيلات ، ولكنها تصبح ضارة إذا اندمج الشخص فى دوره اندماجا جعله ينسى شخصيته الأصلية ويفنى فى الشخصية الخيالية التى خلقها .

وقد قيل على سبيل السخرية إن اللغة قد أخترعت لتغطى على الفكر ، وربما صح ذلك أيضا عن السلوك فكثيرا ما يكون سلوك الانسان لا معبرا عن شخصيته ، وإنما وسيلة لإخفاء هذه الشخصية ، فالإنسان بسلوكه يلبس قناعا يخفى حقيقة شخصيته . ولعل من الظريف أن نجد هذا المعنى متحققا فيما يسمى بالملابس الرسمية التى تضفى على لابسها أهمية كثيرا ما تكون بعيدة كل البعد عن حقيقة نفسه .

كما أن الواعظ يصطنع صوتا يكسبه قوة التأثير ، والقاضى يظهر بوقار يجعل له فى القلوب هيبة ورهبة ، بينما يظهر البائع بمظهر اللياقة والاستعداد للخدمة .. كل هذه إنما يقصد بها أن تغطى نواحى الضعف فى النفس وتحل محلها قوة ظاهرية .

ولكن الواقع أنه بمجرد أن يفقد الإنسان شخصيته الأصلية ، ويصطنع الشخصية الخارجية ، فإنه يفقد قوته الداخلية الحقيقية ، ويصبح أضعف مما هو ، لأنه يريد أن يظهر أقوى مما هو .

ولا داعى للقول إنه من النبل أن يظهر الإنسان كما هو ، ومن الضعة أن يظهر بما ليس فيه .

ولكن ظهور الإنسان كما هو ليس بالأمر السهل .

وخير للإنسان ألف مرة أن يترك الدموع تسيل على خديه فى موقف مؤثر ، من أن يدّعى أنه ينظف أنفه،وخير له أن يعترف بأنه خرج لكى يستمتع بالزحام فى يوم مهرجان ، بدلا من أن يقول « خرجت لأشاهد الناس وأدرسهم » ، وخير للكناس أن يكون كناسا من أن يكون موظفا بمصلحة التنظيم ، وللمدرس أن يكون مدرسا من أن يكون أستاذا .

ومن الغريب أن العالم يحترم أولئك الذين يكونون أمناء وصرحاء ولكنه لا يظهر الرغبة فى أن يتبعهم ، ومع ذلك ليس هناك راحة ولا سلام أكثر من أن يشعر الإنسان أنه يظهر على طبيعته ولا يتكلف .

وليس أبدع فى إبراز هذا المعنى مما ذكره « جيمس » (١) من أن سيدة قالت له إن أسعد يوم فى حياتها كان اليوم الذى انقطعت فيه عن محاوله الظهور بأجمل مما هى فى الواقع . وليس ذلك غريبا لأن الجرى وراء المستحيل عبء ثقيل ، ينهار الكثيرون قبل أن يستطيعوا بلوغه .

وإننا إذ نرفض أن نظهر على حقيقتنا ونحاول أن نظهر بغيرها إنما نفشل فى الغايتين . ونفقد شخصيتنا بدون أن نكسب شيئاً آخر .إن اكتشاف حقيقة أنفسنا ، والاعتراف بالدوافع التى تدفعنا يجعل فى إمكاننا أن نبنى خلقنا بناء سليما يكسبنا ذاتية حقيقية ، لأننا نبنيها بأنفسنا من المواد التى وضعت تحت تصرفنا وبهذه الطريقة نستطيع أن « نتقدم » على أساس ثابت فنصل بأنفسنا إلى أقصى ما هو مهيأ لها .

« أعرف نفسك ، تقبل نفسك بالرضا ، كن كما أنت »

ولعلى أضيف إلى ما قاله الدكتور هادفيلد قاعدة لا تقل عن السالفة أهمية للصحتين العقلية الشخصية والعامة ، وهى : أعرف غيرك ، تقبل غيرك بالرضا ، واترك الناس يظهرون كما هم .

---

(١) William James الفيلسوف والعالم النفسانى الأمريكى

BF
683 B44
1941

مراجع الكتاب

FREUD :—Introductory Lectures on Psycho-Analysis.
New Introductory Lectures on Psycho-Analysis.
The Ego and the Id.
Psycho-Pathology of Everyday Life.
Moses and Monotheism.
Collected Papers.

FLUGEL :— Psycho-Analysis.
In Essay form in "An Outliue of Modern Knowledge."
The Psycho-Analytic Study of the Family.
Psychology of Clothes
A Hundred Years of Psychology.

ERNST JONES:—Psycho-Analysis, Benn's Sixpence Library.

ANNA FREUD:—Psycho-Analysis for Teachers.

HADFIELD :—Psychology and Morals.

LORAND, SANDOR, "Editor" : — Pyscho-Analysis Today.

JUNG : - Psychological Types.

ADLER : —Understanding Human Nature.
The Science of Living.

WOODWORTH :—Contemporary Schools of Psychology.

Mc DOUGALL :—An Introduction to Social Psychology.
Energies of Men.
An Outline of Abnormal Psychology.
Psycho-Analysis and Social Psychology.

MAC CURDY :— The Psychology of Emotions.

MELANIE KLEIN :—Psycho-Analysis of Children.

I 14951861
B 13145083

AUC - LIBRARY

DATE DUE

12 DEC 1989	22 OCT 1991
5 DEC 1990	9 NOV 1991
19 DEC 1990	1 DEC 1991
2 JAN 1991	9 DEC 1992
16 JAN 1991	A.U.C
12 MAR 1991	26 JAN 1995
MAR 1991	
8 OCT 1991	

21 OCT 1986

BF
173
J3x
1948

main

00000004836

BF 173 J3x 1948/c.1